هذا الرجل

من لبنان

جبران خليل جبران

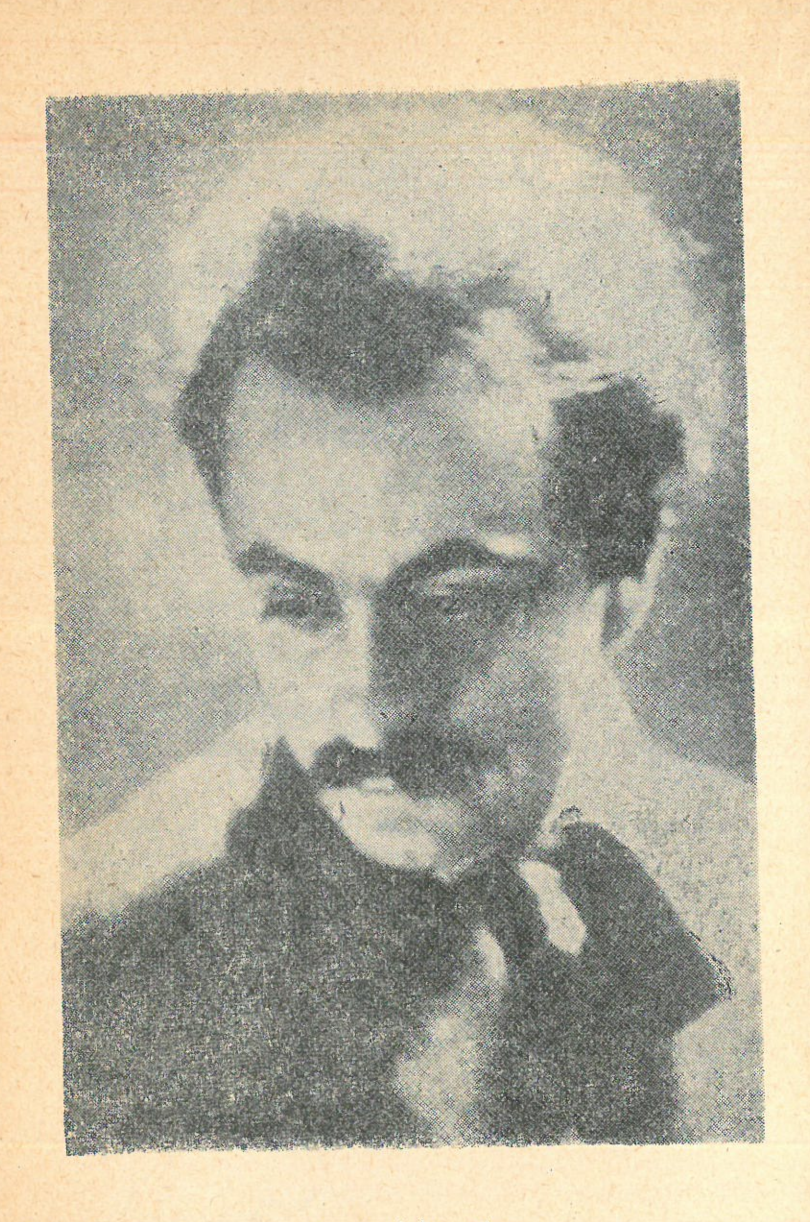
بقلم

بربارة يونغ

ترجمة

سعيد عفيف بابا

دار الاندلس
للطباعة والنشر - بيروت



جبران خليل جبران

الاهداء

الى
محبّي جبران
المعجبين بأدبه وفنّه
المؤمنين برسالته الانسانيّة المُثلى
الساعين لنشر مبادئه وتعاليمه

أقدّم هذا الكتاب

قرباناً متواضعاً على مذبح نبوغه وابداعه
ورمزاً صغيراً لعظمة الامة التي أنجبته
وخلود الوطن الجميل
الذي به كان مولده
وفيه كان مثواه .

سعيد بابا

مقدمة المترجم

•

ما كنت ولن اكون من الذين يقولون انّ الانسان يستطيع ان يتسامى فيتجرّد من انسانيته ويصبح إلهاً او شبه إله . كما اني ما كنت ولن اكون من الذين يدعون لتأليه الانسان كائناً من كان .

غير اني من القائلين إن الانسان نَهبٌ لاثنتين :

الجسمانية التي تتطلب رِيّاً وشبعاً واكتفاءً فتظل ما ظل الانسان مشتهية جائعة عطشى .

والروحانية التي ترفعه الى الأعالي فيأكل ويشرب ليحيا وإن اشتهى فليخبر نشوة اللذة التي تهمز الروح للتحليق والتسامي .

إلا انّ الجسمانية بقوة حوافزها البدائية لا تقوى على ايقاف تحليقه النسريّ . كما ان الروحانية بعظيم شوقها وحنينها لا تستطيع القضاء على تمرّغه في التراب !

وأكمل الناس مَن وفّق بين هذه وتلك فأحسنَ التوفيق !

ولعلّ الذين رافقوا جبران خليل جبران حيّاً عرفوا عنف الحرب التي كانت تستعر بين جسمانيته وروحانيته اكثر من معرفتنا لها نحن الذين حرمتنا الايام تلك النعمة .

غير اني لست أدري لمَ حاول بعض مَن عرفه من بني وطنه ووقف على بعض اسرار حربه وحبه ان يجعل الغلبة فيه للجسد لا للروح ، مع ان غرباء عديدين يرون ويشهدون ان الغلبة فيه كانت للروح لا للجسد مدللين على ذلك بالوعي والشوق والتعبّد والحنـين التي خلفها في نفوسهم وعيه الروحي وشوقه وتعبّده وحنينه .

تُرى ! هل فعل أولئك ذلك لأن جبران أحبّ واشتهى على نمطٍ لم يألفوه ام لانه سعى فأبلى على قياس لم يدركوه ؟

وما يضير جبران إن احب واشتهى ، فسعى فأكفى ، وأخذ وأعطى ، فكان فريداً في الحب ، شديداً في الشهوة ، عنيداً في السعي ، مُجيداً في الإكفاء ، مستزيداً في الأخذ ، مُزيداً مُبيداً في العطاء ؟

ومَن منا لا يحب ولا يشتهي فـ « يزني » على حدّ تعبير يسوع ؟

لكن ... أليس فينا مَن إذا طلب الـ « الخطيئة » وسعى اليها فلتكون له المرقى الذي يصعد به الى مساري الطُّهر والصفاء والصلاح والوحدانية ؟

أوَليست شهوة الجسد هي التي تهمز الروح للتحليق والتسامي ؟ وأنه بقدر ما يسف ذلك تُصعّد هاتيك وعلى قدر ما يتعرى هـذا ويتبذل ويشقى تتجرد تلك وتصقل وتنقى ؟

أما أنا فما اعتقدت ان جبران خليل جبران تجرد او حاول ان يتجرد من جسمانيته ليخلق حول شخصيته هالةً من الألوهية .

بل لو فرضنا ، جدلاً ، انه حاول ذلك لما استطاع اليه سبيلا لأن الترابية التي فيه تُقعد به عن بلوغ ما يشتهي وتأبى عليـه الوصول الى ما يتمنى .

ومع ذلك فقد استطاع جبران بروحانيته الساعية بحنين ، الواعية من

غير طنين ، المتأملة برغبة شائقة ، المتألمة برهبـةٍ فائقة ان يحلق خلال حياته الارضية ، رغم قصرها ، الى اجواء قلّ مَن وصل اليها من بني البشر .

بل ان جبران استطاع بالجهد المؤلم الشاقّ والسعي الملهم المشتاق أن يوفّق بين جسمانيته وشهواتها وروحانيته وأشواقها فيفي كلا منها حقها الكامل فعاش حياته البشرية على أكمل وجهٍ يمكن لبشري ان يحياه ، فانتشى من خمرة الشهوة الجسدية المحرقة وارتوى من رحيق التأمل الروحي المحيي ، ولكنه دفع ثمن ذلك التوفيق الرائع بين مطالب الجسد ومساعي الروح عُصارةَ نفسه ومرهف حسه فقضى وهو ما زال في منتصف الطريق !

وليس بضائرٍ جبران شيء انه قضى وهو ما زال في منتصف الطريق لأن ينابيع المواهب الدفّاقة التي تفجرت من عروقـه فاستغلها فأحسن استغلالها والوعي الذي بلغه بالجدّ الجسماني والجهـد الروحي ، والمقدرة النادرة المكتسبة بالمران الطويـل المضني للتعبير عـن الوعي الذي وعاه والحق الذي عرفه بلغةٍ عربية رائعة الاسلوب مجنحة الالفاظ ، طريفة التعابير ، بلبلية الجرس ، عندليبية الرنـين ، طافحة المعاني ، دفاقة الاخيلة ، وبلغة انكليزية جديـدة الاسلوب ، بليغـة التركيب ، مختارة الكلمات ، سلسة القياد ، ساحرة الوقع ، فاتنة الرنين ، دقيقة المعاني ، باهرة الاخيلة ، وخطوطٍ وألوان قليلة خفيفـة الظل ، رشيقة الحركة ، قوية التعبير ، مجنحة الاخيلة واضحة المغزى ، جعلتـه يحتل بحق غير منازع ، مكانة شامخة في دنيا الادب والرسم فصار صاحب مدرسة وتعاليم واستهوى باسلوبه الرشيق الفاتن ووعيه العميق الصافي وفهمه الوثيق النادر الوافي لحقائق الحياة قلوب مئات الالوف من القراء في العالم كله بعد أن تُرجمت كتبه الانكليزية الى كثير من لغات العالم وأُعيد طبعها عشرات المرات .

ولم يطمع بالوصول الى اطراف اعتاب هاتيك المكانة العالمية الشامخة

شعراء وكتّاب كثيرون ممّن كانوا حوله او عاصروه، بل قنعوا من الغنيمة بصداقته مدركين «ان الحياة وضعت في صدره قلباً هو كتلة من الشعور الرقيق والحس المتناهي» وأنه «من جبلةٍ فيها من الألوهية اكثر مما في جبلتهم» فحنوا الرأس خاشعين وصاروا له المهلّلين المكبّرين!

ثم جرت الايام وجرت معها حياة جبران الى نهايتها فخُيّل لبعض مَن كانوا حوله ولم يبلغوا مكانته وهم يحيون في جواره أنهم بالغوها بعد أن خلا الميدان من جبران. غير أنهم ما اقتدوا به فما اتخذوا لبلوغ أهدافهم السبيل الضيّق الطويل الشاق، السبيل الذي تحدّث عنه يسوع. بل ودّوا لو أنهم يصلون الى القمة قفزاً، فظنوا، وكان في ظنهم بعض الإثم، انهم لو أنزلوا جبران الجبّار من عليائه اقاموا بانزالهم اياه انفسهم في مكانه.

فقالوا عن جبران ما شاءوا وصوّروه كما حلا لهم أن يصوّروه. فكان عملهم مفاجأة عنيفة للناس في الشرق العربي الفاتن المفتون بالروحانية، كما كان مفاجأة للعرب المغتربين الذين كانوا يفاخرون بجبران الغرباء والمقيمين على السواء وبه عليهم يُدِلّون.

وقد أثارت المفاجأة تساؤلاً كثيراً، بل أثارت عجيجاً كثيفاً كبيراً. فقد احس الكثيرون أن جبران قد ظُلم وانه لا يقوى على دفع ما به اتُّهم لأنه ليس في الاحياء مع انه في الخالدين!!

ولذا انبرى لأصحاب المفاجأة مَن يدافع عن جبران ويتّهم...

وكان لأصحاب المفاجأة عُذرهم. كما كان لمن انبرى لهم عذره!

فقد نَمَت حول جبران هالة روحانية كُبرى عملت الأبعاد التي تفصل بينه وبين الناطقين بالضاد على تضخيمها. واشتركت في توسيع هاتيك الهالة صيحات المدح والتهليل والتكبير التي كانت تنطلق عنه في اميركا الشمالية فتصل اليهم رياحاً عاصفة ورعوداً قاصفة. وكان مما زاد تلك الهالة كِبَراً

أيضاً المحبة الجارفة المتدفقة من طبيعة الشرق العاطفية، تلك المحبة المقرونة لدى الكثرة بقلة التدقيق والتي يخالطها شعور ضعةٍ قليل خلّفته في نفس الشرقي قرون الاستعباد السياسي وأجيالُ الظلمة الفكرية وحِقَبُ العُقم بأفذاذ الرجال!

بل لقد بلغت المحبة ببعضهم مبلغاً جعلهم يُقرنون مؤلف «النبي» بالنبوّة فدعوا جبران نبيّاً. ولم يحاولوا التفريق بين «يسوع ابن الانسان» وكاتبه فأسموه مسيحاً جديداً... فان جادلتهم أجابوك «أليست كتبه تقرأ في كنائس اميركا ومعابدها؟».

أما الاكثر اعتدالاً من هؤلاء فقد أسبغوا عليه صفة البتولية والطُّهر موقنين أنهم بذلك يزيدونه قدراً ومجداً ناسين، او متناسين، أنهم بتجريدهم جبران من جسمانيته المشتهية يحطّون من قدر روحانيته الساعية الواعية التي ما كان بمقدوره أن يتجاوز سماكها ويتربّع في سمائها لو لم يُخمد شهوة جسمانيته باستجابة الخالد الملحّ من ندائها!!

بلى! إن المفاجأة وردّ الفعل الذي استدعته تركت قرّاء جبران ومحبّيه والمعجبين به في الشرق العربي والمهجر حيارى يتساءلون.

واني لأستحلفك يا مَن يقع في يديك كتابي هذا، أما تساءلت فيمن تساءل، مثلي، عندما قرأت ما كُتب عن جبران قائلا في نفسك:

هل صحيح أن جبران كان عبداً لترابيته وجسده فما استطاع أن يرتفع عن الارض قط؟

وأن ذلك النسر الروحي الذي رأيناه محلّقاً في «السابق» و«المجنون» و«التائه» و«النبي» لم يكن إلا خُلداً أعمته الشهوة لا يلذّ له إلا الحفر في التراب ليغرّر مَن شاء كما شاء من بنات حواء؟

وهل صحيح أن جبران لم يكن ذلك الخلاّق المجيد المبدع الذي قرأناه فأكبرناه بل كان رجع الصدى الأضعف لصوت «نيتشه» والترداد

الأجوف لصيحات « وليَم بليك » .

وهل صحيح أن متذوقي الأدب العالميين ، على وفرة عددهم وكثرة عُددهم ، لم يكتشفوا ذلك فيه وما عرفوه فترجموا ، مخطئين ، كتبه الانكليزية الى لغاتهم رغم وفرة غناها الأدبي ؟

وان نقّاد الكتب في جميع بلاد الأرض ما اهتدوا على سعة اطلاعهم وطول باعهم ، الى سرقات جبران الأدبية ولا وقفوا على نقله من مختلف الآداب او تقليده لبعض الكتّاب فسكتوا عنه وكأنهم متآمرون ؟

وهل صحيح ان جبران كان يظهر للناس بمظهر ويستر في قلبه وصمته ما يستر . . . فيعلن في الجهر من اموره أمراً ويرتكب في السر من شروره شرّاً ؟

وهل صحيح أن جبران كان يعشق المال ويسعى اليه متكالباً عليه حتى لقد كاد يفقد عقله عندما خسر صفقة عقارية كان قد تورّط فيها ؟

وهل صحيح أنه رضي ، طامعاً ، أن تظل دولارات « ماري هسكل» تأتيه في اواخر كل شهر الى ان توفي مع انه لم يكن بحاجة اليها ؟

وهل ... وهل ... الى ما لا ينتهي من أسئلة تأخذ في رقاب بعضها أطلقها الأخذ والردّ من عقالها فظلت حائمة حائرة تنتظر جواباً كافياً وافياً شافياً ممّن عرفوا جبران حيّاً ورافقوه فأحبّوه فما ارتدّوا عليه ولا أنكروه !

اسئلة كثيرة ظلّت حائمة حائرة تنتظر ... فطال انتظارها وزاد الانتظار عذاب سائليها حتى طلعت علينا « برباره يونغ » بكتابها عن جبران خليل جبران بعنوان « هذا الرجل من لبنان » .

وها هو سؤالك ، يا قارئي ، يسابق الريح يأتيني من بعيد قائلاً « ومَن عساها تكون برباره هذه ؟ »

انها شاعرة اميريكية عرفت جبران عن طريق شعره فآلفته .

سمعت « النبي » يُتلى في احدى كنائس نيويورك فراعها ما سمعت . فكتبت الى جبران « معربة له عن العمق والارتفاع والاتساع التي أضافها نبيُّه » الى وعيها ... فردّ عليها جبران داعياً اياها الى محترفه ليتحدثا «عن الشعر وترى الرسوم » فذهبت اليه فاذا بجبران يرحّب بها مبتسماً كأنما هما صديقان قديمان .

وقويت اواصر الصداقة بينهما حتى اذا ما سبرت غور روحه وعرفت سرّ عظمته ووقفت على مدى وعيه وعمق ادراكه احبّته حُبّ المريمات ليسوع ...

وصار جبران كل ما آلمته وحدتُه وهدّه حملُ آلامه دعاها بالتليفون الى محترفه لتخفّف الحمل الثقيل الذي ينوء به ... وكم استجابت نداءه المنبعث من أعماق كيانه !!

وصارت برباره احدى تلميذاته المؤمنات برسالته المبشّرات بتعاليمه الناشرات حِكَمه وأقواله ... تسافر على نفقتها من مدينة الى مدينة تنقل « الكلمة » فتقرأ من « النبي » او من « السابق » او من « التائه » او من « المجنون » او من « رمل وزبد » او من « يسوع ابن الانسان » وتحدث الناس عن الشاعر وتفسّر لهم رسالته .

لقد فهمت برباره عظمة جبران الحقّة فرغبت في أن تعرف منه وعنه اكثر ما تستطيع لتكتب للناس عنه شيئاً فأبدت له رغبتها فراقه ذلك منها فصار يحدثها عن نفسه وهي تسمع وتعي وتكتب ... وظلت تسمع وتعي وتكتب سبع سنوات من سنة ١٩٢٣ « حتى اللحظة التي مات فيها » .

ولقد شهدت برباره بحكم اتصالها الطويل الملازم المستمر بجبران ما لم يشهده بشري آخر منه . فلقد رافقت مولد الكثير من كتبه الانكليزية وشاهدت خلق الكثير من رسومه وسمعت ونقلت الرائع العذب من اقواله

واشعاره واطلعت على الكثير من دخائله ورغائبه واسراره .

وكثيراً ما حدث ان ظلت في محترفه الى مطلع الفجر ترى وتسمع وتكتب فتنتشي ... حتى اذا ما ارتمى جبران فوق سريره متعباً مجهداً ألقت عليه الغطاء وانسلت من محترفه مغلقة الباب بهدوء وراحت الى فندقها لتستريح !

فلما جاء يوم العاشر من نيسان سنة ١٩٣١ وألم بجبران ما الم واحس وهو في مستشفى القديس فنسنت في نيويورك بالموت مقترباً منه طلب اليها ان تبقى معه لتخفف مرارة الكأس التي كان مزمعاً ان يحتسي . قال لها « لا تتركيني ... » فلم تتركه ... حتى اذا انقطع الأمل في شفائه وفقد وعيه استدعيت اختــه مريانا واستدعي اصدقاؤه ، فجاءت مريانا وجاء من اصدقائه مَن جاء ...

وتوفي جبران فنقل جثمانه الى بوسطن ورافقته برباره الى هناك ساهرة عليه الليل فيمن سهر ، ثم رافقته الى كنيسة سيدة الأرز المارونية حيث صلي عليه ... ثم الى مقر راحته الموقت .

ثم عادت فرافقته من هناك ، بعد بضعة اسابيع ، الى ميناء بروفيدنس حيث بدأ جبران « رحلته الارضية الاخيرة » الى لبنان ليدفن في دير مار سركيس في بشري قرب ارز الرب . كما كان قد اوصى .

لقد مات جبران تاركاً ماله وكتبه ورسومه ووصيته فإذا به يعين برباره هذه القيّمة الادبية على مؤلفاتــه فميزها بذلك عن الكثيرين ممن رافقوه وآلفوه فأحبهم وأحبوه .

وقد ذهبت برباره سنة ١٩٣٩ الى لبنان لتجمع ما تبقى من خيوط حياة صديقها الحبيب لتضعها في سطور « فتحييه للناس كما هو حي لديها » فزارت بيروت وبشري ومدرسة الحكمة ودمشق واتصلت بكثيرين من اصدقاء جبران ورفاق حداثته وصباه ومعارفه ومحبيه وقادريه .

وكانت تنوي الحياة في لبنان متنقلة بين بيروت والجبل فتتعلم العربية لغة جبران الحبيبة لتنقل كنوز جبران منها الى الانكليزية . غير ان اعلان الحرب العالمية الثانية حال دون ما نوت اذ طلب اليها رسمياً ان تعود ... فعادت !

ثم كتبت كتابها هذا ...

فلما دفعه الناشرون للسوق تلقفته يدي بلهفة الظامي المشوق اذ كان الشك ينهش قلبي ... لأنني كنت اؤمــن مثل آلاف محبي جبران ، عشاق الحق السرمدي ، ان ما كتب عنه حتى يومئذٍ لم يكن القــول الفصل ولا الصدق كله . وان زاوية من زوايا حياتــه المعقدة الكثيرة الزوايا قد كشف عنها النقاب ... وأن كشف النقاب لم يكن يخلو من حدةٍ وعنف وكان الأجدر به ، كما يرى الكثيرون ، ان يتحلى بالرقة واللطف !

ماذا ؟ برباره يونغ ؟ امرأة اميريكيــة تكتب عن جبران ؟ امرأة لم يرد لها اسم في سيرته العربية وإن كان قد ورد لها ذكرٌ عابر (١) ؟ ترى من تكون ؟ وما علاقتها بجبران ؟ وما عساها تعرف عنــه وهي ليست ماري هَسكل ولا ميشلين ؟

هكذا رحت اسائل نفسي وأنا ألتهم الكتاب التهاماً . وأشهد اني ما اغمض لي جفن قبل ان أكملت قراءته اول مرة .

---

(١) «واحدة طويلة القامة ، عظمية الهيكل، زعفرانية اللون ، حادة الانف، غارقة العينين» انظر صفحة ٥ من كتاب « جبران خليل جبران » للاديب ميخائيل نعيمه .

المترجم

وتكررت قراءتي له مقارناً اياه بالسيرة العربية باحثاً محللا مستنتجاً .

ما أعظم الفرق بين هذا الكتاب وما كتب عن جبران من قبل !!
فهذا كتاب خطته يد امرأة شاعرة عن رجل شاعر .
وهي امرأة عرفت جبران لانها رافقته وفهمته فأحبته .
بل هي امرأة قدر لها ان تلازم جبران سبع سنوات كاملة عندما كانت مواهبه في اوج نضوجها ووعيه في اكمل رؤاه وادراكه في اعلى ذراه .
وهي امرأة تكتب عن رجل .
وشتان بين فهم الرجل للرجل وفهم المرأة له ! بل شتان بين معرفته ومعرفتها او بين حبه وحبها !
فالرجل يفهم الرجل ويعرفه ويحبه بعقله .. اما المرأة فبعقلها وبقلبها وجوارحها وجوانحها وبكل عاطفة من عواطفها الزاخرة الفياضة الجياشة .
بلى ... هذا كتاب كتبته امرأة عن رجل .
وهي ، كما قلت ، امرأة عرفت جبران وفهمته وأحبته .
وكانت محبتها له غاية لا واسطة .
فلما جلست تكتب كان الوفاء مدادها . فاذا بكل كلمة تقطر قلباً وكل حرف يتفجر حباً !!
فصرحت حيث يجب التصريح ولمحت حيث لا ينفع غير التلميح ، فاذا بتلميحها اوضح من التصريح وأفصح !!
وجاءت بالدليل تِلوَ الدليل لتدعم ما تريد ان تقول عن جبران الرجل الشاعر الرسام الرسول !!
ولم تسلط النورَ على زوايا في جبران ومزايا وتحبسه عن خفايا

وخطايا ... بل وصفت ما شاهدته وكتبت ما عرفته ورَوت ما سمعته وحللت ما خَبَرته بقلم يحركه الوجدان وقلب يطفح بالوفاء والشكران وعقل لم تضلله المحبة والحنان وضمير أشهد أنه حرّ حيّ فما مان الحق ولا هـان ولا خان !
وقد فعلت ذلك كله بأسلوب انكليزي رشيق العبارة بليغ التركيب شعريّ الاخيلة مختار الكلمات عذب الوقع صافي المعاني دقيقها .
لقد كتبت عن جبران « بنورٍ لا بجبرٍ » .

وسرعان ما أدركت ان نقل هذا الكتاب الى العربية واجب لا مهرب منه ليطلع عليه من لا يعرف الانكليزية من أبناء الشرق العربي مقيمين ومغتربين فيعلموا ما يقول الأغراب عن مواطنهم جبران الانسان وجبران الفنان وجبران الشاعر المحب وجبران صاحب الرسالة !
ولكن كيف السبيل الى نقل الكتاب والقيام بهذا الواجب الذي لا مهرب منه وعلينا في فلسطين كل يوم الف واجب وواجب اقلّها أهمّ منه وأوجب بل ألزم وألزب ؟
كان العالم يومئذٍ ، يوم أن عزمت على نقل هذا الكتاب الى العربية ما زال يتثاءب متمطياً من مخدّر الحرب العالمية الاخيرة يفرك عينيه الغارقتين بالدمع والدم والنار .
وكانت فلسطين آنئذٍ في ظروفٍ عجيبة ...
وما أعجب ظروف فلسطين !
فلقد حرمتنا حربنا الدائمة الدامية مع قوى الظلم الغاشمة والاستعمار المثلّث البغيض مباهج الحياة وسكينة الاستقرار والتفرغ للفن والشعر والادب .

وجرت الأيام ثقيلة بطيئة تنوء بما تحمل !!

حتى إذا جاءت سنة ١٩٤٨ حاملة في طيّاتها أملاً عذباً بانتهاء سود العهود وقيام عهدٍ للحرية جديد سعيد فرحنا متهلّلين !

إلا ان الايام في فلسطين جرت كما ... كما تعلمون !!

وظلّت تجري في ذلك المنزلق المظلم الملعون الذي هيّأه لها الخَوَنَة المجرمون ... حتى غدا الشعب الأبيّ ينتظر القوت يوزع عليه بمكيال وهو الذي لم يبخل على الموت في سبيل الاوطان بالرجال !!

وأخيراً جاءت الفترة الحاسمة في حياتي . جاءت ساعة الفصل .

فلقد ضاقت نفسي ، ولم يَعُد في كأس صبرها البشريّ متّسع .

لقد ضاقت نفسي ممّا رأت وخَبَرت فخيّرتني بين الثورة والهجرة .

فآثرت الهجرة ... متخذاً لي من هجرة يتيم قريش قدوة مُثلى !!

ولم يثنني عنها رجاء الوالد الحزين يذرف قلبه في دموعه الخرساء ، ولا دعاء الشقيق ينفث روحه في بكائه الأبكم ، ولا نداء الشقيقات يشق نشيجهن كبد فجر السادس من تشرين ، ولا توسلات الانسباء والاقرباء والاصدقاء المحبّين .

ويشهد ربي انني هويت صبيحة ذلك السادس من تشرين قرب عبّارة الاردن من ارض فلسطين أقبّل تُربها الطاهر والدمعَ اسقيه وأنا الذي وددتُ لو أنني بالدم ارويه !!

وركبت البحر الثائر المعربد المجنون وفي نفسي ثورة معربدة مجنونة هي الاخرى . وكانت قبلتي البرازيل . فحطّت بي القدم على ارضها الخصبة الخضراء المراح في فجر العشرين من كانون الاول سنة ١٩٥٠ وهو يوم مولدي فكان لي ذلك بشيراً !

واستقرت بي الحياة في هذا البلد الآمن الطيّب الكريم . ولقيت من

عطف كرام المغتربين ما عوّضني بعض عطف الأهل والأحباب في فلسطين .
وكم ذا يفزعني التخصيص ! اذ أخشى ان خصّصت ان يضيق بي ، على وسعه ، المقام ، او أن تخونني الذاكرة فأنسى ، غير متعمدٍ ولا متقصد ، فأُعاتب وأُلام .

إلا أن واحدة لا بد من التصريح باسمها ولو أن التصريح لا يفيها سوى بعض الدَّين الذي لها عليّ .

تلك هي زوجتي المحبة المخلصة الحنون التي قبلت التضحية ، وهي كبرى ، فخلّفت من أجلي ، رغيد العيش هنيئه ، وتركت الأم والأب والاشقاء والاقرباء والمحبين من الصحب ورافقتني ، فخفّفت الثقيل وقرّبت البعيد ويسّرت العسير وأقامت لي في لاهب الجحيم نعيماً !

وجرت الايام في ظلّها هانئة رضيّة ... فأمنت النفس بعض الأمن وانتشى القلب بخمر الهدوء فاذا بي يعاودني الى الادب حنين وإذا بأجنحة الذكرى تحملني الى الفردوس الضائع ، فلسطين ، فأبصر رام الله بلد مولدي الحبيب ، رابضة فوق شامخ قمم بيت المقدس ، تتطاول بثغرها الظامي لتقبّل الشمس في الصباح وهي تتمطّى خلف موآب عبر الاردن المبارك تتجاذبها بقية غفوةٍ عذبةٍ خلّفها في أجفانها ليلُ تموز اللاهب ، ثم تعود في المساء لتقبّلها قبلة الوداع قبل أن تستلقي في أحضان « المتوسط » لاهثة نشوى من طول ما أعياها المسير المشوق .

فأذكر فيما أذكر مكتبة كانت لي هناك جمعت ما لذّ وطاب من عيون الادب وروائع الشعر . واذكر كتاباً كان لي فيها عن جبران عنوانه « هذا الرجل من لبنان » واذكر انني عاهدت النفس على نقله . فإن لم أفِ بعهدي اليوم فمتى افيه ؟

وجلست اكتب الى برباره يونغ صديقة جبران الوفية استأذنها نقل كتابها الى العربية فجاءني ردّها حاملاً اذنها الكريم . فانكببت على الكتاب

انقله ، وسهرت ما سهرت وأجهدت العقل والقلب والعينين واليدين . وكنت كلما غمرتني موجة تخاذلٍ وتكاسل اسمع صوتاً في داخلي يحفزني على المسير هامساً في اذني قائلاً « كل شيء يهون في سبيل جبران ومحبّيه وقادريه... بل كل شيء يهون في سبيل نشر الحق المدثّر بالجمال اللفظي البديع المؤدي رسالته الروحية الخالدة ما خلد للبشر عقل وعين وقلب يهزّها الجمال وبه تنتشي » فأنسى الجهد واستخف بالضنى وأجدد السهر حتى يتململ الفجر بين ذراعي المشرق .

ثم تمّ الكتاب ...

ولن أحدثك يا قارئي ، عمّا في هذا الكتاب من روائع وبدائع وأسرار ... فهذا هو بين يديك .

فإن كنتُ بنقله قد ساعدتك على فهم جبران واجلاله وحبّه اكثر مما كنت تفهمه من قبل وتُجلّه وتحبه فذلك حسبي وحسب المؤلفة الكريمة فيما أرى . أما إن كنت قد قصّرت عن مطلبك فأنا الملوم لا هي ... وحسبي عندئذ نشوة خبرتها في نقله ومتعة كنت آمل أن اشركك بها فخانني التوفيق .

تشرين الاول سنة ١٩٥٣
سان باولو — برازيل

سعيد بابا

هذا الرجل من لبنان



المؤلفة

برباره يونغ

الــى

مريانا جبران

•

إن نفراً من عابري السبيل يجوبون الارض غرباء حتى اذا ما انتهى بهم المطاف ظلّوا بها مخلّدين . يعيشون معنا الى حين ويدعوننا إخوة غير أننا سرعان ما ندرك انهم من جبلة خالدةٍ فيها من الألوهية اكثر مما في جبلتنا ، وانه بقدر ما نتقبّل مُدركين ما يقولون وعلى قدر ما نضم اصواتنا المبهمة الحائرة الى اصواتهم يتيسّر لنا الاندماج المحدود بهم والتآلف العابر معهم .

وكم نتمنى عندما نكتب عن هؤلاء أن نغمس ريشتنا بنور لا بحبر... كم نودّ أن نكتب عنهم بصدق غير متبذلين ... بل كم نفضّل أن نجلس عند قدمي الذكرى فلا نكتب إلا عندما تذكي معجزة قوّتهم وحكمتهم النارَ في جذوةِ قلبنا الصامت وعندما تصبح كتابتنا لَهَباً في الليل الذي يُسربلنا .

المقدّمة

•

أنا لا أرغب في ان اكتب شيئاً رائعاً مثل سيرة جبران خليل جبران. بل اود ان اكتب ببساطة وبلا التواء عن جبران الذي عرفته : جبران الرجل بين اصدقائه ، جبران الفنان في محترفه وهو يكتب او يرسم ، جبران الكادح الذي لا يتعب ، جبران الذي كان باستطاعته ان يدرك بسرعة لمّاحة العمل الجيّد الذي يخلقه اي زميل ، وأن يشير ضاحكاً مغنياً الى تقصيره في تسجيل « الكلمة التي لا بدّ منها في الموضع الذي لا بدّ منه » .

غير أن الكتابة الكاشفة خفايا جبران هي ليست في رواية حوادث حياته ووقائعها أو وصف ما تمّمه في أثنائها . ولا هي في تساوق هاتيك الحوادث وانسجامها . إذ أن حشد الحقائق وسرد الحوادث والاختبارات لا ييسّران لنا ادراك حقيقة جبران ، لأنه كان إيماءةً نادرة للقوة الجبارة التي لا اسم لها . ولقد كانت تكمن في صوته وفي كيانه سلطة عُلويّة يجب ألاّ يُخلط بينها وبين الإبداع الإنساني المجرّد ... وذلك لأنه لم يكن بكليّته في هذا العالم .

إن الأسباب والقوانين التي تتحكّم بالرجال العاديين لا تتحكّم بالعباقرة . ولقد قالت والدة جبران عنه في حداثته « إن ولدي خارج على كل مألوف » وما قيلت فيه كلمة أصدق من هذه . لقد ادركت أمه

بدمها وروحها ما لم يكن بمقدور العقل أن يكشف عنه النقاب وكان ذلك منها إدراكاً لا معرفةً .

وكان جبران بين حينٍ وحين يقول لي « سامحيني ... كثيراً ما لا اكون هنا ... » وكان يقول هذا بعد لحظات طويلة من مخالجة أفكار تلوح كأنها لا ترتبط بالزمان والمكان ، حتى لقد اصبح من السهل على مَن يلازمه الساعات المتوالية ، يوماً بعد يوم ، أن يعتاد هذا الانزواء منه ويعرفه ويحترمه .

إن الجلوس لديه في مثل ذلك السكون المتتابع الذي كان يهبط عليه لهو سموٌّ للروح . وكان الشعور بسكونه يتعالى متسامياً فينتشر في جو المكان إحساس من موردٍ غير ارضيّ فيمسك الانسان نَفَسه خشية الولوج في قدس محرابه ... بيد أن العودة الى الحاضر والواقع كانت ابداً تلوح جُهداً شاقاً من جهود الارادة والتصميم .

كنت طيلة سبع سنوات والى اللحظة التي مات فيها ، فرحةً محظوظة بمعرفة جبران شاعراً ورساماً وصديقاً محبّاً محبوباً . سبع سنوات قضيناها في الإلفة والعمل ، فلقد كنّا ، كما قال تكرّماً « شاعرين يعملان معاً باسم الجمال » .

كان جبران يؤمن إيماناً موطداً أنّ لا شيء جاء مصادفة ، ولذا فانه لم يستصغر شيئاً في هذه الحياة الدنيا . إنه دعا ايمانه هذا « استمرار الحياة » وبه عَنى الساعة التي نحن فيها كما عنى جميع أدوار الوجود التي يصبح الجسدُ فيها وعاءً للروح الانساني الكلّ حسب « الصورة » حسب « المثال » الذي لا مهرب منه .

وعلى هذا لم يكن وجودي في الكنيسة الحاشدة مصادفةً إذ قُرىء « النبيّ » لأول مرة امام الناس بعد ظهر يوم من خريف سنة ١٩٢٣ ، في كنيسة القديس مرقص في الباوري بنيويورك ، وكان بَطلر ديفون بورت

Butler Devonport رجل المسرح المرموق هو الذي يقرأ للناس من «النبي». وما عرفت إلا بعد زمنٍ طويل انّ مؤلف ذلك الكتاب المُذهل كان يجلس في الكنيسة ايضاً يستمع الى كلماتـه وهي تتساقط على قلوب مئات الناس الصامتين .

كان كلّ ما علمته يومئذٍ أنني سمعت صدقاً رائعاً جوهرياً يُلفظ بقوّةٍ وجمال قطّ ما سمعت او قرأت مثله حتى تلك اللحظة .

وكان مما لا بدّ منه أن اشتري على الفور نسخة من الكتاب وان أشارك بها الكثيرين .

وكان مما لا بد منه ايضاً ان اكتب الى الشاعر بعد ذلك بأمدٍ معربةً له بما لديّ من عاجز التعبير وباهت التفكير والتصوير عن الارتفاع والاتساع اللذَين اضافهما « نبيّه » الى وعيي ... ثم جاءت دعوته الكريمة إليّ أن اذهب الى محترفه لأشاهد الرسوم و « لنتحدث عن الشعر » .

فذهبت الى البناية القديمة في الشارع الغربي العاشر وصعدت السلالم الأربع فلقيته هناك يبتسم مرحباً بي كأننا صديقان قديمان ... وسرعان ما أدركنا أننا صديقان جدّ قديمين .

كثيراً ما نسمع الزعم القائل أنّ كل تقدير لإنتاج الفنان ، روحاً ومادةً ، يكون ذا قيمة فقط اذا ما عولج من ناحيةٍ غير شخصية .

إن التكرار لا يخلق صدقاً . ومما لا شك فيه أنه يستحيل عليّ ان اقف من جبران وانتاجه موقفاً غير شخصي ... ومع ذلك فقد وجدت على مر السنين ، انه كان من اليسير عليّ ان اطرح علاقتنا الشخصية جانباً وان أخبر دون تغرّض نسيج النبوغ في هذا الرجل وذلك بمعرفة روحه العاملة معرفةً خاصة اكتسبتها عن كثب .

في الواقع انني انغمست في انتاج ذلك الرجل قبل ان عرفته ، لقد جئته عن طريق شعره ... وما جئت شعره عن طريقه . كنت قد اتخذت منه

موقفي وما تغير موقفي قط .

ولقد كان تصرفه ذا عونٍ كبيرٍ لي . عرف ان من غايتي ان اكتب عنه وعرف ان الكتابة يجب ألا تتأثر بالصداقة . وعرف أيضاً ان كرامتي ككاتبة لا تسمح للعاطفة ان توهن تقديري لعمله العظيم او تزيده .

إنه عرف ذلك عن طريق اختلاف الرأي الذي كثيراً ما كان يحدث بيننا فيقول الواحد منا للآخر « هذا السطر لا يُنشر ولو مت » .

وعندما كنت أُزمعُ الرحيل في سفرةٍ ما الى مدينة نائية حيث كنت ابغي أن أقرأ للناس من كُتب جبران وأتحدث إليهم عنه كان دائماً يقول لي « عليكِ عندما تقفين أمام الناس ان تنسي انك صديقتي » غير اني ما كنت أستطيع نسيان تلك الصداقة بل كنت أطرحها جانباً فأتحدث عنه كأننا ما التقينا . إن قوة الأحاديث التي بين دفات هاتيك الكتب وما للأحاديث من سلطان تغلبا آنئذٍ على كل شعور آخر . وكان هذا حسناً !

كتبت سنة ١٩٣٢ كراساً صغيراً عن « هذا الرجل من لبنان » وكان ذلك بعد ان أنهى جبران هذه الفترة من الحياة ببضعة أشهر وقد كتبته تلبية لنداء المئات من الذين كانوا يتساءلون قائلين « أنّى للانسان ان يقرأ عن جبران شيئاً ؟ » إذ لم يكن قد كُتب عنه بالانكليزية سوى المقالات الموجزة .

أخرجت الكراس في فترة من الضيق النفسي وفي أثناء عهد من الألم الشخصي العميق والجُهد المعيي الناتج عن الاهتمام بالموجودات الغالية التي تركت في المحترف حيث عاش جبران خليل جبران ١٨ عاماً .

كان جبران قد أوصى ان يُنقل جميع ما في محترفه الى بلدته بشري . ولذا صار لزاماً علينا أن نُهيىء هاتيك الأشياء التي كانت عزيزة على قلبه ، وعزيزة كذلك على قلوب العديدين من أصدقائـه والغرباء الذين كانوا قد زاروه في محترفه فأصبحوا غير غرباء عنه .

وكان هناك مئات من الرسوم والصور الزيتية التي لم تـُبصر نصفها او ما يزيد عين بَشَر . كانت مركومةً على رفٍّ عالٍ صفّاً فوق صف مُهملة يعلوها الغبار . غير أن الأيدي الفتية كانت مستعدة لتؤدي المهمة . فجاء الى المحترف مؤمنون عديدون من الشباب اللبنانيين والاميركيين المخلصين الذين كان ترتيب متروكات جبران وحزمُها مدعاةً لبهجتهم وكآبتهم معاً . ولكنهم عدّوا عملهم هذا ميزة اختـُصّوا بها ولذا ظلوا الى جانبي حتى تم كل شيء .

كتبت يومئذ «نحن ما زلنا جد قريبين من جبران في لغة الزمان والمكان لنسطر رواية حياته في الصفحات . فالأرض ما زالت تبحث عن سحر وجوده ورنين صوته ما زال يتردد في اذنيها . »

وها هي ذي ثلاثة عشر عاماً قد مرت على مقالي ولست اراني راغبة في تغيير كلمة واحدة من هاتيك الكلمات . بل اريد ان أؤكد ان سحر وجوده ما امحى من قلوب محبيه ولا رنين صوته خفتَ في آذان سامعيه .

فها هي ذي الرسائل ما تزال تردني من كل أطـراف الأرض تقول « جبران حي لدينا أكثر من ذي قبل » « في هذه الأيام الكثيرة الهول الشديدة الغم تُسنّدُ كلماتــه قلبي وتعزيه » « ها الكتاب بجانبي قرب السرير ولا أنام دون أن أقرأ شيئاً أتزوده في ظلمة الليل الموحشة . » و ... و ...

إذن ها هو ذا الكتاب كتابي ... انه ليس سيرة لجبران ولا سجلا تاريخياً لحياته . فلقد قال لي مرة « إني لا اطلعك على دخيلتي إن حدثتك عما فعلت . »

ليس هذا الكتاب ضرباً من علم الانساب ولا هو شجرة عائلية . هو

قصة بسيطة للرجل العظيم كما خبرتـه خلال سبع سنوات سبقت موته مباشرة وهي السنوات التي كانت فيها مواهبه ويقظته في اوجها . هو قصة الرجل العظيم الذي كان أيضاً بسيطاً في ملذاتـه ورغائبه كالأرض في بساطتها . هو قصة من لم يكن غريباً في العالم العلوي ولكنه كان يشعر بغربة وهو في هذه الكرة . هو قصة من كـان يشتعل بنار عاطفة لا تكل من الحياة ولا تمل ، تلك الحياة التي أحدقت بجسده فتحكمت به ثم أتلفته .

إن ما قاله جبران وما قدمه للعالم من رسم وأدب ، عربياً وانكليزياً لهو أكبر من أن يقاس ، ومع ذلك فإن هاتيك الهبات التي نثرها لم تكن سدرة المنتهى من قصده ومسعاه . إن أعظم أعماله وابقاها كمعلم للناس لم تخط بقلم على ورقة ولا بريشة على لوحة ، ولكنه أودعها تأثيره الروحي في حياة الأمة ، ذلك التأثير الذي لا يضمحل .

إن كلماته التي تكلم بها وحكمة نصحه وقدوة ايمانه اللامتناهي بالله العلي الله ، الآب لجميع الأحياء ، وحبه وفهمه اللذين لا يحدان وحنوه على جميع الناس أبناء الآب ، هذه كلها اغنت العديدين من الأحيـاء غنى أزلياً وستغني أبناء أبنائهم .

وما كان يعوز جبران أن يكتب قصيدة أو يرسم صورة ليظـل توقيعه على صفحة السجل الأزلي لا يمحى لأن قوة يقظته الشخصية تغلغلت في يقظة الجيل وينبوع روحه حي على الزمن .

هذا هو جبران ...

شارون نيسان ١٩٤٤ — **برباره يونغ**

كنت بركاناً صغيراً

•

في الجو عاصفة عظيمة ثائرة والمطر هطّال ، والاشجار تتلاعب بها ريحٌ هوجاء ، وها انذا جالسة اكتب عن جبران خليل جبران هذا الرجل من لبنان ... ألا إنّ هذا لفألٌ ايّ فأل للكتاب الذي اكتب ، فلقد كان بذلك الرجل كلَفٌ بالعواصف منذ طفولته الباكرة . كان به كما قال « شيءٌ تحرّره العاصفة بجلال » .

إن هذا اليوم الثائر من آذار في هذه القرية الصغيرة القصيّة لَيوم يليق بالقصة التي ستُروى !

ها نحن الآن في سنة ١٩٤٤ وهي السنة الثالثة عشرة التي تنقضي بعدما اجتاز جبران زوابعَ هذا العالم الذي احبّ ، وهي السنة الحادية والستون على عبوره باب الولادة . لقد كانت حياته ، اذا ما قيست بالزمن ، حياةً قصيرة ، غير أنه ما عاش ولا فكـّر بحدود الزمن ومقاييسه . كانت على شفتيه ابداً هذه الكلمة « لنا الازلية » .

ولم تكن تلك كلمةً تـُقال عبثاً . فلقـد كانت عقيدتـَه وهي التي وجـّهت حياته .

قال جبران « الروح اكبر من الفضاء وأقوى من الزمان وأعمق من البحر وأعلى من النجوم » .

ولقد ُشغل طيلة حياته بالأعمـاق التي كان يعـلم أن روح الأنسان

تستطيع سَبرها ، وبالمرتفعـــات التي كان مقتنعاً بانّ الأنسان مُعـــدّ لارتقائها .

وكتب عن الخير والشر فقال « الشر لا يوجد إلا بقدر ما نخلقـــه نحن . فعلينا إذن أن نحطمه وإذا ما آثرنا عمـــل الشر فإن ذلك الشر سيبقى الى أن نحطمه . أما الخير فنحن لا نستطيع خلقه لأنه هو روح الكون ، ولكننا نقدر أن نؤثر تنسمه وأن نحيا معه وفيه » .

هذا هو جبران ... جبران الذي يعرفـــه الغرب شاعـــراً ورساماً ومؤلفاً (للنبي) ذلك الكتاب الذي قال فيه الشاعر « عندمـــا كنت أكتب (النبي) كان (النبي) يكتبني » .

إن الغرب يعرف جبران رجلا ذا بصيرةٍ روحية واسعة وأحلام ؛ يعرفه انساناً لطيفاً محبا محبوبا ذا ميلٍ للدعابة شديد وموهبـــة سماوية للتآلف والتحابب !

وفي الغرب اناس قليلٌ عديدهم يقولون فيه ما قـــاله « نتشه » في « ريتشارد واجنر » : « إنه يعرف جميع رغباتنا . هو روح غنية ، عظيمة رائعة . هو رجل فاتن يستحق كل حُبّ ... ذو خُلق نشيط تواق لكل حكمة . ليس في العالم مَن يعرفه ، ولا يقدر أحدٌ ان يدينه لأن العالم بأسره يبني على أُسسٍ هي ليست اسسه بل إنها اسس تضيـــع في أجوائه . انه تتملكه مثاليةٌ تامة وانسانية مثيرة حتى أنني أشعر بقربه وكأنني باتصالٍ مع القدرة » .

أما في الشرق فانهم لا يعرفون جبراناً واحداً !! إنهم يعرفون جبران الذي كان قوي الشكيمة وجبران الذي كان سلس القياد فكأنه سيفٌ في غمدٍ من الحرير . إنهم يعرفون جبران الذي أغضب كتابـــه « الأرواح المتمردة » الكنيسة وهز سلطنة آل عثمان . إنهم يعرفون جبران الذي خلق في حياته القصيرة اسلوباً أدبياً خاصا وابتدع مدرسة من التعبير لم

تكن من قبل معروفة في اللغة العربية ، ومَن كان وما زال المثل الذي يحتذيه شعراء العرب الشباب الذين يدعونه أباهم ومعلمهم .

ففي كتيب شعـــري عربي جاءه ذات صباح في أواخر أيامه كانت هذه العبارة :

« الى باعث الشعر الخالد »
« الى الشعلة الروحية التي نبهت روح الشرق »
« الى جبران خليل جبران »
« معلمنا
« أقدم كتابي هذا »
« وهو الصدى لصدى صوته »[١]

غير أن قلةً من الناس يعرفون جبران ذا العقل اللماح الذي لا يحده قياس ، جبران المفكر الذي تبحر على السنين بالاطلاع الرتيب والمعرفة العميقة ، جبران الذي أملى مرة على سبيل الدعابة على ثلاث كاتباتٍ في وقت واحد بثلاث لغـــات وفي ثلاثة مواضيـــع مختلفة محـــيراً بذلك الجميـــع ، جبران الذي تغذى وجوده أبداً من تربة وطنه لبنان ، ذلك الوطن الذي كان يحلم له بمستقبل مجيد والذي من أجله كان يُبـــدع بصمتٍ ، تصاميم للتحريج والزراعة وحلولاً لمشاكله الاقتصادية والسياسية .

ولقد قال جبران مرة « إنما يحتاج لبنان الى رجل يملـــك أربعة أو خمسة ملايين دولار ، يعمل مخلصاً دون ما كلـــلٍ على انمائه وتقدمه وتحسينه ولتعريفه بنفسه » .

أما جبران الذي لا يُعرف عنه إلا القليـــل إن في الشرق أو في

---

(١) كتبت الى المؤلفة اسألها عن اسم الشاعر المشار اليه فأجابت « كان جبران قد ذكر لي اسمه ذكراً عابراً غير أن الذاكرة لا تعيه » المترجم

الغرب فهو جبران الرسام الذي ترك إرثاً من الرسوم لا يُقدّر ولا يثمّن ، ذلك الارث الذي لم يحلم بمثله أكثر من بضع مئات من البشر . ان رسومه في كتبه العشرة الأنكليزية ليست ، على أهميتها وروعتها ، سوى رمز لتلك الهبة العليا .

ولم يكن يعوز جبران غير قصاصة ورق وقرمة فحم ليسجن في التعبير ، بضربات قليلةٍ سريعة قوية لينـــة معاً معنى من معاني الجمال الأصيل فكأنما هو يرسم بريشته وأدهانه .

واني لأستطيع أن أقول غير خائفة من اعتراض معترض إن حكم الأجيال سيضع جبران بسبب وعيهِ السماوي الملهم في صعيدٍ واحد مع أعظم الرسامين .

ويا شدّ ما كانت اللوحات تمور بقوة حية دفاقة كلما لامستها ريشته أو داعبها بنا'نه ! !

غير أن الكثيرين يتساءلون « أيّاً اعتبر جبران فنه الأعظم ؟ وأيّاً احب اكثر شعره ام رسمه ؟ »

كان يسأله الناس فيبتسم ... ومرة سأله والد توأمين ذكرين فأجاب « ايّ من ولديك هو الأحب الى قلبك ؟ »

لقد كانت له الموهبتان منذ حداثته ، إذ كثيراً ما حفـر جبران الصغير حُفراً في الأرض وغرس فيها قطعاً صغيرة من الورق الممزق مؤملا أن تمتد جذورها وتنمو فتصبح أشجاراً عالية فيجني منها أوراقاً بيضاء جميلة ليكتب عليها ويرسم .

وحدث إذ كان في السادسة من عمره أن أعطته والدته مجلداً من تصاوير ليوناردو دي فينيشي[1] وبعد أن قلب صفحاته لبضع لحظات انفجر

---

(١) كتبت الى المؤلفـــة اسألها أن توضح كيف وصلت تصاوير ليوناردو الى بشرّي يومئذ فكتبت تقول ان هذا هو الذي كان جبران قد حدثها به ... وقد =

باكياً وخرج من الغرفة هارباً يطلب الوحدة . ومن تلك الساعة تملكه كلفٌ كبير بليوناردو حتى إذا ما انتهره أبوه لسوء مسلكه الصبياني ثار صارخاً « ما لك ولي ؟ أنا ايطالي »

وكثيراً ما كان جبران يتذكر أيام حداثته فيقول « لست أدري كيف احتملوني . امي وحدها استطاعت أن تفهم ذلك الصبي الغريب . لقد كنت بركاناً صغيراً ، كنت زلزالاً صغيراً . »

ولقد تحدث مرة عن يوم ماطرٍ كان يخيل إليه فيه أن المطر يناديه باسمه فانسل من ثيابه وخرج يركض مستجيباً نداء المطر ... وظـل يركض حتى لحقت به والدته لاهثةً وعادت به الى البيت وهو ما زال يعاندها .

لم تكن قصائد جبران الأولى مكتوبـــة في كلمات ولكنها كانت خربشات على الثلج والصخور بأشكال ذات جمـــال غريب ليس هو من الطفولة بشيء ، كانت يداه تخربشها في بستان أبيه طيلة الشتاء . وكان الناس يمرون به قائلين « انظروا ماذا يفعل جبران الصغير . »

حتى إذا جاء الربيع مع نيسان الشرق الجميل وعانقت الشمس الثلج فذاب وتفتق في لبنان الشقيق « الملطخ بدم تموز » صار الصبي جبران يحمل الحجارة ويشذبها ليبني بها كنائس وكاتدرائيات في ظلال الأشجار الباسقة الداكنة .

ومرت الأيام فصار بمقدوره أن يكتب وكأنما حدث ذلك فجأة فظل

= سألنا الكثيرين من كرام البشرّيين في سان باولو مستوضحين فعلمنا أن ارسالية ايطالية تأسست في بشري في القرن الماضي ولذا فليس بالغريب أن تكون والدة جبران وهي ابنة كاهـــن بشرّي قد حصلت على مجـــلد من تصاوير ليوناردو من رجال الارسالية الذين كانوا ، ولا شك ، يحـاولون التقرب من أصحاب النفوذ في البلدة بشتى الوسائل .

المترجم

زمناً وليس به سوى رغبة قليلة في التصوير والبناء مستعيضاً عنهما بالكتابة المستعرة ، فكان يكتب الصفحة تلو الصفحة ثم يقرأها ثم يمزقها الف قطعة . وقد فسر ذلك بقوله « لم تكن ما قصدت أن أقول [١] » .

ومرت الأيام فبدأ يرسم بأقلام ملونة ودهان . وكانت به رغبة في الرسم يندر أن تكون في ولد صغير ، غير أنه كان يمزق الصور حالما تتم لأنها « لم تكن مثلما كنت أرى عندما اغمض عينيّ . »

وكثيراً ما خطرت له هذه الفترة من حياته الباكرة بينما كانت حياته تسير الى نهايتها المحتومة فتكلم عن أمه ذاكراً حوادث عاطفية صغيرة ذات حلاوة ونعومة كان يبكي لذكرها فيُبكي السامع معه ثم يثوبان الى رشدهما فيضحكان لانهما قد بكيا .

وقد تحدث مرة عن « الغماية » ملهاته مع امه « امي كامله رحمه » كما كان يحلو له أن يدعوها ، إذ كان يضع يديه الصغيرتين على عينيه ويقول « انك لا تستطيعين أن تري جبران . لا تستطيعين أن تجديه » فتجيبه « لا ... لا أستطيع ... » ثم تنظر حولها متظاهرة انها تبحث عنه سائلة « أين ذهب جبراني الصغير ؟ وا حسرتاه لقد ضيعته ! » فيرفع عندئذ يديه عن عينيه ويرمي بهما في الهواء صارخاً « ها أنذا ... الآن تستطيعين أن تريني » .

كانت « كامله رحمه » أم هذا الصبي أحكم من كثيرات من الأمهات فعرفت منذ طفولة ولدها ان حب الحرية في دمه ولذا قلما زجرته .

وكان جبران يجلس الساعات الطويلة غارقاً في كتاب ليوناردو أو

---

(١) ويحضر هذا للذهن بوضوح ذات يوم في سنة ١٩٢٩ عندما كانت تجري في المرسم الذي اشتغل فيه جبران ١٥ عاماً عملية الطراشة والدهان فكان يتأمل في مئات المسودات والرسومات ثم يتلف العشرات منها بتمعنٍ هادىء رافضاً أن يثني عمّا يفعل .

ناظراً الى الفضاء البعيد ساهماً أو محدقاً الى الشمس بعينيه اللتين قط ما ارتبكتا من النور الخاطف الوهاج .

وكذلك كان يجلس الساعات هادئاً منصتاً بينما تقرأ له امه قصص هارون الرشيد أو تروي له أشعار أبي نواس أو تغني له بصوتها الجميل الساحر الأغاني الجبلية الحنونة الثائرة النائحة . إن صوت « كامله رحمه » ما يزال اسطورة من الأساطير في لبنان ...

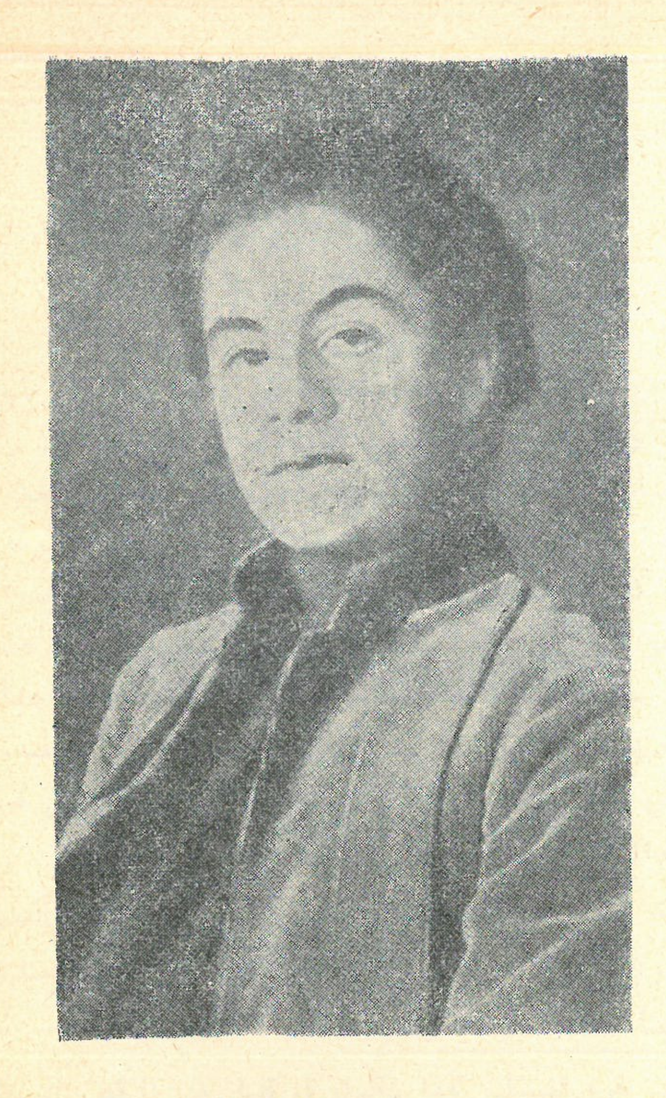
قال جبران عن امه « لقد كانت حياتها أشعاراً لا تحصى ولو أنها لم تكتب قصيدة واحدة » وقال أيضاً « ان الأغنية التي ترقد صامتة في قلب الأم تنشد مغنية على شفاه الطفل » .

وحقاً كان ذلك إذ بينما كان جبران يحيا بأشعاره التي لا تحصى كان أيضاً يغني أغاني امه وأغانيه . ولما توفيت قال « لقد كُفنت حياتي ، ليس لانها امي ولكن لانها كانت أليفتي » .

كان جبران يقول « إن كل انسان فنان في الواقع » وكان يقول هذا عن عقيدة ولعل ذكرى طفولته هي التي حملته على هذا الاعتقاد .

وقال « إن تعليم الطفل رسم العصفور لسهلٌ مثل تعليمه كتابة كلمة عصفور ، وقد ينظم الطفل الشعر وهو يتعلم تركيب الجمل ويصنع التماثيل وهو يتعلم كيف يبني بلعبة مربعاته الأولى » .

ولقد كان أرباب التهذيب يلفون ويدورون حول أطراف هذه الفكرة ولكنهم ما قدروا بعد ماذا يستطيع مساق مبني على هذا الأساس أن ينجز . لقد نسينا — أم تُرانا لم ننسَ ؟ — ان ليس هناك سوى لغة واحدة جامعة وأن صوتها الفن .



جبران في مدرسة الحكمة (بيروت)

سنة ١٨٩٨

خطر ثوروي ومسمم للشباب

●

كان جبران خليل جبران عديد النواحي ومنها أنه كان يلهو بالحياة كالطفل . ويخيّل لي انني استطيع ان اقول إن القلائل فقط رأوا هذا الجانب الساحر من الرجل العظيم . فلقد كان يظهر منه بين الفينة والفينة لمّاحاً بعد ساعات طويلة من العمل الخلاّق إذ ينوء بحمل نبوغه فيرميه عن كاهله كأنما هو قطعـــة لباسٍ فينهض عن كرسيّه او يدور فجأة وبتعبير هو اشبه ما يكون بالعبوس في وجهه الكثير التغيير كان يقول: « الآن سأنظم لك شيئاً من الشعر الاميركي الحديث » ثم يبدأ فينظم مقطعاً شعرياً غير موزون هو كلام مهلهل لا معنى له ولكن فيه شيء من المزاح الذي يفوق مزاح أوجدن ناش Ogden Nash أوصموئيل هوفنشطين Samuel Hoffenstein في اخبث تجلّيها وأبدعه .

ثم يتلو ذلك الضحك الطيّب القلبي الشافي حتى تنهمر الدموع على خدودنا . وكم كانت تلك الحالة من المرح تستدعي انتاجاً مرحاً مثلها فيخلق جبران شيئاً مضحكاً رائعاً ونادراً معاً .

او لعل لهوه الصبياني هذا يكون في قليل من الرقص إذ يضع يده على خصره ويرقص رقصة خفيفة مقلّداً الى حدّ الكمال راقصة رشيقة الحركة اشتهرت ضحكتها في عالم المسرح ثم يتلو ذلك الضحك مرة أخرى، وسرعان ما يزول عنه الإجهاد والضنى .

وكذلك كان جبران الذي كتب وتكلّم بسلطان وقدّر قيمة عمله التقدير كله يُخفي جبراناً آخر هو جبران الخجول الكتوم الذي يكاد يهوى الانزواء، جبران الذي كثيراً ما كان يتساءل كالطفل الفزِع كلما كان على وشك أن يُقدّم للناس « هل عليَّ أن القى اولئك ؟ وهل يجب ان اقف وأتكلم أمام هؤلاء ؟ » لقد كان ذا احساس مرهف عال مؤلم وكثيراً ما انزوى في صدفته وهو يقول « هل عليّ ان اجيب الهاتف ؟ »

امّا صمته فقد كان صمت المخلوق الذي زُجَّ به في عالم غريب، او صمت الانسان الذي ما قَبل عقله وما قبلت روحُه اساليب الارض ولا اعتنقاها . قال لي جبران مرّة « تمر بي ايام كثيرة اشعر فيها كأنني قد وصلت منذ لحظات من كوكب آخر . انا رجل بلا امس على هذه الارض . إن حركات الناس وأصواتهم غريبة عني » .

ولقد ادرك تمام الادراك شيئا كان يعتبره واحداً من القيود التي تكبله وتُقعد به فقال « انا لست بالرجل الطيّب . إذ عليّ ان انسجم بوحدانية كل ما هو على هذه الارض الطيبة ولكني لا أستطيع . »

لقد شعر جبران انه كان مقصّراً الى حد ما في عمل كل ما ترتجي السماء منه . وفي لحظة مرارة قال ذات مرّة « انا انذار كاذب ... لست ابدي دخيلتي كما اشتهي » .

إن عظمة خياله ورغباته فاقت طاقتَه البشرية، ومع ذلك فقد كانت حياته مدداً فيّاضاً وعوناً متواصلا للمتألمين والمعوزين . لقد كان اكرم الناس كما يشهد بذلك فريق معيّن من مواطنيه الموهوبين الذين تحوطهم الآن ظروف خاصة تحملهم على التمرد والتنكر والجحود ...

وكثيراً ما كان يُغبَن فيعرف ذلك . إذ ما استطاع واحد ان يخدعه طويلا بالرغم من ان اشخاصاً اغبياء ظنّوا انهم تملّكوه مستأثرين بـه . وقد كتب مرة « إن بي نمطـاً غريباً من التسامح . اذ تمر بي أحيانٌ

يُساء اليّ فيها وأُخدع وانا اعرف ذلك فأسخر من اولئك الذين يظنون انني اجهل ما يعملون » .

واني لأستطيع ان اذكر زمنـاً تسلّط عليه فيه مزاج مفرط من المرارة والألم . لقد روى لي شيئاً من قصة تتعلق بمعاملة عقارية كان قد سمح لنفسه ان يتورط فيها فأصبح مبلغ كبير من ماله مهدداً بالضياع . وكانت في المعاملة المذكورة امرأتان فقال « عليّ ان اقاضي هاتين المرأتين او ان اخسر المال كله . وقد جاءتني إحداهن وهزّت كتاب « النبي » في وجهي قائلة « انت صاحب هـذا الكتاب ... فماذا انت عازم ان تفعل ؟ »

وسكتَ لحظة ثم عاد فأكمل متسائلا « هل استطيع وانا المؤمن بما كتبت ان اقف امام قاضٍ واتهم هاتين المرأتين ؟ هل استطيع ان اعتلي منصة الشهادة فاناقَش لادانتهما ؟ »

وكان في صوته ووجهه الجواب على سؤاله . لا . انه ما كان يقدر ان يفعل ذلك ولذا قلت له : « انك لن تقدر أن تفعل ذلك وانت مَن انت . »

فلما سمع ذلك مني صفا وجهه وقال « كل اصدقائي يقولون لي ان استرد المال . ولكن لو قُدر لي ان استرده فلن استطيع عندئذ ان افتح كتاب « النبي » مرة ثانية » .

وكتب بعد ذلك بأناة على قصاصة ورق . « دَع الذي يمسح بردائك يديه الملطختين يأخذ رداءك فلعلّه يحتاجه ثانية . اما انت فلست بحاجة اليـه » .

وقد كتب جبران مرة « من الشدائد والقلق والعذاب السعيد ينبعث شعر يُريح القلب . » وشعره الذي انبعث من الشدائـد والقلق والعذاب

السعيد هو الشعر الذي دار الأرض إذ تُرجم للغات عديدة فأمد المتعبين والحائرين من شعوب العالم اجمع .

وما انا إلا واحدة من البشر الكثيرين الشاكرين له سرمداً الناشرين كلامه ابـداً . بيد اني لديّ الأدلة الكثيرة على ان كُتُبَه الانكليزية نزلت على عقول الجماهير ونفوسهم بقوة صاعقة . واني لأستطيع ان املأ كتاباً بتعابير الابتهاج والامتنان التي حُدثتُ بهـا والتي كُتبت الي من اربعة اطراف الأرض .

كان في الشارع الخامس في فندق برفورت Brevoort Hotel في مدينة نيويورك مخزن لبيع الكتب وكنت لزمن ما مرتبطة به ارتباطاً وثيقاً .

وفي عصر يوم هبطت الدرج سيدةٌ مسنّة نَصَف تلبس ثوباً رمادي اللون ودخلت الغرفة المنورة . كانت في وجهها نظرة شوق حائرة ولكنها ابتسمت ونظرة حولها خجلة .

فسألتها « هل لي ان اساعدك ؟ »

فأجابت « لست ادري ان كنت تقدرين ولكني آمـل ذلك . »

وسكتت فانتظرتُ ثم استمرت تقول « هل تفهمين ؟ اني اريد كتـاباً ولكني لا اعرف اسمه » .

فقلت « مَن كَتَبه ؟ »

فقالت حائرة « لست اعرف ذلك ايضاً . »

فقلت « ما نوع الكتاب ؟ أشعرٌ هو ام قصة ؟ امقالات ام سيرة ؟ »

فقالت « انا ... انا بالحقيقة لست ادري . » ثم وطدت عزمها وروت الحكاية . قالت « لي صديق ... بعث اليّ رسالة وحدثني فيها عن كتاب، وقد اضعت الرسالة ولست استطيع تذكر اسم الكتـاب او المؤلف ،

ولكن كان في الرسالة شيء من الكتاب استشهد به صديقي هو هـذا « إنّ ألمكم هو تحطيم الصدفة التي تحوط إدراككم » .

وردّدت المرأة القول كأنما هو قد صار عزيزاً عندها .

فذهبتُ الى الرف وتناولت نسخة من « النبي » وفتحت الفصـل عن الألم ودفعت به اليها . وإني لاذكر النظرة التي لاحت في وجهها الحـلو الصغير المسنّ . أخـذَت الكتاب بيدها وقرأت ذلـك السطر ثم قرأت الصفحة التي هو فيها ثم ذهبت وجلست في احد المقاعد المريحة التي كانت موضوعة لاغراء زائرينا بالجلوس وظلّت تقرأ وقد نسيتني ونسيَت كل شيء إلا ما كان في الصفحة امامها .

وجاء آخرون ... غير انها مـا اكترثت بهم ولست ادري كم ظلت جالسة هناك ولكنها جاءتني في النهاية وقالت « اني اريد هذا الكتاب... بيد انه ليس كتاباً . انه خبز وخمر للمتعبين مثلي » .

ثم كان هناك رجل يهتم بالبحث العلمي . وقد جـاء المحترف خـلال معرض ١٩٣٢ وروى لي قصته :

ففي يوم ما ، منذ سنة أو يزيد ، كان يسـير في الشارع الثالث مسرعاً ليحفظ موعداً كان قد ضربه فلما مرّ بمكتبةٍ صغيرة نظر الى واجهة العرض نظرة عابرة فرأى في الواجهة كتاباً على غلافه صورة وجه ، غير أنه ما ابه به واستمرّ في سيره . وفيما هو يسير بدأ الوجه يزداد وضوحاً في ذهنه وجعله يشعر شعوراً غريباً ... وظل هذا الشعور الغريب يزداد حتى حمله على العودة فارتدّ بعد أن كان قد قطع ثلاثة شـوارع

وجاء المكتبة ووقف أمام واجهة عرضها ونظر الى الوجه طويلاً متأملاً ...
ثم دخل المكتبة وابتاع الكتاب ، وكان ما ابتاع « النبي » . وعندما
روى لي الرجل هذا الحادث قال « لقد كشف لي « النبي » عن حقيقة
كنت أجهلها : هي أن العلم شيء ميت إذا ما جرد من الرأفـة ومن
رحمة الجمال وحنانه المنقذين » .

وكان هناك رجل آخر ، هو محام حنكته السنون ذو طلعة رقيقة
حلومة . جاء الى مكتبة اخرى في فيلادلفيـا خلال ساعـة من ساعات
القراءة العالية من « النـبي » وجلس وأصغى باهتمام بالغٍ مما لَفَتَ
انتباهي .

فلما انتهيت من القراءة جاءني يحدثني فقـال « أنا محامٍ مجرمٌ ...
فلو انني قرأت فصل الجريمة والعقاب قبل عشرين عاماً لكنت أفضل مما
أنا وأسعد ... بل لكنت مستشارَ دفاعٍ أحسن ممـا أنا الآن بما لا
يقاس » .

وهكذا يؤدي « النبي » الى كل نفس رسالته الكاملة . فالفيلسوف
يحسبه فلسفةً والشاعر يراه شعراً . أما الشباب فقد قال عنه « ها هي
ذي هنا جميع ما في قلبي من رغبات » وقالت الشيخوخة « قضيت العمر
باحثةً عمّا لا أعرف حتى إذا غمرني الشتاء ، شتاء العمر ، وجدت في
هذا الكتاب كنزي » . ومهما كان وعي الذي كتب سجل المصطفى المختار
الحبيب فإن وعي القارىء الحساس يكتشف فيه تعبيراً عما في أعمـاق
روحه وفكره .

وسبب هذا أساسي ... إذ لم يكن جبران نظرياً وقد قال مـرة
« إن لم يكن بد من تسميتي شيئاً فقولي أنا حياتي » .

بلى ! ليست أقوال جبران صفـّاً بارعاً لزخارف كلامية جميلة ولكنها
التعبير البسيط القويم عن حاجات الإنسان العظمى كما انها الأجوبة لهاتيك
الحاجات ...

ترى ... من أين جاء جبران بالأجوبة ؟ لقد وضع الشاعر في القطعة
الأخيرة من كتابه « يسوع ابن الأنسان » في فم رجل من لبنان بعد تسعة
عشر قرناً هذه الكلمات « سبع مرات ولدت وسبع مرات مت . وها
أنذا الآن أحيا ثانية . » فلعل هذا هو الحل ، إذ أن جبران لم يقل
لنا شيئاً جديداً لأن لا جديد تحت الشمس . غير أن كلماته إعادة لحقائق
أساسية تمكّنَ من إدراكها في العصور التي يقول أنه عاش خلالهـا
ومات ... وليس « النبي » وليد خيـال جبران ولكنه تبلور الحب
المتجمع والحكمة المتراكمة المدّخرة . « سبـع مرّات حييت ... والآن
أحيا ثانية » .

لم يكن جبران الشاعر الذي سطر تلك الكتب القوية الجميلة والرسام
الذي أَسرَ نُتَفاً من الخلود فوضعها على ورقٍ ولوحات وحسب بـل
كان أيضاً النفساني من دون لوثة السيكوانااليست (المحلـل النفسي)
والفيلسوفَ الذي ردّ فلسفته الى العناصر الأساسية الأوليـة ، واللغوي
الذي بحث في تاريخ الكلمات الذهبيّ من أجل الافتتـان ذاته لا للتبحر
في علم الكلام ... وكان جبران الى ذلك طالبَ العلم المتعمق الساعي
لإخفاء سعة اطلاعه ، الناسي جهده ما اكتسبه على مر السنـين من فهم
ومعرفة وحكمة .

لقد دعي جبران « روح صلب جسور » وحقا كان كذلك . غير أن
صلابته وجسارته لم تنبثقا من الإرادة الإنسانية الذاتية بل انبثقتا من قوة
عظمى كانت تسيره ولم تخيره ... ومع ذلك فلم تكن به ذرّة واحدة

من الرغبة في العدوان .

وقد ظهر إقدامه واتضحت جرأته منذ حداثته ... فقد كانت بلاده محطمة النفس تحت نير السلطنة العثمانية يحوك اليأس نسيجَ أيامها ولياليها فكتب جبران كتاباً بالعربية دعاه « الأرواح المتمردة » ما كاد ينتشر ويوزع حتى حرقه رجال كهنوت متحمسون في أسواق بيروت ودعوه « خطراً وثورياً ومسمماً للشباب . » لقد كان الكتاب قبضة اليد الأولى التي هزها الشباب العربي العصري المتحرر في وجه تلك الأمبراطورية الجبارة . ولقد اهتزت تلكم القبضة بعزم لا غرو فيه !

ولو حدث اليوم ما حدث يومئذ لشهدتْ الصحافة الجريئة الموقف ونشرت تفاصيله وأصبح الشاعر الشاب حديث العالم كله قبل أن ينتصف الليل ، ولتحدث الناس « بالفضيحة » وهم يتناولون طعام الافطار في الصباح التالي ...

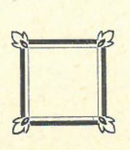
ولكن في اللحظة التي أشعل بها المحرقون النار لتلتهم الكتاب كان كاتبه « المسمم لأخلاق الشباب ، ذلك الخطر الثوروي » ابن العشرين سنة ، روحاً صامتاً يعمل بأناة في محترفه بباريس تلميذاً وصديقاً لرودين .

ولو سأله رجال الصحافة يومئذ رأيه ، أو لو أنه عبر لهم عن مكنونات نفسه لقال — بلغة هذا اليوم — إن حرق « الأرواح المتمردة » لم يعنِ شيئاً في حياته . غير أن ذلك لم يحدث فلا رجال الصحافة سألوه ولا هو ادلى بحديث ، بل كان كل ما قاله هو هذا « إن حرق الكتاب سبب ممتاز لطبعه على الفور طبعة ثانية » .

بيد أن حرق الكتاب لم يكن نهاية المطاف به وبمؤلفه فقد أخذ جبران علماً وهو في باريس ان الكنيسة حرمته ، وان الحكومة اصدرت امراً بنفيه من بلاده لأنه ارتكب جريمة كبرى فكتب كتاباً دعا فيه

شباب بلاده الى إحياء ميراثهم السامي واعادة بناء مجدهم التليد ، ذلك المجد الذي أقامه أسلافهم ، أولئك الرجال الأشداء الكلدانيون والفينيقيون القدماء ، أهل التفوق والابداع والجلال .

اما امر النفي فقد أُلغي سنة ١٩٠٨ عندما قامت في تركيا حكومة جديدة فتية ... واما الكتاب الصغير الذي احرق يومئذ فقد اصبح اليوم كتاباً يقرأه طلاب الأدب العربي في بيروت وانطاكية وفي القاهرة والاسكندرية .



اننا عقلنا ارضنا

●

ليست القيمة الاساسية لما يقدّمه الفنان مقصورة ، فيما أعتقد ، على ما يسكبه من وعيه في إنتاجه ، بل انها تكمن فيما يثيره انتاجه من وعي الجمهور وإدراكه .

وقد كان يتضح لي بازدياد أن مستوى الوعي السائد بين مئات الاشخاص الذين كانوا يسعون لسماع ما كتب جبران ورؤية ما رسم أنـّى كان ذلك الانتاج يُقرأ او يُعرض هو مستوى اعلى مما كنت اتوقـّع . وكثيراً ما نسمع أن معدل الذكاء البشري في هذه الفترة ، مما يسمُّونه تقدم العالم ، هو ذكاء وَلـَدٍ له من العمر اثنتا عشرة سنة . فإن كان ذلك كذلك فانّ ذكاء ابن الاثنتي عشرة سنة لشيء يستحق الاهتمام حقـّاً . ولقد لاحظت باحتكاكي مع الاولاد في الحقل التهذيبي سنيناً عديدة ان مستوى ابن الاثنتي عشرة سنة ، صبياً كان ام بنتاً هو مستوى جيّد اذا ما قيس بمستوى الشخص الذي يكبره مرّتين ، بل كثيراً ما يفوق مستواه مستوى الكبار .

ومهما يكن الحال فـاني لم أرَ بين اولئك الذين جاؤوا الى محترف جبران فرأوا الرسوم او جلسوا يستمعون الى كلماته وهي تـُتلى اكثر من نصف واحدٍ في المائـة لم يتأثر عمقٌ من اعماق طبيعتهم ولم يتحرك في وجودهم إحساس داخلي مما رأوا وسمعوا . ولقد كان بين اولئك الكبير

والصغير ، اسود الجلد وأبيضه ، المثقف والأُمي ، المؤمن واليهودي والوثني .

وإن دلّ هذا على شيء فانه يدل على أن ما قدّمه جبران الى فن العالم وأدبه يحتل مكانته لا كفنٍّ وأدبٍ فحسب بل كمؤثّر قويّ فعّال في شفاء الأمم .

وكثيراً ما قلت للجماهير الذين كنت أحدّثهم عن جبران وتعاليمه وأقول الآن مرة أخرى : إن تيسرت لنا طائفة عددها خمسون شخصاً من ذوي الارادة والتصميم الذين يصرّون على ان يعيشوا بموجب كلمات « المصطفى » وتعاليمه ، تتحقق بدايةُ عهدٍ ألفيّ جديد .

وكثيراً ما يكتب لي الطلاب من شباب جامعاتنا وصباياها الذين يكتبون اطروحاتهم النهائية عن جبران متسائلين ليعرفوا اكثر مما يعرفون عنه . إنهم يفيضون تعجّباً وتساؤلاً . وهذه لي علامة أن تركته الروحية تغلغلت في وعي شبابنا بشكلٍ لا بُدّ ان يؤتى ثماره في موسمها جنياً طيباً غنياً .

يسألونني المرة تلو المرة « هل تظنين ان جبران كوليم بلايك William Blake في انتاجه ؟ »

وأنا اعرف انّ الرأي بأن جبران « هو (بلايك) القرن العشرين » المعزوّ لرودين قد رُدّد كثيراً وكان يُقصد منه المدح . غير اني لا يحضرني فنّانان اكثر تناقضاً ولو أن كلاً منهما كان شاعراً ورساماً وصوفياً .

فلقد رسم جبران الانسان البشريّ ذا الالوهية كأنه شيء ذو جمال حسّاس ... اللحم الذي لا جسمانية فيه ... الجسد الذي انفصل عن ترابيّته ... الروح المقنّعة بقناع شفّاف . لم تكن مواضيع جبران قدّيسي الخرافات وملائكة الاساطير وأبالستهم ، ولكنهم كانوا بشراً تخيّلهم في حُلُم الكمال الواعي دون نقصٍ او عيب . اما « بلايك » فلم

يفعل ذلك ...

يقيناً أننا نجد في « بلايك » ذهولاً ، ونجد فيه هُياماً بالتزهّد ، وتخيلاتٍ غريبةً لروح اسيرة الخفايا والمجهول . اما في جبران فالروحانية هي من نسيجٍ جد مختلفٍ ... هي تقديسٌ متّزن لروح هائم في احلام اللانهاية ، بيد انه تقديس رزين ، مراقب ، متناسق ، لا عُنف فيه . كان كلٌ من الفنانَين ذا بصيرة واسعة . إلا أن السبيلين اللذَين سلكا في قفار الضلال البشري واضطرابه مختلفان ، فكان كل واحد منهما سيّدَ ذاته ، ذا فرديّة واضحة المعالم .

ويقوم في انتاج جبران كلّه الدليل على ادراكه أن الانسان هو الطبيعة والطبيعة هي الانسان . فهو يعترف بتكوين واحد ويؤمن بقانون واحد ومحبة واحدة لا نهاية لها . ويعلن ذلك كله باستمرار عن طريق أبسط خطٍّ وأبسط لون .

إنّ لرسوم جبران قيماً كثيراً ما علّق عليها الناس ... اذ يشعر المرء لدى رؤية ابطاله بأنفاسهم الحارّة وبدبيب الحياة فيهم ، فيرى ارتفاع الهُدب ، ويلمح ارتعاشة الشفة ، ويبصر نهودَ الصدر كنهوده عند التنفس ويكاد يلمس هبّة الريح على الوجه المقنع . وقد عبّر عن ذلك احد زائري محترفه بعدما رأى الرسوم فقال : « ليست تلك ذكرى رُسومٍ بل ذكرى ارواحٍ حيّة » .

سبق لي أن قلت إن جبران كان يعرف تمام المعرفة قيمة انتاجه فلذا ترك الكثير من لوحاته دون توقيع ، وعندما كان يقول له هذا او ذاك من اصحابه « لِمَ لا توقّعها » كان يضحك ويقول : « ولِمَ أفعل ذلك ؟ ستُعرف انها لجبران بعد ان يكون قد طال رقادي في الارض الطيّبة السمراء تحت الارز » .

الارض الطيبة السمراء !! ما أكثر ما ردّدت شفتاه هذه الكلمات !

والصغير ، اسود الجلد وأبيضه ، المثقف والأمي ، المؤمن واليهودي والوثني .
وإن دلّ هذا على شيء فانه يدل على أن ما قدّمه جبران الى فن العالم وأدبه يحتل مكانته لا كفنٍ وأدبٍ فحسب بل كمؤثر قويّ فعّال في شفاء الأمم .

وكثيراً ما قلت للجماهير الذين كنت أحدّثهم عن جبران وتعاليمه وأقول الآن مرة أخرى : إن تيسرت لنا طائفة عددها خمسون شخصاً من ذوي الارادة والتصميم الذين يصرّون على ان يعيشوا بموجب كلمات « المصطفى » وتعاليمه ، تتحقق بدايةُ عهدٍ ألفيّ جديد .

وكثيراً ما يكتب لي الطلاب من شباب جامعاتنا وصباياها الذين يكتبون اطروحاتهم النهائية عن جبران متسائلين ليعرفوا اكثر مما يعرفون عنه . إنهم يفيضون تعجّباً وتساؤلاً . وهذه لي علامة أن تركته الروحية تغلغلت في وعي شبابنا بشكلٍ لا بُدّ ان يؤتى ثماره في موسمها جنياً طيّباً غنياً .

يسألونني المرة تلو المرة « هل تظنين ان جبران كوليم بلايك William Blake في انتاجه ؟ »

وأنا اعرف انّ الرأي بأن جبران « هو (بلايك) القرن العشرين » المعزوّ لرودين قد رُدّد كثيراً وكان يُقصد منه المدح . غير اني لا يحضرني فنّانان اكثر تناقضاً ولو أن كلاً منهما كان شاعراً ورساماً وصوفياً .

فلقد رسم جبران الانسان البشريّ ذا الالوهية كأنه شيء ذو جمال حسّاس ... اللحم الذي لا جسمانية فيه ... الجسد الذي انفصل عن ترابيّته ... الروح المقنّعة بقناع شفّاف . لم تكن مواضيع جبران قدّيسي الخرافات وملائكة الاساطير وأبالستهم ، ولكنهم كانوا بشراً تخيّلهم في حُلُم الكمال الواعي دون نقصٍ او عيب . اما « بلايك » فلم

يفعل ذلك ...

يقيناً أننا نجد في « بلايك » ذهولاً ، ونجد فيه هُياماً بالتزهّد ، وتخيلاتٍ غريبةً لروح اسيرة الخفايا والمجهول . اما في جبران فالروحانية هي من نسيجٍ جد مختلفٍ ... هي تقديسٌ متّزن لروح هائم في احلام اللانهاية ، بيد انه تقديس رزين ، مراقب ، متناسق ، لا عُنف فيه . كان كلٌّ من الفنانَين ذا بصيرة واسعة . إلا أن السبيلين اللذَين سلكا في قفار الضلال البشري واضطرابه مختلفان ، فكان كل واحد منهما سيّدَ ذاته ، ذا فرديّة واضحةِ المعالم .

ويقوم في انتاج جبران كلّه الدليل على ادراكه أن الانسان هو الطبيعة والطبيعة هي الانسان . فهو يعترف بتكوين واحد ويؤمن بقانون واحد ومحبة واحدة لا نهاية لها . ويعلن ذلك كله باستمرار عن طريق أبسط خطّ وأبسط لون .

إنّ لرسوم جبران قيماً كثيراً ما علّق عليها الناس ... اذ يشعر المرء لدى رؤية ابطاله بأنفاسهم الحارّة وبدبيب الحياة فيهم ، فيرى ارتفاع الهُدب ، ويلمح ارتعاشة الشفة ، ويبصر نهودَ الصدر كنهوده عند التنفس ويكاد يلمس هبّة الريح على الوجه المقنع . وقد عبّر عن ذلك احد زائري محترفه بعدما رأى الرسوم فقال : « ليست تلك ذكرى رُسومٍ بل ذكرى ارواحٍ حيّة » .

سبق لي أن قلت إن جبران كان يعرف تمام المعرفة قيمة انتاجه فلذا ترك الكثير من لوحاته دون توقيع ، وعندما كان يقول له هذا او ذاك من اصحابه « لمَ لا توقّعها » كان يضحك ويقول : « ولمَ أفعل ذلك ؟ ستُعرف انها لجبران بعد ان يكون قد طال رقادي في الارض الطيّبة السمراء تحت الارز . »

الارض الطيبة السمراء !! ما أكثر ما ردّدت شفتاه هذه الكلمات !

إنه احبّ التربة واحب كل ما نبت منها ، وقد كان للأشجار في نفسه شعور عبادة وتقديس. وقال مرّة « لو لم يكن في الدنيا سوى شجرة واحدة لحجّ اليها الناس وخرّوا لها ساجدين » .

وكان جبران يحب لمس الخشب الطبيعي ، فكم من غصنٍ مكسور التقطه من أيكةٍ او غابة واحتفظ به احتفاظه بكنز ، علّه يحفر فيه صورة جميلة . وكم كان يعتزّ بمجموعةٍ من الحجارة الصغيرة التي « أُحضرت من شواطيء كل بحر على الأرض » انه كان يلعب بها بتلذّذ صادق أين منه تلذذ مكتنز الذهب بقطعه البرّاقة !

اما اهتمامه بتركيب الصخور فواضح في كل شيء خرج من ريشته . فإن في رسم « الصمت » وهو صورة المرأة ذات الجسد الأبيض الجميل كأنما هو قُدّ من رخامٍ رائع ، الواضعة إصبعها على شفتيها ، منظراً صخرياً إذا ما دُقّق فيه عن قرب تكشّف عن صخر نَسجهُ الدقيق أجساد بشريّة .

إن وحدة الإنسان والطبيعة ، في الصخر ، في الغيوم ، في الشجر ، في النهر والشلال ، تتّضح أبداً بشكل ظاهرٍ في جميع إنتاج قلمه وريشته . وقد كان اغتباط جبران باحدى هذه المعجزات عندما تكمل اغتباط الطفل إذا ما وجد كنزاً ، ومع ذلك فقد كان اغتباطه لا شخصياً بشكل غريب كأنما هو نفسه لم يكن له يدٌ في خَلق ما خلق .

لم يكن جبران ، شأن العباقرة العظام ، ليحفل بمن حوله بينما هو يخلق . انه كان لا يقبل بوجود احدٍ معه فيما عدا حلقةٍ صغيرة من الأصدقاء الذين اخلص لهم . وفي سني نضوجه كان يرفض السماح بعرض رسومه رغم الجهود الكثيرة التي كانت تُبذل لإقناعه . كان دائماً يقول « لا . لا . لن اعرض الرسوم لأنهم يريدون ان يشتروها » .

ولم يكن البيع هدفه ولا الشراء مرامه بل كان بعيد النظرات يفكر

في هذا العالم فيراه نَهبَ النزاع والشقاق والخوف والخراب . وقد تحقق لديه كما تحقّق لكل بعيدي النظر ان الحرب التي خاض العالم غمارها لم تسوِ شيئاً ... وهي لم تجلب السلام على الاطلاق !

وقد وصفها جبران قائلا « إنها لم تكن حرباً لازدياد الحرية بل لازدياد الوعي » و « ازدياد الوعي » ذاك هو الذي يخلق اليوم[١] في شعوب العالم الإرادة التي لا تقهر لإحراز نصر سيعطي العالم في هذه المرة ، إن شاء الله ، حرية اكثر من ذي قبل .

وكان « هذا الرجل من لبنان » يبتدع ، على طريقته الخاصة ، سلاحاً من اجل السلام النهائي فقال « اخلقوا الجمال ودعوا كل شيء عداه يذهب الى جهنم » وقد نفذ ما قال فخلق الجمال لأنه كان يعلم واثقاً ان خلق الجمال إذا ما عم العالم كله وتغلغل في وعي البشر فبرز الجمال في جميع ما اليه يهدفون وله ينتجون تخلق نهضة عظيمة من العدالة والحنان والتعبد فتصبح الأرض الطيبة الخضراء عندئذٍ حقيقة سماوية .

وما كان ليخطر له في بال ان تحقيق ذلك سيتم دون عذاب قهار ودون صراع جبار او دون طويل الانتظار . فلقد ادرك احسن مما ادرك اكثر البشر ان هذا القرن إن هو إلا الفجر الذي يسبق الفجر ولذا فإنه لم يتردد من ان يقول « إن اردنا ان تصبح عقول البشر حرة كما كانت في البدء وان رغبنا في ان تمسي ارواحهم طليقة لتنال ما تستحق من الميراث البشري العميم فعلينا ان نوقف هذا الذي ندعوه تقدماً وما هو بالتقدم عن السير في سبله الرجسة التي فيها يسعى » وقال كذلك « لا دين ولا علم إلا الجمال » وكم من مرة ثار باشمئزاز لافحٍ على السخافات التي كانت تُقترف باسم العلم واسم الدين .

---

(١) نلفت نظر القارىء الكريم الى ان الكاتبة وضعت كتابها هذا ابان الحرب العالمية الثانية عندما هبت شعوب العالم ترد الطغاة عن غيهم !! المترجم

ولقد كتب قبل مماته بقليل « إننا عَقَلنا ارضنا بخيل العلم الناريّة وهي تجري بكرتنا الى جحيم الميكانيكية » .

وقد أدرك جبران خلال الحرب الكبرى الأولى ما يسبّبه اقتحام الجوّ للعالم وشعوبه من شرور . وكمن رأى رؤيا مفزعة خلقت في نفسه مرارة عميقة ومقتاً للطائرة لا يُحـدّ قال مرة « لو استطعت لحطّمت كل طائرة في الأرض وحطمت معها كل تذكار في عقول البشر لذلك الشر الطائر المستطير » .

فسأله احدهم قائلاً « لمَ تقول قولاً إدّاً كهذا ؟ » فأجاب بجدة « لأن الانسان لم يُخلق للجو . لقد أُودع الأرضَ فالأرض مملكته ومأواه . وهو لم يصبح بعدُ سيداً لتلك المملكة . ان الملائكة ورؤساء الملائكة وجميع سكان العالم العلوي سينتقمون من الانسان إن هو لم يتخلّ عن اقلاقه الدنس لأثيرهم الطلق . دعوا روح الانسان المجنّحة وحدها تطير الى الأعالي » .

وكان لا يستطيع البحث في هذا الموضوع دون اشمئزازٍ وحزنٍ أليم وقد قال « سيزور الدمار والوحشة جميع بلاد الأرض وسيتساقط الشباب والصبايا امامها كبراعم اللوز والزيتون ، براعمَ عارية من غير ثمر » .

وقد انذر بسقوط مدن واشار مرة لكلمات « النبي » حيث يقول « جمعكم اجدادكم خائفين واقاموكم قريبين جداً من بعضكم البعض ، وسيدوم ذلك الخوف لأمد قليل بعد . ولأمدٍ قليل ستظل اسوار مدنكم تفصل مدافأكم عن حقولكم ... » ثم يبزغ يومٌ ، يومٌ جديد ... وسيأتي الوقت الذي نرجع فيه مرة اخرى فلا يكون هذا حالنا . وستكون الأرض يومئذٍ للرب وكماله » .

وقد رأى ايضاً رؤيا اخرى ، هو حُلمٌ حَلَمَه فقال « سأبني مدينةً قرب ميناء وعلى جزيرة في ذلك الميناء سأقيم « للجمال » تمثالاً لا «للحرية»

لان الحرية هي تلك التي خاض البشر حول اقدامها معاركهم منذ البدء . أما الجمال فهو ذاك الذي يمدّ أمامه جميع البشر ايديهم لبعضهم البعض كأخوة » .

كان جبران يشعر شعوراً قوياً بالفقر الفكري والروحي والجسدي الذي يتخبّط فيه الكثيرون من اهل هـذا العالم . كان يعرف عجزهم ويدرك كنهه فرسم « الاعمى » المرة تلو المرة . بيد أنه لم يكن يعني به اعمى العينين بل اعمى القلب .

إن احزان البشرية وعثراتها مَلكت عليه مشاعره بعاطفة ملتهبة فصار يعرف هاتيك الأحزان والعثرات معرفة جيدة إذ تيسرت له أسباب معرفتها .

فلقد كانت السنون التي قضاها في المحترف سلسلة لا تنتهي من معالجة متاعب البشر واحزانهم فيوماً بعد يوم كان اولئك المعذبون او القلقون يصعدون السلالم الطويلة المؤدية الى محترفه ويضعون أثقالهم بين يدي هذا الرجل الآتي من بلاد أخرى ، بل من عالم آخر ، بل وزمان آخر ! وما كان فهمه السريع لمتاعبهم ليخونه لا ولا عجز عن ايجاد حلٍ فوري لمشاكلهم . فإن لم يفعل هذا او ذاك جدّد شجاعة المعذب وشدّد مقدرته على الاحتمال . وكان ذلك كله يتم ببساطة ... يتمّ بتذكير هادىء بحقيقة ابدية او بناموس معين للحياة . بيد أن ذلك التذكير لم يكن ليخرج من شفتيه عقائدياً او متمذهباً ، بل كان للجرح كبلسم غير منظور.

وإن كانت هناك كلمة تستطيع أن تصف هذا الرجل وتصف عمله الذي هو أسّ كيانه وحجر الزاوية في بنائه فانّ تلك الكلمة هي « البساطة » . وتلك كلمة لا تصف بصدقٍ إلا القليلين من جبابرة الأجيال الذين كتب عنهم جبران قائلاً « سقراط ، يسوع ، جان دارك ، ولنكولن ، هم ابدع مَن رأى العالم على الاطلاق ... غير انهم

سلموا للموت ... فكان هناك ضحك على شفتي السماء » .

ولقد مارس جبران هذه البساطة يومياً في حياته وأعماله . وفي خلال فترة من حياته ، إذ كان أصدقاؤه يبتهجون بتكريمه والأدبِ له ، كان يسلم نفسه « لفترة صيام » « كيما اتغلب على ما فعلوا بي من محبتهم » على حد قوله .

إنه كان يحب ان يتناول عشاءً معتدلا في المحترف وكان يحب ان يجعل من تناوله إياه ملهاة له . وكانت تلك طريقة اخرى من طرق تعلله بثقل موهبته . وكان جبران يقول لي « توجد في الشرق عادة للأكل إذ يأكل جميع اهل الدار من إناء واحدٍ كبير .. فدعينا نتناول حساءنا هذا المساء من إناءٍ واحدٍ » .

ونُعد المائدة فنضع عليها إناءً واحداً كبيراً للحساء المختر والكثير من الخبز المحمص وكنا نجلس باحتفال مهيب فيتناول جبران ملعقة ويرسم بها خطّاً وهمياً في وسط الحساء قائلا بوقار عظيم « هذا النصف من الحساء لكِ وهذا النصف من الخبز المحمص ايضاً ، وهذا النصف لي . فحاذري ألا يعتدي الواحد منّا على نصف اخيه » .

ويتلو ذلك ضحك واستمتاع تامّ فيستمتع الواحد منّا بالنصف الذي له من الخبز والحساء ثم يعقب ذلك كأس نبيذ وقليل من الخبز الذي يُغمس به . إذ كان النبيذ متعة أُخرى من متعه المحبّبات . ثم يشعل لفافة تبغ . وما كان لأحد ان يظن بعد ان يرى هذا كلّه ان الرجل الذي يلهو هذا اللهو بكلّ جوانحه وبتلك البهجة الظاهرة في مَرحه وضحكه هو هو الذي قال عن نفسه « وا اسفي ... لأن الناس لا ينسجون لي إكليلاً قبل ان يأتي اليوم الذي يصبح فيه رأسي فوق متناول أيديهم . »

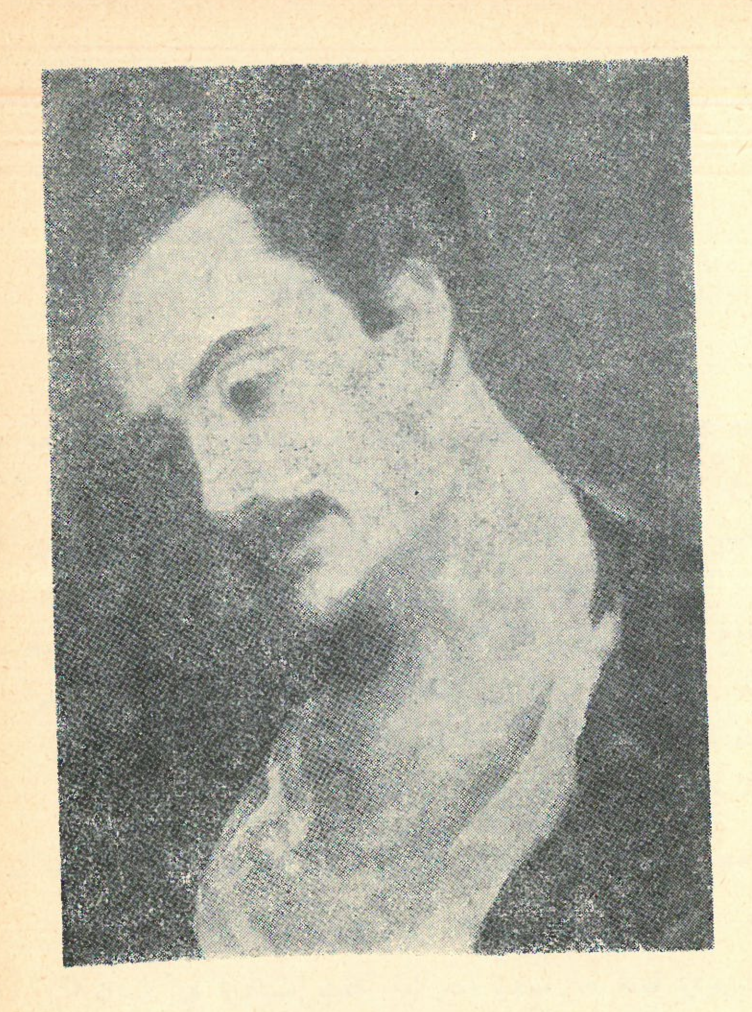
وكان جبران يمقت تعقّد الحياة العصرية . وكم ودّ لو تيسّر الاحتفاظ

بالأشياء القديمة الجميلة والتوفيق بينها وبين حيَوات ابناء اليوم . بيد انه كان يريد ان يتم هذا التوافق ببساطة وبشكل طبيعي لا كلفة فيه . قال جبران « الحياة ، والحب والموت ، هي حقائق الوجود الكبرى إن شرقاً او غرباً » غير انه كان يرى ان هذه الحقائق الكبرى تتعرّض وتخضع لكل نوع من اللغو المصطنع والتعقيد الفارغ .

وعند ذكر « الرمزية » قال لي ذات يوم « الرمزية ... لا تعيدي الكلمة على مسمعي . لِنقُل الحق المرئيّ . وإن شئتِ فقولي الجمال المحسوس . البساطة ... لا الرمزية » .

البساطة ... انها تلك الصفة السماوية التي يفتقر اليها بشرٌ كثيرون فيضلون تائهين !!





جبران في الخامسة والعشرين

عن لوحة زيتية بريشة حويّك

سحر العربيـة

•

لقد تيسرت لي ، من حسن حظي ، معرفة الكثيرين من ألمع مواطنينا اللبنانيين الاميركيين فعرفت المحبة والاعتزاز اللذين يكنونهما لهذا الشاعر مواطنهم الذي كان قد صرف ثمانية عشر عاماً من سنيـه العشرين الأولى في تلك الارض المباركة التي فيها قام الأنبياء العظماء وعليها نشأ الحكماء القدماء فاستطاع في تلك السن المبكرة ان يمتلك بجمال تعابيره وقوة اسلوبـه وجرأته قلوب المائة والخمسين مليون محبٍّ للجمال والقـوة والجرأة ممن يقرأون العربية وان يمتلك كذلك قلوب مثلهم عدداً ممن يتكلمونها رغم أنهم لا يقرأونها ولا يكتبونها .

ولقد حسبت عندما علمت أن على وجه الارض ثلاثمائة مليون بشري يتكلمون العربية ، ان ذلك غير صحيح ولكن تلك هي الحقيقة [١] .

وتُروى قصة عن سيدة اميركية كانت مسافرة في لبنان انها لاقت شاعراً لبنانياً شاباً فقالت له « اني اعرف مواطناً لك في نيويورك هو جبران خليل جبران فهل لك به علمٌ » فأجابها الشاعر قائلا « سيدتي ! هل لي ان اسألك إن كان لك علم بشكسبير ؟ »

---

(١) يخيل لي ان المؤلفة افترضت ان كل مسلم يعرف التكلم بالعربية !

المترجم

ان انتاج جبران العربي كبير إذا ما قيس بمجموع انتاجه الكتابي
وكان أول كتبه العربية الكثيرة كتاب صغير عن الموسيقى سرعان ما اثار
اهتمام العالم العربي الفني ومنها « دمعة وابتسامة » و « العواصف »
و « عرائس المروج » و « الأجنحة المتكسرة » و « الأرواح المتمردة »
الذي هو اكثرها قوة وأوسعها انتشاراً . وله كذلك مجموعة تسمى
« البدائع والطرائف » وهو كتاب مختارات من المقالات والاشعار التي
كان قد نشرها في الصحف والمجلات العربية .

وفي الكتاب الأخير هذا لوحات رسمها جبران وهو في السابعة عشرة
من عمره ، وهي رسوم لبضعة شخصيات جاهلية واسلامية رُسمت كلها
بالحبر . وقد تحدث الفنان عن هذه الرسوم فقال « لم تكن لهؤلاء الرجال
العظام صور ولذا استعنت بخيالي لرسم وجوههم » إن في رسم ابن سينا
شبهاً قوياً ليوناردو دي فينشي وقد قال جبران فيه « انه كان مثل دي
فينشي » .

ولما نُشر الكتاب قال جبران متعجباً « اني نسيت الصور ولست
ادري اين كانت مخبأة ولا أعرف كيف حصل الناشر عليها » .

كان جبران طيلة حياته كريماً الكرم كله في الموافقة على اعادة طبع
كتبه ورسومه . أما « النبي » الذي تُرجم لنحو عشرين لغة فقد درّ
عليه من المال كما قال مرة « مبلغ اربعة وعشرين دولاراً » تسلمها من دار
النشر الهولندية التي نشرت « النبي » باللغة الهولندية « لاني لم اطالبها
بحقوق النشر » قال هذا وكأنما عدم مطالبته بحقوق النشر امر طبيعي .

إن كنيسة القديس مرقص في الباوري بنيويورك هي اقدم كنائس
المدينة وفيها ، كما قلت من قبل ، قرىء « النبي » لاول مرة امام الناس
بعد نشره بقليل . وتُقدم في هذه الكنيسة كل سنة تمثيلية دينية مقتبسة
من « النبي » كما ان للكنيسة صلاة غروب مأخوذة من منظومات جبران

خليل جبران « الشاعر النبي من لبنان » كما دعاه الدكتور وليم نورمان
جوثري Dr. William Norman Guthrie راعي الكنيسة المذكورة والذي
يؤمن عميق الايمان برسالة جبران كنبي عصري . وهو الذي اشار الى
كتاب « يسوع ابن الانسان » بقوله « الانجيل حسب جبران » .

إن اشعار جبران تشبه بأسلوبها التوراة الانكليزية المعروفة بترجمة
الملك جيمس ففيها نرى البساطة ووضوح التعبير والقوة الفاتنة . أما طريقته
في التعبير وحوافز خياله فيجمعها بطريقة التوراة وأخيلتها نَسَبٌ واحد .

إلا ان التراث النفيس من الشعر العربي الذي تركه جبران ما يزال
كنزاً دفيناً للعالم الناطق بالانكليزية وانه ليحتاج شاعراً انكليزياً فحلاً
متملكاً ناصية العربية وواقفاً على أسرارها لينقل « سحرها الى سحر
الانكليزية » ولن يكون عمله مجرد ترجمة صحيحة ولكنة سيكون خلقاً
عاطفياً جديداً .

وما كاد يتخذ جبران مسكنا له في نيويورك حتى تنظمت في محترفه
الرابطة القلمية . وقد وجدتُ بين أوراقه هذه الكلمات مكتوبة على قصاصة
ورق صغيرة « إن رابطتنا تتألف من اثني عشر شاعراً عربياً اكثرهم من
الشباب ولن يكون فيها غيرهم ان الموت وحده هو الذي سيخلي مكاناً
لشاعر جديد . وهذه الرابطة هي الأصل لتلك التي في حلب والقاهرة
ودمشق وبيروت وطرابلس » .

وكانت أبدع تقاليد الشعر العربي لدى هؤلاء الاثني عشر شاعراً تتغذى
بعاطفة ثالوثية من الإيمان والمحبة والعمل . وقد اعتزموا السير حتى النهاية ،
الى أن تحيا بذور الحق والجمال في قلوب العرب فتزهر في آدابهم كما كانت
تحيا وتزهر من قبل .

وتوالت السنون ... وتوفي زعيم الرابطة جبران خليل جبران وثلاثة
آخرون من هؤلاء الشعراء . أما أحدهم ، وهو الذي سيظل غير مسمى ،

فقد ترك الإيمان (١) . وما يزال الباقون منهم مستمرين في تعبدهم وإخلاصهم
لتلك التركة النبيلة التي ورثوها ولذكرى مواطنهم ، صديقهم الحبيب ،
الذي سبقهم للعالم العُلْوي" .

ولكن حذار أن يخطر في بال أحدٍ ان اخلاص هؤلاء الرجال لجبران
هو اخلاص قرابة أو اخلاص عاطفة . لا ... بيـد أنهم وهم الرجال
الموهوبون عرفوا قبل غيرهم اي رجل كان بينهم فاتفقوا على اعتبـاره
أعظمهم وأحكمهم وأدركوا أن المعرفة قد جاءته من منبع صوفي ما كانوا
يعرفونه . ولذا فقد كانوا يجتمعون بلذة ويتحدثون بابتهاج فرحين ، فيقرأ
الواحد منهم شعره ويستمع لاشعار اصدقائه ثم يتباحثون متجادلين فينشب
بينهم أحياناً « قتال كبير » كما وصفه جبران . إنهم رجالٌ أقوياء أشداء
ولم يكن فيهم مَن يقبل ان يتزحزح عن موقفه دون ما سبب ...وكثيراً
ما سمعت جبران يتحدث عن « رابطـتي » فلقد كان اعضاؤها إخوانه
بالروح كما أنهم مواطنوه وقد جمعتهم لغة واحدة هي ليست العربية فحسب
بل هي لغة القلب ، لغة الشعر ، لغة الحق والجمال . وكم كانوا يتحدثون
عن الشرق وعن المحبة والحنان والعدالة حديثاً طيباً جميلاً !!

وها هم أولاء في قلب أميركا الصاخبة يقفون في أوائل القرن العشرين
وقفة جبارة للدفاع عن كل طيب به يؤمنون . فلا عجب إن قال جبران
« رابطتي » بحماسة لا تقل عن قوله « بلادي » .

لقد كان جبران عظيم الإيمان بما يستطيع ان يقدمه آلاف اللبنانين
والسوريين الذين هم مواطنون اميركيون للسمو بالحياة الوطنية الاميركية
والتحليق باللغة والآداب والفنون . غير ان جبران استمر يكتب بالعربية
لغة بلاده الحبيبة حتى أواخر حياته . وكان حبه لقراءتها بصوتٍ عالٍ

(١) مَن هو ذاك ... الذي ترك الايمان ؟ المترجم

تلذذاً يزداد مع الأيام . وكم كان يلذ له ان يتناول توراته العربية فيقرأ
من راعوث أو اشعياء أو من الأنبياء « الصغار » مترجماً ما يقرأ لنقارن
ما يترجم بالترجمة الانكليزية .

ومن دواعي اسفي القليلة المتصلة بعملنا معاً انني لم اكتب يومئـذٍ
ترجمته الجميلة إذ كان فيها تفنن وتباين يُذهلان .

أما ترجمته لأقوال يسوع فكانت ذات اهميـة خاصة لانه كان يفهم
التعابير الآرامية التي بها تكلم يسوع . وقد أثبتت لي ترجمته ان التوراة
الانـكليزية قد انحرفت في كثير من الحالات عن المعنى المقصود من الكلمات
التي تفوه بها الناصري . وهذا الاختلاف في ادراك المقصود وتفهمه هو
الذي برز بشكل ظاهر قوي في كتابه « يسوع ابن الانسان » .

وكثيراً ما تدفق جبران في اثناء كتابة ذلك الكتاب بسيل من العربية
كلما عجز عن ايجاد كلمة انكليزية تؤدي المعنى الذي يريد التعبير عنه . ففي
العربية كما قال « خمسون كلمة تؤدي معنى الحب وليس بالانـكليزية سوى
كلمة واحدة » إن ثروته اللغوية العربية الواسعة جعلته يشعر كالمكبّل في
لسانه الجديد ، ومع ذلك فان هذا التكبيل هو الذي خلق في اسلوبـه
الانـكليزي ذلك الصفاء وتلك البساطة اللذَين يوشكان أن يكونا كاملين .

وعندما نُشر كتاب « يسوع » سنة ١٩٢٨ نشرت سبرنجفيلد يونيون
Springfield Union التعليق التالي « تتسم لغة جبران الانـكليزية بالجمـال
والصفاء . إنها تبلغ ذروةً من الكمال هو وحي لأولئك الذين يكتبون
الانـكليزية ولو أنهم من أبنائها . »

ولست أشك في ان لغته كانت كذلك .

وكان يومئذٍ ايضاً ان نشرت المانشستر جارديان Manchester Guardian
بحثاً عن الكُتّاب المعاصرين البارزين فذكرت اسماء ستة كتّاب اعتبرتهم
المجلّين في انتاجهم الانكليزي فكان بينهم ، ويا للغرابة ، اثنان ليسا ابني

اللغة ، هما جبران خليل جبران وجوزيف كونراد Joseph Conrad .

وقد عبّر كلود براجدون Claude Bragdon عن نفسه يومئذٍ بقوله « ان طابع جبران وعمق تأثيره في العالم العربي كلّه ليُستدل عليه من انه خلق كلمة جديدة هي « الجبرانية » ولكن القرّاء الانكليز لن يستطيعوا ادراك ما تعنيه هذه الكلمة . إنها تعني الرؤى الصوفية والجمال الموزون والبساطة والجدّة في بحث « مشاكل الحياة » كما انها تعني قوة دراماتيكية خارقة وبراعة عميقة وايحاءً كالبرق لمّاحاً ، وحياة غنائية وجمالاً شعرياً كاملاً يتخلل كل ما يلمس بيده » .

ويفيض هذا كله من نبعٍ هو الذي وصفه الشاعر بعبارته القوية «العمل حبٌّ متجسّد » .

اما لعشاق القشور ضيقي الافق فقد كان جبران غير مفهوم . وقد سُئل مرّة ان يضع قوانين اساسية لحياة منظمة رتيبة ثابتة فأجاب « انا لا أضع قوانين للسلوك . افعل ما شئت ما دمت تفعله بجمال » .

وقد حيّر تفكيره البسيط كل مَن كان يبحث عن انظمة دقيقة معقدة للآداب والفلسفات ، كما حيّره بحياته التي لا التواء فيها ولا تعقيد .

وسئل مرة « ما الدين ؟ » فأجاب « الدين ؟ ما هو ؟ انا لا أعرف سوى الحياة . الحياة هي الحقل والكرم والمغزل . اما المعبد ففيك . وانت كاهن نفسك ... »

ومرة اخرى قال في الموضوع ذاته :

«الدين في الناس حقلٌ ليس يزرعه
إلا الأُلى لهُمُ في زرعـه وَطَرُ »
« مِن آملٍ بنعيمِ الخُلد مبتشرٍ
ومن جهولٍ يخـافُ النارَ تستعرُ »

وقال أيضاً : « كل ما هو هام فهو روح طليق . وهذا يعني اشيـاء كثيرة مختلفةٌ اختلاف البشر » .

وكان مما لا بدَّ منه أن يثير موقفه هذا « الفظيع » معارضةٌ عنيفة غاضبة . وقد اثار ... فوُجّهت اليه ، لموقفه هذا ، هجمات متكررة غير أنها لم تكدّره مطلقاً .

وفي ذات مرة قال له أقوى معارضٍ لآرائه « ماذا تحاول أن تفعل ؟ اتبغي إقامة دينٍ جديد ؟ » .

فبرقت عينا جبران ودوّى صوته وكان في كلماتــه شيء قليل من التهكّم اللطيف اذ قال « يا صديقي ! إني سأنقش حجراً وأضعه في الحقل وسيكون الزاوية لهيكلٍ جديد . ثم اموت ، بعد ان اكون قد اتممت كل ما استطيع . ولكن اعلم أن بعد مماتي بزمن طويل سيـأتي واحد آخر ويزيد حجراً آخر ... وهكذا دواليك ... اجيال لا تُحصى ستولد وتموت. وفي كل جيل سينقش اخٌ لي حجراً ويبني به حتى يكمل الهيكل ، وسيكون الهيكل يومئذٍ منزلاً للعليّ » .

لم يكن الدين المنظّم ليستميل هذا الرجل وما كان يرغب في المجادلة بالموضوع ... وعندما كان يحاول بعض المتحمسين الطائفيين إقناعه ان ديناً معيّناً له قيمته او أن معتقداً ما له اهميته كان الشاعر يجيبهم « بلى ... بلى ... كلها تؤدي الى الطريق » ثم يردد قول اوبانيشاد Upanishad المشهور « لا تجادل من وُلد مرة واحدة » .

ولقد كتب جبران في « رمل وزبد » كتاب الأقوال الصغير ، تلك الاقوال التي لا تثمَّن ، ما نصّه « مرة في كل مائة عام يتلاقى يسوع الناصري ويسوع النصارى في حديقة فوق جبال لبنان ويتحدثان طويلاً ، وفي كل مرة ينصرف يسوع الناصري قائلاً ليسوع النصارى « يا صديقي ... يلوح لي اننا لن نتفق » .

اللغة ، هما جبران خليل جبران وجوزيف كونراد Joseph Conrad .

وقد عبَّر كلود براجدون Claude Bragdon عن نفسه يومئذٍ بقوله « ان طابع جبران وعمق تأثيره في العالم العربي كلّه ليُستدل عليه من انه خلق كلمة جديدة هي « الجبرانية » ولكن القرّاء الانكليز لن يستطيعوا ادراك ما تعنيه هذه الكلمة . إنها تعني الرؤى الصوفية والجمال الموزون والبساطة والجدّة في بحث « مشاكل الحياة » كما انها تعني قوة دراماتيكية خارقة وبراعة عميقة وايحاءً كالبرق لمّاحاً ، وحياة غنائية وجمالاً شعرياً كاملاً يتخلل كل ما يلمس بيده » .

ويفيض هذا كله من نبعٍ هو الذي وصفه الشاعر بعبارته القوية «العمل حبٌ متجسّد » .

اما لعشاق القشور ضيقي الافق فقد كان جبران غير مفهوم . وقد سُئل مرّة ان يضع قوانين اساسية لحياة منظمة رتيبة ثابتة فأجاب « انا لا أضع قوانين للسلوك . افعل ما شئت ما دمت تفعله بجمال » .

وقد حيّر تفكيره البسيط كل مَن كان يبحث عن انظمة دقيقة معقدة للآداب والفلسفات ، كما حيّره بحياته التي لا التواء فيها ولا تعقيد .

وسئل مرة « ما الدين ؟ » فأجاب « الدين ؟ ما هو ؟ انا لا أعرف سوى الحياة . الحياة هي الحقل والكرم والمغزل . اما المعبد ففيك . وانت كاهن نفسك ... »

ومرة اخرى قال في الموضوع ذاته :

«الدين في الناس حقلٌ ليس يزرعه
إلا الأُلى لهُمُ في زرعه وَطَرُ »

« مِن آملٍ بنعيمِ الخُلد مبتشرٍ
ومن جهولٍ يخافُ النارَ تستعرُ »

وقال أيضاً : « كل ما هو هام فهو روح طليق . وهذا يعني اشياء كثيرة مختلفةً اختلاف البشر » .

وكان مما لا بدَّ منه أن يثير موقفه هذا « الفظيع » معارضةً عنيفة غاضبة . وقد اثار ... فوُجّهت اليه ، لموقفه هذا ، هجمات متكررة غير أنها لم تكدّره مطلقاً .

وفي ذات مرة قال له أقوى معارضٍ لآرائه « ماذا تحاول أن تفعل ؟ اتبغي إقامة دين جديد ؟ » .

فبرقت عينا جبران ودوّى صوته وكان في كلماته شيء قليل من التهكُّم اللطيف اذ قال « يا صديقي ! إني سأنقش حجراً وأضعه في الحقل وسيكون الزاوية لهيكلٍ جديد . ثم اموت ، بعد ان اكون قد اتممت كل ما استطيع . ولكن اعلم أن بعد مماتي بزمن طويل سيأتي واحد آخر ويزيد حجراً آخر ... وهكذا دواليك ... اجيال لا تُحصى ستولد وتموت. وفي كل جيل سينقش اخٌ لي حجراً ويبني به حتى يكمل الهيكل ، وسيكون الهيكل يومئذٍ منزلاً للعليّ » .

لم يكن الدين المنظَّم ليستميل هذا الرجل وما كان يرغب في المجادلة بالموضوع ... وعندما كان يحاول بعض المتحمسين الطائفيين إقناعه ان ديناً معيّناً له قيمته او أن معتقداً ما له اهميته كان الشاعر يجيبهم « بلى ... بلى ... كلها تؤدي الى الطريق » ثم يردد قول اوبانيشاد Upanishad المشهور « لا تجادل من وُلد مرة واحدة » .

ولقد كتب جبران في « رمل وزبد » كتاب الأقوال الصغير ، تلك الاقوال التي لا تثمَّن ، ما نصّه « مرة في كل مائة عام يتلاقى يسوع الناصري ويسوع النصارى في حديقة فوق جبال لبنان ويتحدثان طويلاً ، وفي كل مرة ينصرف يسوع الناصري قائلاً ليسوع النصارى « يا صديقي ... يلوح لي اننا لن نتفق » .

وعندما لفظ جبران انفاسه الاخيرة استولى الذعر على مواطنيه اللبنانيين ذلك لأن « حبيبهم » ما استجاب لنداء الكاهن الماروني الذي حاول جهده ان يعيده لوعيه ليتمّم له في ساعاته الاخيرة واجباته الدينية .

وبما ان جبران ، ذلك الشاعر الكبير النادر النبوغ ، لم يُعر كبير اهتمام للكنيسة ولا لطقوسها وقوانينها تساءل بعض مواطنيه عمّا اذا كان يحق له ان يُدفن مع الموتى المؤمنين . غير أن تساؤلهم لم يدم طويلا فلقد تغلب الحب والاعتزاز القومي على صغارة الطائفية فأجريت لِ « هذا الرجل من لبنان » بعد وفاته جميع مراسيم الكنيسة المارونية التي كان جبران واحداً من ابنائها .

وأودّ أن اقتبس ما كتبـه بهذه المناسبه مواطن وصديق حميم لجبران هو سلّوم ا . مكرزل ، الصحفي اللبناني المرموق وأحد زعماء اللبنانيين والسوريين في الولايات المتحدة وهو من اتباع الكنيسة المارونية فقد كتب في مجلة « العالم السوري » وهي التي كانت تسجل نبضات قلوب مواطنينا الأوفياء هؤلاء فقال « يلوح انه من غير المألوف لدى الكثيرين ان تقام فروض الجنازة عند طائفة معينة للرجل الذي حطّم بطعناته اصنام الطائفية التقليدية تلك الاصنام التي كانت تحدّ من رحمة الله وتحتكرها للقلائل المختارين فأثار بعمله عداء بعض رجال الدين من ذوي المراكز العليا . بيد انه ليس في هذا ما هو غير مألوف فقد كان جبران مثل اكثر الصوفيين العظام جمّ التديّن ولذا ثار على جميع القيود والحدود التي تقصي الروح فتحرمها من الانسجام الشرعي الحرّ مع الله . »

« ان الغضب الذي كان يلتهب في يسوع عندما طرد الباعة والصيارفة من الهيكل هو الغضب الذي كان يلتهب في جبران عندما أنزل بأحد أمثاله في « التائه » ضربة صاعقة على رأس المطران الذي طرد امرأة غير مسيحية جاءت تسأله إن كان لها خلاص من نار جهنم . »

« وكما برّر يسوع العشّار الفقير الذي اعترف بخطاياه امام الله هكذا وضع جبران بين المخلّصين البررة ملايين عديدة من جميع الشعوب واللغات والمذاهب وهم الذين ما تعمّدوا قط بالماء والروح . »

« وقد انشد قبله ابن الفارض الشاعر الصوفي العظيم الذي كان جبران مولعاً بتائيته قائلا :

« تحققت انّا في الحقيقة واحدٌ
وأثبتَ صحوُ الجمعِ محوَ التشتّت »

« فإن نارَ بالتنزيل محراب مسجدٍ
فما بار بالانجيل هيكل بيعة »

« وبتحليقٍ مماثل ومحبّة انسانية سامية انشد ابن العربي اعظم الصوفيين العرب قاطبة قائلا :

« لقد كنت قبل اليوم أُنكر صاحبي
اذا لم يكن ديني الى دينه داني »

« وقد صار قلبي قابلاً كل صورةٍ
فمرعىً لغزلانٍ ودير لرهبان »

« وبيت لأوثانٍ وكعبةِ طائفٍ
وألواحِ توراةٍ ومصحفِ قرآن »

« أدين بدين الحبّ أنّى توجهت
ركائبه فالحبّ ديني وإيماني »

وهكذا أخذ جبران مكانه في القافلة السائرة من الأبدية للازلية تستنده قوة تنبعث من مثل هذه التقاليد الانسانية العريقة .

وإذا ما قيس جبران بكلماتنا التي لا حياة فيها فهو الآن ميت بَيدَ أنه قال « إذا ما مت فإني لن ابتعد عن هذه الارض الطيبة الخضراء لأمدٍ طويل » . ويقيناً ليس في قلوب أولئك الذين عرفوه فأحسنوا معرفته اي شعورٍ بالفقد أو الحزن الذي لا يتعزى لان روحه الشاملة المحبة تحيا في كل كلمة من كلماته . ونحن نحس بهـا ونعرف أنها حية ومهما تعاقبت الأجيال فسيبقى منه شيء تحت ظلال ارز الرب . امـا ما كان ترابياً فيه فسينحل في الارض الطيبة السمراء ويمسي غذاء للجذور والاغصان .

وسيعرف كل ما كان ارضيـاً فيه — حسب تعبيره الجميل — معنى القيامة المخلدة ويتذوق جمال الفصول ويتـلذذ بالأمطار والثلوج ويتمتع بلجج الرياح والعواصف التي احب .

إن ذرات ترابه ستحيا وتموت الف الف مرة في لبنان وسيهبط عشرة آلاف زائر راكعين عشرة آلاف مرة على ذلك السجيل ويلقبونه المبارك ...



لماذا انا هنـا

●

كان اول كتاب ظهر بالانكليزية لجبران هو كتاب « المجنون » الذي نشره سنة ١٩١٨ الفرد أ . كنوبف Alfred A. Knopf مدير دارٍ من اصغر دور النشر وهو رجل ذو حاسة طبيعية لا تُخطىء القيَمَ الادبية .

وقد كان قسمٌ من هذا الكتاب ترجمةً للأمثال العربية وما تبقّى كُتب بالانكليزية اصلاً . ان « المجنون » كتاب صغير ذو سبعين صفحة ليس إلا ... ومع انه جني صبى الشاعر إلا انه غنيّ فيّاض بالبشائر . ان « المجنون » من الشرق اذ ليس فيه ظلّ من تفكير الغرب وما يمتّ اليه... لقد كان « المجنون » التعبيرَ عن الحياة العاطفية التي لم تكبحها الحكمة ولم يقيّدها الإحساس الانساني الواسع الشامل اللذان برعمـا في « السابق » وأزهرا في « النبيّ » .

واننا لنجد في امثال « المجنون » تورية جميلة كما نلمس تلميحاً معيّناً للخيبة في الحياة والمرارة الحادة المنبعثة عنها ... انظر القطعة الخاتمة التي منها نقتبس هذه الاسطر :

« يا إلـه الارواح الضائعة ، ايها الضائع بين الآلهة ... استمع لي ...

« إني اسكن وسط شعبٍ كاملٍ انا اعظم الناقصين .

« انا فوضى بشرية ، نواة لأجزاء مشوّشة تحرك بين عوالم تامّة بين

اناس ذوي قوانين كاملة وأنظمة وافية .

« ها أنذا اسرق جاراً بابتسامة وأمتدح بفطنة وألوم بحذر ... واحطّم نفساً بكلمة وأحرق جسداً بنسمة ثم اغسل يديّ بعد ان ينتهي عمل النهار .

« لمَ انا هنا يا إلـه النفوس الضائعة ؟ »

ومع ذلك ففي « الجنون » نجد هذا الكلام الرائع بل ذلك الوحي الذي يذكرنا ابداً بالحقيقة الأزلية :

« وبعد الف سنة صعدت الجبل المقدس وكلمت الله قائلا : يا إلهي ... يا هدفي ومتممي . انا أمسك وانت غدي ، انا جِذرُك في الأرض وانت زهرتي في السماء ، ومعاً ننمو أمام وجه الشمس . »

وفي « الجنون » نستمع الى الشاعر وهو يصرخ بلسان المجنون الذي سُرقت امتعته قائلا « ألا بورك ... بورك في السارقين الذين سرقوا امتعتي » ونراه طروباً لأنه كما يقول ... « وجدت الحرية والسلامة في جنوني ... حرية الوحدة والسلامة في عدم فهم الناس لي ، لأن الذين يفهموننا يستعبدون شيئاً فينا » .

وتُظهر هذه الأمثال ثورة جبران على المنافقين وعلى الضلالة والجهالة كما أنها تثبت ان الحرب في نفسه ، تلك النفس التي عاشت وماتت سبع مرات ، ما تزال مستعرة .

وهنا يسجل جبران للمرة الأولى شعوره الكامل بالوحدة التي رافقته حتى النهاية ... فقد كان ابداً غريباً في هذا العالم وغريباً عن هذا الزمان وماجرياته ، ومع ذلك فانه كان دائم الدأب ليقلل الشقة التي بينه وبيننا ولكن كما قال لنفسه مرة « إنك لن تستطيع . »

إن الكلمات التي اقتبستها من « نيتشه » عن « واجنر » والتي تقول

« إن العالم بأسره يبني على اسس هي ليست أُسسه وتضل في اجوائه » تصدق على جبران .

وكثيراً ما كانت تمر فترات تهاجمه فيها الوحدة الفظيعة بشكل يحطم القلب فتهاجمه دون ما انقطاع فيصرخ « لماذا انا هنا يا إله النفوس الضائعة ، ايها الضائع بين الآلهة ؟ »

ولما نُشر الكتاب ترجم في الحال الى الفرنسية والألمانية والايطالية والأسبانية فصار معروفاً له قدره في البلاد اللاتينية وأميركا الجنوبية حيث يوجد الآلاف ممن يتكلمون العربية ويُجلون اسم جبران التجلة كلها ويُجلون كل كلمة قالها .

وقد كان لجبران ذكريات كثيرة حبيبة عن هذه الفترة من حياته وهي الفترة التي اكتسب فيها صداقة معاصريه من الكتاب الاميركيين الشباب فتمتع بصحبةٍ كانت سروراً وغنىً متبادلاً . فلقد سكب جبران في ارواح هؤلاء الشباب عِطراً قديماً كالزمان فكشفوا له بدورهم عن عمق الشعراء الغربيين الحقيقيين وجمال ما يُنتجون .

كان الاستقبال الذي استُقبل به « الجنون » مدعاةً ليلحق به « السابق » سنة ١٩٢٠ . ومن « السابق » ايضاً ما كان مترجماً عن العربية ، بيد أنه كان كتاباً ابعدَ نظرة واكثر اتساعاً وأعمق حكمة وأحرّ عاطفة وأحنّ إحساساً من « الجنون » ومع ذلك فقد كانت فيه سخرية مكبوحة ما تزال تنظر من وراء برقع خدّاع غير أنها سخرية ليس في نظرتها ظلّ مرارةٍ بل كانت تمور بها موجة شوقٍ ومحبة وحنان .

وهنا نجد القصيدة الرائعة المعنونة « الحب » بأسطرها القليلة وكلماتها التي تكاد تكون ذات مقطع واحدٍ . إن في هذه القصيدة اجمل اعترافٍ واعظم شوق متجرّد ...

الحب

يقولون إنّ الثعلب والخُلد
يشربان من الجدول
الذي إليه يأتي الأسد ليشرب

ويقولون إنّ النَّسر والغراب
يغرزان منقاريهما في الجيفة ذاتها
وهما في سلام ووئام
في حضرة الميت

أيها الحبّ ! يا مَن لَجمَت يداه الرّبانيّتان
شهواتي
وأجلَّت جوعي وعزّزت عطشي
لا تجعل الثابت فيّ والقويّ
يأكل الخبز ويشرب الخمر
اللذين يُغريان نفسي الضعيفة .
بل دعني اجوع
ودَع قلبي يتحرّق عطشاً
بل دعني اموت وأندثر
قبل أن أمدّ يديّ
إلى كأس لم تملأها أنت
او الى وعاءٍ لم تباركه .

وتتكشف قطعة « الهزيع الأخير » وهي التي بها اختـتُم الكتاب عن فهم واسع في كيان الشاعر اذ انه اطّرح كل العواطف والمفاهيم الصغرى شأنه في الكتاب كله . ألاَ إن هذا الكتاب « سابق » ملائم « للنبي » الذي تلاه بعد ثلاث سنوات .

وسرعان ما جمع « السابق » لِـ « هذا الرجل من لبنان » اصدقاء عديدين ومعجبين كثيرين . وتَبعت ذلك الترجمة التي ليس منها بدّ .

ولقد وجدت في اثنـاء تجوالي الكثير وقراءاتي من كتب جبران أن الكثير من امثال « السابق » معروفة اذ كانت الجماهير تطلبها المرة تلو المرة . ومن الأمثال التي كانت تلذّ للجماهير « قالت ورقة بيضاء كالثلج » و « العالم والشاعر » و « من قلبي الأعمق » و « مجنون الربّ » . وهذا الاخير هو اجمل الأمثال جميعاً وأبقاها أثراً في النفس .

ولقد كان هـذا النمط من القصص الكثير الافصاح الخاص بالشرق الوسيلة التي اختارها جبران لقول الحق . وهذا نمطٌ فريد لا يُخطىء الهدف ولا يضلّ السبيل . وأنا لا أعرف كاتباً معاصراً استطاع أن يُجيد هـذا الاسلوب الفني بمثل ذلك الحذق . إن فيما كتبه جبران استنهاداً لكل كاتب معاصر !!

امّا انا فقد القيت بدلوي في هذا الاسلوب وكان ذلك في اواخر سني جبران إذ كاد لي من أجله كثيراً ! فقد حدث بيننا في ذات مرة جدال مُستطاب فقال « انك تستطيعين ان شئت ان تكتبي مَثَلاً » فأصرّيت انني لا أستطيع فنظر اليّ بتقطيب صبياني وصرخ « اذن فاني اراهنك » وكان هذا القول منه ينجح في إثارتي وكان هو يعرف ذلك ... وهكذا كان فأقدمتُ على التجربة .

وقد خطرت ببالي قصة كان جبران قد قصها عليّ . وقد جرت له ذات مساء اذ كان عائداً الى محترفه راكباً سيارة اجرة ... وقبل ان يصل الى محترفه تعطلت السيارة التي كان يركبها فتوقفت عن السير فاضطر جبران ان يذهب الى محترفه ماشياً ، وكان لا يبعد عنه كثيراً . وفيما هو سائر لاقاه رجلٌ ظنّه جبران ملاّحاً . واعترض الرجل طريق جبران وسأله ان يعطيه بعض المال لكي يشرب به خمراً ...

من هنا أخذت سبيلي وبدأت التجربة فكانت النتيجة ما يلي :—

الأمير والملاّح

كان المساء قد خيّم على طريق الملك .

وجاء في المركبة الملكية الامير عائداً الى القصر من وليمة كانت قد أُقيمت على شرفه . وفيما هو يمرّ في بستانٍ كثيف الشجر اصطدمت عجلة مركبته بصخر هائل قرب طرف البستان فانعطبت .

فنزل سائق المركبة ليرى ما جرى حتى اذا ظهر له أنّ من المجازفة غير المحمودة حَمل الذات الملكية المقدسة خرّ راكعاً ورجا الأمير قائلاً « يا صاحب الجلالة المعظّم ! ماذا سيحل بي بعدما رأيت ما انزل هذا القضاء الغاشم بك ؟ »

وقد كان الامير ... اميراً حقّاً فأجابه قائلاً « حيٌّ هو الله خالق الليل والحجارة على جوانب الطرق في حدائقه . لا تخف ... انظر ... ها إن القصر لا يبعد عنّا غير رمية حجر ، وسأمشي اليه في هذا الجو اللطيف مهتدياً بضوء النجوم . سأمشي الى بيت أبي ولن يمسّني او يمسّك سوء » .

وسار فسارت في اثره كلمات الدعاء تزجيها شفتا السائق الذي احبّه.

وأدّت بالامير طريقه الى ساحة المدينة العامة . فنظر الى شعبه ونظر شعبه اليه . غير ان شعبه ما اكترث به ولم يعرف انه هو اميره .

وفيما هو يقترب من فندق المدينة اعترض سبيله امرؤ سائلاً اياه الاحسان . ورأى الامير انه ملاّح فوقف وأصغى ... لقد وقف لأنه أمير وأصغى لأنّ نفسه كانت ابداً للبحر توّاقة .

فقال الامير « اني ارى انك ملاّح لا مستعطٍ ... ماذا تُراك ستفعل بإحساني ؟ »

فضحك الغريب بمرارة وأجاب « بلى ... حقّاً قلت . ملاّح هو انا بيد أني بلا مركب ولا ميناء . وبين اربعة جدران عليّ ان انام ، وفي فمي طعم الموت . اني اطلب إحساناً لكيما اذهب الى الفندق واشرب خمراً حتى النسيان . »

وكان الامير ذا عاطفة كبيرة لأنه كان ايضاً ملاّحاً وقد توجّب عليه في سبيل مملكته ان يضطجع بين اربعة جدران ، وكان يعرف طعم المرارة التي هي كالموت .

فقال الامير « كم من الذهب تبغي لقضاء حاجتك ؟ »

فأجاب الغريب بمرارة « اريد ذهباً كثيراً ... »

فقال الامير « كم تريد ؟ »

فنظر الملاّح اليه غير مصدّق ما سمع وبشراسة اجاب « اريد ثلاثمائة قرشاً » .

ففتح الامير كيسه المذهّب واخذ منه ما طلب الغريب وقدّمه إليه قائلاً « خذ يا صديق !! واذهب واشرب خمراً حتى النسيان غير أني اسألك شيئاً . هو ان تنهض وتذهب الى جدرانك الاربعة حالما تصل الى لحظة النسيان ... لأني لا أريدك ان تُلقى في الطريق عندما يُقفل الفندق فيصبح مظلماً ساكناً . »

قال الأمير هذا للملاّح لأن الليل كان قد صار بارداً وكان الملاّح قد ترك في البيت معطفه .

فقال الملاّح مستفسراً « انت تعطيني ثلاثمائة قرشاً لأذهب الى الفندق واجعل من نفسي سكيراً ؟ »

فأجاب الأمير « أوَليست تلك رغبتك ؟ »

وتَلَت ذلك فترة صمت .

ثم قال الملاّح « اني اريد قصعةَ عدسٍ . اعطني إن شئت ثلاثة قروش . »

غير أن الأمير اصر عليه قائلا « لا . خذ هذه وابتع بها ما شئت ، خمراً او عدَساً ... فانها لك » .

ولكن الملاّح لم يقبل .

ورافق الأميرُ الملاّح حتى باب الفندق ولكنه لم يستطع إقناعه .

وأخذ الملاّح قروشاً ثلاثة ودخل الفندق ... وذهب الأمير الى القصر ...

وما تيسّر للملاح ولا للأمير خمر النسيان .

كان هذا هو « مثلي » الذي كتبته فنُشر في « الشرق الجديد » اما خاتمة الحادث الذي جرى لجبران فكانت كما يلي : عندما سأل جبران الرجل الذي اوقفه كم من المال يعوزه حتى يسكر اجابه الرجل قائلاً « دولاراً واحداً » ولكن شيئاً تولّد في ضميره عندما قُدّم اليه الدولار فرفضه قائلا « لا ... لا ... اعطني عشر سنتات ثمن فنجان قهوة » .

ولما قرأنا القصة التي كتبتُها قال جبران بكرمه المعتاد « ارأيت ؟ لقد قلت لكِ إنك لبنانية » .

وكان يشير بقوله هذا الى ملهاةٍ كنّا نلهو بها لنخفف نشوة الروح الكبرى ووطأة ثقلها . فقد كنت ألبس ثوبي الحريري الطويل ذي اللون العاجيّ المذهّب واتقنّع فأصبح « لبنانية » فيقول « يخيل لي انك ستنفجرين في اية لحظة متحدثة بالعربية » .

وكان ذلك لهواً صبيانياً يُسرّه كثيراً ، اما انا فكنت اطرب لشيء يكاد يكون نسياً منسياً ، ذلك هو لبنان ... هو الجبل والارز ... وكم ذا دهشت عندما كنت ، بعد ذلك بسنوات ، اصعّد في هاتيك الجبال ذات الروعة التي لا توصف ، ذاهبةً الى بشرّي ... الى الارز ... فلم ارَ شيئاً غريباً عنّي ، وكأنما قد أُلقي بالعالم الجديد بعيداً ، فرجعت الى الماضي السحيق فما شعرت باغتراب ووحشة بل فاض بي سلام عظيم ، وغمرني إحساسٌ بأنّ كل شيء قد تمّ . فالناس هناك بجمال طلعتهم وجميلِ شعرهم وحبهم للضيافة الذي يكاد يكون مزعجاً ، ليسوا من اهل هذه الايام ... ومع ذلك فانهم لم يكونوا غرباء عني . لقد كنت واحدة منهم ...

ولكن تلك ، كما نقول ، قصة أخرى .





جبران في اكاديمية جوليان بباريس سنة ١٩١٠

الحق هنـــا

●

أنهى « السابق » كلامه قائلا :

« ولكنه رفع رأسه فجأة وكانسان يمشي في منامه ، مدّ ذراعيه وقال لقد انتهى الليل فعلينا نحن ابناء الليل ، ان نقضيَ عندما يأتي الفجر قافزاً من على التلال . ومن رمادنا سينهض حب أقوى وسيضحك في وجه الشمس وسيكون خالداً » .

ثم جاء « النـبي » بعد ذلـــك بثلاث سنوات فاذا به الشاهد على « الحب الأقوى » الذي جاء « ليضحك في وجه الشمس » إن الآلاف ممن يعرفون الكتاب يرون أنه « سيكون خالداً » حقاً .

كان اول ما فكر الشاعر « بالنبي » وهو في سنتـه الخامسة عشرة إذ كان تلميذاً في مدرسة الحكمة ببيروت .

كان جبران خليل جبران ابن إحدى عشرة سنـــة عندما سافر الى اميركا يرافق امه وأخاه لأبيه بطرس واختيه الصغيرتين مريانا وسلطانه .

فلما صار في سن الرابعة عشرة أصر على العودة الى الوطن ليكمل تعلم الآداب العربية ويتثقف بثقافتها فركب الباخرة في بدء الخريف من ذلك العام وعاد الى بلد مولده وحيداً ... غير أنه لم يكن الشاب المرح المُقدم على مجازفة سارّة في حياة التلمذة بل كان امرءاً ذا نفس شابة ولكنها مسنـّة ، إذ كان مثقـَل القلب وكان عقله يتمعّن في الموت اكثر من تمعّنه

في الحياة ... لقد كان يعرف أنه غريب في هذا العالم وأن ما زال عليه ان يعرف الاتجاه النهائي لمواهبه والمدى الكامل لقواه .

ويخيل لي أني سمعته مرّة لا غير يتحدّث عن هاتيك السفرة الى بيروت ... غير أني لن انسى هاتيك المرة ما حييت .

قال « كنت وكأنني في حلم . غير انّ الحلم لم يكن واضحاً ولا مُسرّاً بل كان قلقاً مضطرباً ... فأمي وأخي بطرس واختاي في بوسطن ... امي التي كانت حياتها قصائد لا تُعدّ مع انها لم تكتب قصيدة واحدة... وأبي في جبال لبنان قريباً من الارز .. وأنا – الصغير الجريء المتحدّي بإرادتي ارادتهم جميعاً ... فلقد عرفت اني لا اقدر ان اصبح ما خلقت لكي اكونه الآن اذا عدت الى بلادي . اذ كان بي ميل عارم ان اصير شاعراً ورسّاماً ! » ثم توقّف عن الحديث وضرب الطاولة بكفه التي كانت قوية كالحديد ونهض وقال « انا شاعر ورسام ... انا شاعر مجيد ورسّام مبدع ... واني احب اشعاري ورسومي ... ولو شئتُ لصحت بهذا معلناً اياه في الطرقات ! » .

وكان يصرخ في المحترف مثل صبيّ يفرض إرادته ويظهر صولته في لعب مُحبّب اليه . ثم ابتسم ابتسامة غريبة لطيفة غشّت عينيّ بضباب من الدموع !

وتساءل « هل انا جدّ مغرور ? أم أنك انت الأخرى تحبّين قصائدي ورسومي ? »

واستدرك قبل ان اجيبه وقال وهو يضع اصبعه على شفتيه « صه إني اعرف » ثم صار يروح جيئة وذهاباً مكملاً الحديث عن سفرته ... « حسناً ... عندما وصلت الى بيروت ذهبت الى المدرسة فسألوني « مَن جاء بك الى هنا ? مَن جاء معك ? » فانتصبت ... ولم اكن فارع القامة كما تعرفين وقلت « سيدي ! ما جاء بي احدٌ الى هنا ... جئت وحيداً » .

ولكنهم كانوا يعرفون اذ كانوا قد تسلّموا الرسائل عنّي . ثم اتّضح كل شيء في فكري واضمحلّت الغيوم ، ولم تعُد روحي بعد مضطربة . جئت وحيداً ... وكان ذلك يكفي . »

وفي مدرسة الحكمة تلك كُتب « النبي » الاول وكان ذلك بعد سنتين من دخول جبران اليها . غير انه وضعه جانباً مدركاً انه كان « ثمراً فجّاً » على حدّ قوله ، ومتيقّناً ان الوقت سيحين عندما يخرجه للناس فيمسي قوّة في يده .

ولقد قال لي جبران مرة « يخيّل لي أن ذلك المخلوق المدعو (المصطفى) ... كان ابداً معي » .

كان يلوح لي وللكثيرين ان المصطفى هو جبران وان المرء لو شاء معرفة تاريخ حياته الروحي لاستطاع ان يتتبّعه في « النبي » وفي « حديقة النبي » الذي ظهر فيما بعد .

ثم توالت الايام فانقضت ثلاث سنوات اخرى وانتهت بانتهائها حياة جبران المدرسية بأعلى امتياز ... ثم ذهب الى باريس ليبدأ اعظم حدَث في حياته التصويرية . ألا إن قصة هاتيك الفترة لهي قصة التفرّغ لبلوغ الهدف الذي لا يتغيّر . فلذا نراه منصرفاً للعمل والعمل وحده . وباستطاعتنا ان نروي حوادث حدثت ونذكر صداقات تمّت كان لها جميعها اثرها في ما تلى من حياة هذا الرجل . غير انه كان يصرف جلّ وقته وهو يعيش في صدفة نفسه مشدداً عزمه ومهيئاً قواه لنضال السنين الآتية غير عارف ولكن به نذير إحساسٍ ان هاتيك السنين ستزدحم بالنضال الطويل والألم المرير .

واني ارى انّ ليس لتاريخ « النبي » مثيل فقد اخذه جبران معه عندما أمّ باريس ، ثم رافقه الى بوسطن عندما دعاه الداعي شاباً ابن عشرين الى جانب سرير امه المريضة ، قرأ جبران لأمه ما كان قد كتب عن

المصطفى الشاب فقالت له بحكمتها المعهودة « انه عمل طيب يا جبران ، غير أن ساعته لم تَحِن بعد ... ضعه جانباً يا ولدي » فامتثل جبران ووضعه جانباً ... وعندما حدثني بهذا الحديث قال « انها كانت تدرك اكثر مني وأنا في شبابي الغضّ » .

ها الرسام في الخامسة والعشرين من عمره ، وها هو الآن في باريس، وقد صار ذائع الصيت اذ اجتذب لفتة من « رودين » واكتسب صداقته. كما أن صُوَرَه كانت قد عُرضت « بالصالون » مرتين . وها هو يكتب « النبي » من جديد ، وكان لا يزال بالعربية . وها هو يقرأه لنفسه بصوت مرتفع ، يقرأه لنفسه لأنه لم تكن له يومئذٍ ام تُسديه الرأي وتحسن له النُّصح . قرأ الكتاب فقال « انه عمل طيّب يا جبران غير ان ساعته لم تحُن بعد ... لم تحُن ... ضَعه جانباً .»

وللمرة الثانية وضعت قصة المصطفى المختار الحبيب جانباً حتى انقضت عشر سنوات اخرى .

وقد صرف جبران سنتين من هاتيك العشرة في باريس وهو يعمل ويدرس اكثر من ذي قبل ويوثّق عرى صداقات كثيرة إذ التقى بعدد من البارزين في عالم الفن يومئذٍ ورسمهم . ومن هؤلاء هنري روشفورت Henri Rochefort وديبوسي Debussy وماترلنك Maeterlinck وادمون روستان Edmond Rostand وغريبالدي الصغير Garibaldi Jr ورودين Rodin .

واذ عاد جبران الى اميركا اتخذ مسكنه في نيويورك . وقد ادرك انه سيجد في قلب العالم الغربي طريقاً للتعبير عن رغبته في خلق الحق والجمال وابراز جوهر الحياة الصحيح في كلمات ورسوم . انه كان يريد ان يحيا حياة الفنان فاختار مبنى الستوديو القديم الواقع في ٥١ الشارع الغربي العاشر ، وهو اول مبنى شيد في الولايات المتحدة خصيصاً للفنانين والنحاتين

دون غيرهم . كان يلوح لجبران ان تلك الاشياء التي تحيط به هناك تيسّر له الوحدة وحرية العمل اللتين كان فيهما يرغب واليهما يسعى .

كان هنا ان بدأ جبران صداقة متينة مع البرت ريدر Albert Ryder الذي كان وحيداً مثله ويحمل في نفسه حملاً من الألم لم يُدرَك كنهه .

وكان « هذا الرجل من لبنان » ، وهو واحدٌ من فئة الخالدين الذين يزورون هذه الكرة مرة كل الف عام حاملين رسالة من العليّ ، يستعد ليتقدم برسالته عن طريق إنشاد اغاني الشاعر والتعبير بخط الرسام ومثاله وألوانه .

هنا كَتب « النبي » الانكليزي الأول وكان بدء الرسالة ولم يكن « المجنون » و « السابق » سوى البشير الذي يسبق الولادة . لقد كانا ينزّان كالجداول في اعماق كيان هذا الرجل . اما « النبي » فكان يتدفق كالنهر .

ثم كتب جبران « النبي » بالانكليزية مرة اخرى وهو يذرع المحترف جيئة وذهاباً فلا يقف إلاّ ليكتب شيئاً ثم يعود الى سابق سيره ، او فيما كان يمشي في سنترال بارك خلال ليالي الشتاء القارصة او فيما كان يسير في غابات كوهاست قرب البحر ايام الصيف فيحوّل سحره بالعربية الى سحره بالانكليزية .

وقبل ان سُلّم هذا الكتاب الرائع للطبع خطته يد الشاعر خمس مرات خلال خمس سنوات .

لقد كانت كتابة الاشعار بالانكليزية جُهداً شاقّاً لجبران غير انه كان يستعذب التفكير بالعربية والتكلّم بالانكليزية فيلقى مَن يكتبها له .

وقد قال لي مرة « استغرقتني كتابة « النبي » الانكليزي خمس سنوات مع اني كنت استطيع أن انهيه معكِ بسنة واحدة .»

وكان جبران لا يكتب إلا في دفاتر بنيّة . وقد كتب مرة « كم اتمنى

لو ان احداً يستطيع ان يريحني من التفكير في مشاكل الحياة اليومية اذ انني يشغلني شيء واحد هو عملي هذا فلا استطيع ان اضيع الوقت كيما اختار بين هذا وذاك من امور الحياة اليومية » ومع ذلك فما اكثر ما كان يهتم بأصغر الاشياء وأدق التفصيلات .

اما الدفاتر البنيّة فقد استعملها منذ طفولته . وهي تشبه دفاتر التلاميذ وقد قال عنها مرة « من الناس مَن لا يعرف ان الاشعار لا تُكتب إلا في دفاتر بنيّة » ثم ضحك من نفسه لأنه قال هذا .

وقد اعتاد جبران كلما اشترى دفتراً بنياً ان يكتب على صفحته الاولى بضع كلمات بالعربية اللغة الحبيبة الى قلبه ، فكتب في الدفتر الاخير « أعنّا اللهمّ ان نكتب الحق مسربلاً بجمالك » وكتب فيما قبل الاخير « اخي ! كل قضيّة اقلقتك اقلقتني ايضاً » .

وهكذا أُكمل « النبي » ونُشر ... وحلّى وجه المصطفى غلافه ، وكان به احد عشر رسماً آخر كانت للأبصار والارواح مثلاً رائعاً جميلاً على مقدرة جبران الفنيّة ، تلك المقدرة التي ما ظهرت من قبل إلاّ لُماماً فيما اتضح منتهى كمالها ولا برز صافي جمالها .

ولم يستقبل النقاد الكتابَ بحماسة بل استقبلوه بضئيل المدح . فقالت « البوكمان » The Bookman :

« إن للفلسفة الشرقية سحراً غريباً في عقول الغربيين وتتضاعف قوة هذه الفلسفة وجاذبيّتها عندما تُسبَك في الشعر المنثور البسيط الجميل لِ « نبيّ » جبران خليل جبران . ويُلقي على الكتاب مسحةً من الصوفية اثنا عشر رسماً لعراة رشيقين ناهدين من فوضى افكارٍ كثيرة التعقيد وكأنما هم الى الصفاء يسعون تائقين . »

وقالت التايمس اللندنية London Times :

« ان جبران خليل جبران شاعر من الشرق الادنى وهو يمزج في «النبي» اجمل ما في الفكر المسيحي باجمل ما في الفكر البوذي عن طريق اجوبة النبي المصطفى ردّاً على اولئك الذين كانوا يسألونه عن مشاكل الحياة والسبيل الذي يتّبعون ، وعن احجية الموت الذي يشعر باقترابه . »

ومن الطريف ، بل من المفجع ، ان نرى كيف يقلّب النقاد صفحات كتابٍ جديد بعد تناول عشاء ثقيل فيقفون هنا ويقفون هناك ليقتنصوا، اذا ما تمكنوا ، مقصداً من مقاصد الكاتب ثم يكتبون مراجعاتهم ويزفونها للقراء جُملاً متّقدة .

وبالرغم من هذا فقد وجدتُ كلمة بتوقيع كاتب يدعى Y.O. في قصاصة من جريدة انكليزية غير معروفٍ اسمها اقنعتني ان واحداً من هؤلاء النقاد قد راجع الكتاب كما يجب ان يُراجع الكتاب . قال الناقد :

« اني لم ارَ منذ سنواتٍ كتاباً اجمل من « النبي » في فكره . وعندما اقرأه أُدرك احسن مما كنت ادرك ما عنى سقراط عندما تكلّم في « الوليمة » عن جمال الفكر وسحره الذي هو اروع من سحر الشكل وجماله . وما اعمق سخرية جبران من عشّاق الحرية « الذين يتخذون من حريتهم نيراً وقيداً » .

وهذه مراجعة في « شيكاغو إيفننج ليتري ريفيو :
Chicago Evening Literary Review »

« سيُثار ضجيج قليل على هذا الكتاب . غير ان قيمة الرجل لا يُحكم عليها بعلوّ الضجيج الذي يثيره . فها هنا الحق الذي عبّر عنه عربي بكل ما لديه من موسيقى وجمال ومثالية . ان لكلمات جبران وقعاً مثل وقع اشعار سفر الجامعة الرائعة ، ذلك لأن جبران ما خشي ان يكون مثالياً

في عصر الساخرين ولا تخوّف من ان يُشغل نفسه بالحق المجرّد بينما
يكرّس الآخرون انفسهم للتحذلق المتطاول كالجبال . ان الثمانية والعشرين
فصلاً في الكتاب تؤلف توراة صغيرة يقرأها ويحبها اولئك المستعدون
ابداً للحق » .

لقد كان هذا الناقد محقاً فلم يثر الكتاب ضوضاء ولا ضجيجاً غير أنه
اثار همساً امتد وعلا . كان كالنسمة الخفيفة التي صارت ريحاً زعزعاً ..
« النبي » و « هل سمعت بالنبي؟ » و « هل قرأت النبي ؟ »

فمنذ ان نُشر الكتاب وقُرىء للمئات في كنيسة القديس مرقص
بدأت رسالته تشق طريقها في وعي الناس دون توقف وهي ما تزال تشق
طريقها في العالم كلّه . فلقد خبّر اهمية هاتيك الرسالة شعراء البلاد الاخرى
من رجال ونساء فأعجبوا بها وأحبوها فنقلوها الى لغاتهم التي زادت على
الثلاثين عداً . ومع ذلك فلا ضجيج للرسالة ولا عجيج بل هي فيضٌ من
الانعاش القوي الهادىء لأولئك « المستعدين للحق » .

عقدت « اخوّة الايمان العالمية » مؤتمراً لها في شيكاغو سنة ١٩٣٣
حضره العديدون والعديدات المنتمون والمنتميات لكل طائفة ومذهب في
العالم كله ليتحدثوا عن معتقدهم الروحي . وقد كان من دواعي اغتباطي
ان اتحدث في الحفل الكبير فاخترت موضوعاً لحديثي « بشارة الثقافة »
فاقتبست ، كعادتي ، من « النبي » مستشهدة بأقوال جبران . وقد لازمتني
تلك العادة خلال العشرين سنة الاخيرة .

وعندما انتهت جلسة المؤتمر تلك جاءني شاب هندوسي اسود العينين
وقال « ما اسم الكتاب الذي كنتِ منه تقتبسين ؟ » فسجّل سؤاله وجوابي
مولدَ صداقة جدّ عزيزة ، هي صداقة نمت مع السنين . اما الشاب فهو
راما مورتي وقد كان السكرتير الخاص المراجا سنج النبالي . وقد جاءا

ليحضرا المؤتمر ويشتركا في أبحاثه . وعندما عاد راما الى الهند اخذ « نبيّه »
معه كما أخذ « نبياً » آخر لأخيه الذي يصغره سناً . وهو شاعر هندوسي
شاب ، يعالج النظم بالانكليزية .

وكانت الرسائل المثيرة تردني من هذا الشاب خلال السنوات التي انقضت
منذ ان تعارفنا . وقد علمتُ من رسالته الأخيرة انه يدرّس اللغة الانكليزية
في مدرسة إعدادية في طوكيو ... كان ذلك منذ اربع سنوات ... امّا
اليوم فاني لا أعرف شيئاً عن ذلك الصديق الشاب الجميل .

بيد أني أعرف ان « النبي » اظهر له الحق والجمال وان حياته ومماته
بسبب « النبي » سيكونان اغنى وأفخم منها لولاه .

ولقد كتبتُ في مكان آخر من هذا الكتاب عن اتصالي الأول بكلمات
جبران ، وتمرّ في خيالي الآن قصة إثر اخرى ذُكرت لي عن اتصالات
اولى اخرى .

واني لأذكر يوم السادس من كانون الثاني وهو يوم مولد جبران اذ
كنت في محترفي في جراند اوتيل بنيويورك . ومحترفي غرفة مرتفعة
السقف طويلة واسعة ذات خمس نوافذ عالية تُطلّ على برودواي Broadway
والشارع رقم ٣١ وتنسدل عليها ستائر حريرية حمراء . وعندما كانت
الشوارع تضاء فأطفىء أنوار غرفتي تنعكس على الجدران والسقف الوان
كألوان الغروب تأخذ باللبّ .

في ذلك السادس من كانون الثاني كنت مجتمعة وأصدقائي لنتذكر
جبران ونتحدث عنه . ولم تكن انوار غرفتي مضاءة . كنّا عشرين شخصاً
او اكثر . وكان جوّ المكان مكهرباً وأحاسيسنا في اعلى ذروة يعجز عنها

الوصف . وكان اولئك الأصدقاء يَروُون كيف بدأ « النبي » فعله في حياة كلٍّ منهم .

فقالت صبيّة روسية تدعى ماريا انها كانت تتسلّق وأصدقاؤها من الشباب والصبايا جبال الروكيز وحدث ان اتخذت منهم جانباً وجلست على صخرة لتستريح فرأت بجانبها كتاباً اسود الغلاف هو كتاب «النبي» فما أعارته اهتماماً كبيراً ساعتئذٍ بيد انها اخذته بيدها مقلّبة الصفحات بلا اكتراث ثم بدأت تقرأ فقرأت القليل منه ثم الاكثر فالاكثر .

ثم اسرعت ماريا الى اصدقائها وصرخت فيهم قائلة « تعالوا وانظروا ... لقد وجدت ما كنت أترقّبه طيلة حياتي ... لقد وجدت الحق » .

وروت صبيّة اخرى قصة غريبة . والصبية معلمة في مدرسة خاصة وهي الى ذلك شاعرة مجيدة .

كانت الغرفة التي تعلّم فيها على جانب ممرٍّ قريب من مدخل المدرسة الخارجي وفي ذات صباح كانت واقفة امام تلاميذها وبينما هي كذلك اذ فُتح باب الغرفة فدخل منه رجل غريب يحمل في يده كتاباً مفتوحاً وبدون مقدّمات قال « إن لديّ شيئاً اريد ان اقرأه لكم . هو شيء ذو أهمية حيويّة . » وقرأ من « النبي » بصوتٍ عالٍ الفصل المتعلق بالأولاد . فاحتارت المعلّمة الصبية مما جرى ومن سرعة عبور الزائر وما بدا منه ومن الكلمات التي سمعتها تخرج من شفتيه حتى أنها عجزت عن التفوّه بكلمة ... ثم اغلق الكتاب وترك الغرفة ، وعلى هذا النحو عرفت المعلمة « النبي » .

امّا انا فاني اعرف رجلاً من نيويورك هو مدير مؤسسة عقارية معروفة هناك . لقد قال لي ذلك الرجل « لدى زوجتي ثلاث نسخٍ من « النبي » وعندما نلاقي شخصاً جديداً متجانساً معنا في تفكيره تُعيره زوجتي نسخةً من الكتاب ثم نكوّن رأينا فيه على ضوء رد الفعل الذي يُحدثه الكتاب

في نفسه . »

صدّقوني ان كل ما قيل في «النبي» صحيح ... ليس لأن «النبي» شعر ساحر الاسلوب ، جميل التعابير ، موسيقي الاوزان ، عذب القوافي ، بل لبساطة ما كُتب فيه عن حقائق وجودنا البشري الحيّة ، تلك البساطة التي يدركها حتى عقل الصبيّ الذكي وقلبه . إن « النبي » كتاب حيّ يمسّ الروح باصبع من نار فيحركها حتى الاعماق .

وان كنتَ ، أيها القارىء ، من اولئك «الذين هم ابداً مستعدون للحق» فانك لا تستطيع ان تقرأ صفحة دون ان تحرك اعماق وعيك . انظر الى هذه السطور :

« احبّوا بعضكم بعضاً ، ولكن لا تجعلوا من الحبّ قيداً
بل اجعلوه بحراً متحركاً بين شطآن نفوسكم »

★★

« إنّ أولادكم ليسوا أولاداً لكم ...
انهم يأتون بواسطتكم ولكن ليس منكم
وبالرغم من انهم معكم فانهم ليسوا لكم »

★★

إنكم لا تقدرون أن تفصلوا العادل عن الظالم ولا الطيّب عن الشرّير لأنهما يقفان معاً امام وجه الشمس كما يُنسج الخيط الاسود والابيض معاً . وعندما ينقطع الخيط الاسود ينظر الحائك في الثوب كلّه ويتفحّص النّول ايضاً »

★★

« إنّ حياتكم اليوميّة هي هيكلكم ودينكم »

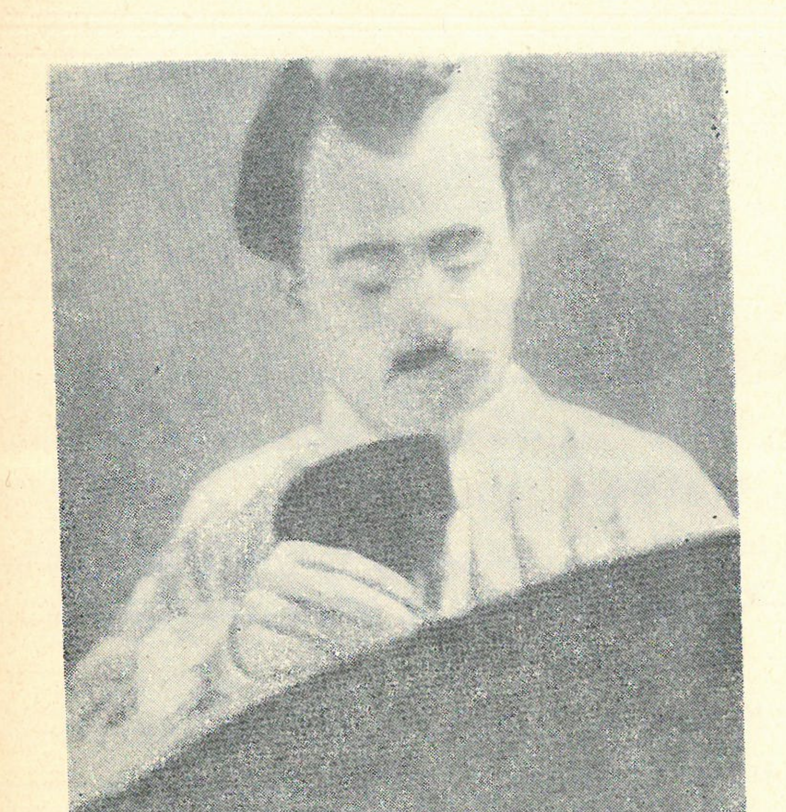
★★

« لأنكم في ذلك اليوم ستعرفون الغايات الخفيّة في كل الاشياء وعندئذٍ ستباركون الظلمة كما تباركون النور »

★★

« إنّ العمل حبٌّ تجسد »





جبران يرسم فيُنطق الجماد

ضبابة تنقش صوره

●

في سنة ١٩١٩ نُشر كتاب « عشرون رسماً » وقد جاء نشره بين « المجنون » و « السابق » فعرفت الجماهيرُ الاميركية فنّ جبران على نطاق واسعٍ لأول مرة . ومع ذلك فلم يكن الكتاب سوى لمحة من عالم الابداع الذي كان جبران يسعى فيه .

وقد عُرضت رسوم جـــبران في بوسطن ثم في نيويورك فكتبت ترانسكربت Transcript المحافظة التي تصدر في بوسطن معترفةً بالفنـــان الشاب اعترافاً له اهميته . قالت فيه : —

« إن جبران شاب لبناني يُظهر في رسومه مزاج شعبه الخيالي وخيالهم الشعري كما يُظهر ميلاً مفرداً عجيباً للخَلق . ان جمال اخيلته التصويرية لجمال مُذهل ونبلها نبل مدهش ، كما أن مدلولات تخيّلاته المفجعة مدلولات مخيفة مرعبة . بيد ان رسومه ، على العموم ، تترك في النفس اثراً عميقاً . واذا ما اخذنا بعين الاعتبار سنّه فان القيَمَ التي ظهرت في صوره لقيمٌ رائعة في اصالتها وعمق اهميتها الرمزية . ان الرغبة في التعبير عن الافكار الماتافيزيقية انتصرت على القيود التكنيكية انتصاراً واضحاً فيسّرت لجمال الفكر المعنوي المجرّد ان يثير الخيال إثارة كبرى » .

فكان حتى هذا القدر من التقدير داعياً للرضى في زمن كان الفن ابعد ما يكون ميلاً « للجمال المعنوي » او « للأهمية الرمزية » . لقد تركت الرسوم

في نفوس مَن شاهدوها اثراً عميقاً . غير أن فاجعة حلّت بالفنّان بعد نجاح معرضه مباشرة ، فقد اتت النار على جميع البناية التي كان فيها المعرض قائماً فأتت معها على المجموعة الكاملة لإنتاجه الغالي .

فكانت تلك ضربة جسمانية لجبران . ومن المحال ان يتصور المرء ماذا عنى تدمير العمل الباكر لطبيعة حسّاسة مثل طبيعته . غير أنه بعد أن كان قد صرف سنتين في باريس يدرس الفن في اكاديمية « جوليان » . ويرسم بالزيت في « معهد الفنون الجميلة » وصف الحادث فقال « إن النار التي اتت على رسومي الاولى كانت نعمة من الله الطيّب . لقد قالوا انها رسوم جيدة ولكني اعرف الآن انها كانت « ثمراً فجّاً » . ولما كنت في باريس لاح لي كأنما الضباب الذي كان يقوم بيني وبين نفسي تلاشى .»

وكان جبران يحب التحدث عن محترفه الأول الذي دعاه «قفصي الصغير» وعن المحترف الثاني الواسع القائم في اعلى البناية حيث كان يشعر بحرية جديدة وحيث كما قال « استطيع ان انشر جناحَيّ » .

وفي المحترف الثاني اتمّ جبران صورة « عبد البهاء » الموقّر سنة ١٩١٢ . وكان الرجل القدّيس قد قال « ان الساعة السابعة صباحاً هي الساعة التي يقبل ان يجلس فيها ليُرسم . وعندما حدثني جبران بذلك قال « بقيت ساهراً الليل كله اذ كنت اعرف أنني إن نمت فلا تكون عيني قادرة على الرؤيا ولا تقوى يدي على العمل » .

وكان هنا أيضاً أن عُملت صورة الشاعر ييتس Yeats وماسفيلد Masfield الذي كان قد عاد قبل قليل من جاليبولي و « في عينيه اشباح » وآي . إي . (جورج وليم رسل George William Russell) ولورنس هاوسمان Laurence Hausman وجوهان بوجير Gohan Bojer وادوين ماركهام Edwin Markham عميد الشعراء الاميركيين وبول بارتليت Paul Bartlett وبيرسي ماكي Percy Mackaye وويتر بينر Witter Pynner وكثيرين

غيرهم من الأشخاص المرموقين .

ان جدول اسماء الذين رسمهم جبران لَجدولٌ طويل مذهل اذا ما تذكرنا ان الفنان كان ايضاً الشاعر الذي لا ينقطع عن الكتابة بلغته العربية الحبيبة وباللغة الانكليزية التي تبنّاها فبرع فيها الى حدّ الكمال .

أُقيم اول معرض لجبران في نيويورك سنة ١٩١٤ في قاعة مونتروس Montross واني لأشعر انه من الواجب المحتوم عليّ ان اقتبس بتطويل من مقال نُشر في الصحف متحدثاً بوضوحٍ ونفاذ بصيرة عن الاثر الذي تركه المعرض يومئذٍ . اما المقال المذكور فبلا مقدّمة وليس فيه ما يُستدل منه على اي الجرائد نشرته ، غير أن فحواه هام . قيل في المقال :

« ان رسوم جبران تشمل الكثير من رؤوس الشخصيات البارزة . انّ القيم التكنيكية للرؤوس قيمٌ ممتازة مدهشة وقد حصل عليها الرسام بخط قلمٍ ليس إلاّ . فكانت احدى الوسائل التي اتبعها هي التشدد باظهار الخطوط السوداء على اساس من الخطوط الخفيفة مما انتج اشعاعاً نورانياً وتموجاً لونياً يُسبغان على اللحم شعوراً خفّاقاً من الحياتية . وتجمع الطريقة كذلك بين اثر الفحم الغني وبين عذوبة الطبع الفضي العابرة . وفي المعرض كذلك رسوم عديدة لروث سانت دنيس Ruth St. Denis وهي ترقص ، وقد عُملت رسومها بسرعة على طريقة رودين والغاية منها اقتناص روح حركة معينة في انطلاقتها الحيّة . وفي المعرض دراسات عارية فيها الكثير من قوة تعبير اللحم والشكل والايماءة وتقود هذه الدراسات الخُطى الى الرسوم الزيتية التي يقارب عددها الأربعة والعشرين والتي تكفي بالرغم من قلّة عددها لنَقلنا الى عالم خيال الفنان .

« وعالمٌ خياله هذا هو عالمٌ من الخلق الأصيل الذي يكشف لنا عن نفسه . هو عالم يتكوّن من سماء وجبال ذات نبتٍ قليل . هو عالم يشعر فيه المرء بالوحدة والوحشة المقفرة اللتين توحيان ابداً ، حتى في الفسحة

في نفوس مَن شاهدوها اثراً عميقاً . غير أن فاجعة حلّت بالفنّان بعد نجاح معرضه مباشرة ، فقد اتت النار على جميع البناية التي كان فيها المعرض قائماً فأتت معها على المجموعة الكاملة لإنتاجه الغالي .

فكانت تلك ضربة جسمانية لجبران . ومن المحال ان يتصور المرء ماذا عنى تدمير العمل الباكر لطبيعة حسّاسة مثل طبيعته . غير أنه بعد أن كان قد صرف سنتين في باريس يدرس الفن في اكاديمية « جوليان » . ويرسم بالزيت في « معهد الفنون الجميلة » وصف الحادث فقال « إن النار التي اتت على رسومي الاولى كانت نعمة من الله الطيّب . لقد قالوا انها رسوم جيدة ولكني اعرف الآن انها كانت « ثمراً فجّاً » . ولما كنت في باريس لاح لي كأنما الضباب الذي كان يقوم بيني وبين نفسي تلاشى . »

وكان جبران يحب التحدث عن محترفه الأول الذي دعاه «قفصي الصغير» وعن المحترف الثاني الواسع القائم في اعلى البناية حيث كان يشعر بحرية جديدة وحيث كما قال « استطيع ان انشر جناحيّ » .

وفي المحترف الثاني اتمّ جبران صورة « عبد البهاء » الموقّر سنة ١٩١٢ . وكان الرجل القدّيس قد قال « ان الساعة السابعة صباحاً هي الساعة التي يقبل ان يجلس فيها ليُرسم . وعندما حدثني جبران بذلك قال « بقيت ساهراً الليل كله اذ كنت اعرف أنني إن نمت فلا تكون عيني قادرة على الرؤيا ولا تقوى يدي على العمل » .

وكان هنا أيضاً أن عُملت صورة الشاعر ييتس Yeats وماسفيلد Masfield الذي كان قد عاد قبل قليل من جاليبولي و « في عينيه اشباح » وآي . إي . (جورج وليم رسل George William Russell) ولورنس هاوسمان Laurence Hausman وجوهان بوجير Gohan Bojer وادوين ماركهام Edwin Markham عميد الشعراء الاميركيين وبول بارتليت Paul Bartlett وبيرسي ماكي Percy Mackaye وويتر بينر Witter Pynner وكثيرين

غيرهم من الأشخاص المرموقين .

ان جدول اسماء الذين رسمهم جبران لـَجدولٌ طويل مذهل اذا ما تذكرنا ان الفنان كان ايضاً الشاعر الذي لا ينقطع عن الكتابة بلغته العربية الحبيبة وباللغة الانكليزية التي تبنّاها فبرع فيها الى حدّ الكمال .

أُقيم اول معرض لجبران في نيويورك سنة ١٩١٤ في قاعة مونتروس Montross واني لأشعر انه من الواجب المحتوم عليّ ان اقتبس بتطويل من مقال نُشر في الصحف متحدثاً بوضوحٍ ونفاذ بصيرة عن الاثر الذي تركه المعرض يومئذٍ . اما المقال المذكور فبلا مقدّمة وليس فيه ما يُستدل منه على اي الجرائد نشرته ، غير أن فحواه هام . قيل في المقال :

« ان رسوم جبران تشمل الكثير من رؤوس الشخصيات البارزة . انّ القيم التكنيكية للرؤوس قيمٌ ممتازة مدهشة وقد حصل عليها الرسام بخط قلمٍ ليس إلاّ . فكانت احدى الوسائل التي اتبعها هي التشدد باظهار الخطوط السوداء على اساس من الخطوط الخفيفة مما انتج اشعاعاً نورانياً وتموجاً لونياً يُسبغان على اللحم شعوراً خفـّاقاً من الحياتية . وتجمع الطريقة كذلك بين اثر الفحم الغني وبين عذوبة الطبع الفضي العابرة . وفي المعرض كذلك رسوم عديدة لروث سانت دنيس Ruth St. Denis وهي ترقص ، وقد عُملت رسومها بسرعة على طريقة رودين والغاية منها اقتناص روح حركة معينة في انطلاقتها الحيّة . وفي المعرض دراسات عارية فيها الكثير من قوة تعبير اللحم والشكل والايماءة وتقود هذه الدراسات الخُطى الى الرسوم الزيتية التي يقارب عددها الأربعة والعشرين والتي تكفي بالرغم من قلّة عددها لنَقلنا الى عالم خيال الفنان .

« وعالمٌ خياله هذا هو عالمٌ من الخلق الأصيل الذي يكشف لنا عن نفسه . هو عالم يتكوّن من سماء وجبال ذات نبتٍ قليل . هو عالم يشعر فيه المرء بالوحدة والوحشة المقفرة اللتين توحيان ابداً ، حتى في الفسحة

التصويرية الضيقة ، بالاتساع غير المحدود . ولا يحوج المرء إلاّ تعوّدٌ قليل
على هذه الأشياء التي يراها لكي يُدرك أنّ عالماً للروح يتمثّل فيها .

« إنّ طابع هذا العالم طابع بدائيّ فكأنما قوىً هائلة ما تزال بدائية
تتحرّك في رحم اللانهاية استعداداً لنضال الولادة . هو رمز لعالم الروح
كما يلوح لنفس بشريّة نبّهها سرّ الوحدانية الشعرية القائمة بين الحياة
والموت فشعرت بذاتها فاستوحشت من شعورها .

« هو عالم لا تضليل فيه ولا خداع ولا سفسطات ولا مواربات ولا
محاولات تملّص . هو عالم الغرائز الأولية ، عارٍ مأهول بالعراء ، كما كان
في البدء عندما « كانا الرجل والمرأة ، عاريين ، ولم يكونا يستحيان » .

« إن القوّة التي تنام في سكان هذا العالم الى حين ثم تعود فتحرّكهم
هي غريزة الجنس في اشد مظاهرها سذاجة بل في اطهر ندائها وانقاه .
وقلّما يعني نداؤها هذا تنبّهاً جنسياً ، بل هو الشعور اللاوعي بِقُربى
اللحم ، بل بنداء اللحم للحم ، نداء المرأة ونداء الرجل ونداء الطفل ...

« ومع ذلك فهو عالم من العراء يملؤه الصراع ... اذ يجد فيه اللحم
نفسه ضحيّة رغبات غريبة تشدّه قبضةُ عواطف ذات عُنف محيّر .
وعدا ذلك فهو عالم تتخلّله حيرةُ الموت وتتسلل فيه ساعية بطيئة فيستلقي
جَسد الأم بارداً ممتقعاً على الأرض التي سينحلّ عمّا قريب فيها ، ويصرخ
لحم الطفل المتورّد بالحياة عبثاً طالباً الدفء والغذاء لقيطاً صغيراً وسط
وحدةٍ لا حياة فيها .

« وفي الصورة الأخيرة المسماة « ولادة فاجعة » وصل الفنان الى ابدع
لحظات خلقه في معرض يمتاز كلّه ببداعة غايته وجمال أحاسيسه . ورغماً
عن الأسماء المعطاة للرسومات فإن هذا المعرض خالٍ من تفاهة التصوير
الرمزي . انه يروق للخيال الذي يتحسس محاسن التركيب واللون ويدرك
معنى القيَم الحسيّة ولذلك نرى ان هذه المحاسن كلها تغزو وعي المرء

الروحي عن طريق الغرائز والعقل معاً .

« إنه لشيء رائع أن نرى كيف ان الفنان الذي يتأثر بتأثيرات
العصر ، فيعود الى العناصر الأولية والبدائية يستوحيها ، يستطيع ، اذا ما
كان ذا مقدرةٍ خيالية عالية ، أن يوجّه هاتيك العناصر الى مجارٍ كبيرة
الأهمية عميقتها . »

انا لا أعرف شيئاً قيل عن اعمال جبران الفنان اعمق وأصفى من هذا
القول . فلقد عرف الكاتب مدى حلم الفنان وأدرك قيمة ما أنجز فكأنما
هو عَبَر بكليّته ، الى حين ، في عالم جبران بالذات ... اني متأكدة
ان هذا التقدير الكريم العادل ارضى كل الرضا الرسّام الشاب الحسّاس
الذي كان يعرض رسومه للمرة الأولى في عاصمة العالم الغربي . وكم اتمنّى
ان اعرف اسم من كتب ذلك المقال !

وبعد ثلاث سنوات أقيم معرض ثانٍ وكان ان اقيم في هذه المرة في
قاعة كنودلر Knoedler ، بيد ان المعرض لم يكن معرض مستجدّ بل كان
معرض امرىءٍ ثبتت مكانته لدى جمهور هو جمهور صغير اذا ما قيس
بمدينة نيويورك وما حولها . وقد اثار معرضه الثاني اهتماماً بالغاً وهذا
الاهتمام البالغ الكبير هو الذي كان السبب في نشر « عشرون صورة »
السابق الذكر .

ان هذا الكتاب بمقدمته التي كتبتها أليس رفائيل Alice Rafael هو
كتاب الرسوم الوحيد الذي ظهر للوجود حتى الآن من دون متنٍ . إننا
نقرأ في مقدمته :

« إن قيم الشرق والغرب تمتزج فيه بسهولة تعبيرية فريدة فبالرغم من
أنه رمزي فهو لم يتقيّد بتعابير تقليدية كما كان عليه ان يفعل كواحد

يخلق على نمط الشرق . وهو وإن كان يروي القصة كما فعل كل من سبق رفائيل فان روايته لها لا تتبجّح بالظروف التاريخية ولا بتوابعها الرمزيات . وليس في فنّه نزاع بين الفكرة والعاطفـــة على ايّ منهما ستسود لأن الاثنتين قد ثبتتا بالتساوي فلا تشعر اي الاثنتين هي السائدة . في هذا التزاوج بين مَيلين متضادين يسمو فن جبران عن المنازعات المدرسية ويجل عن إدراك التقاليد الكلاسيكية او الرومانتيقية المحدودة . »

لقد اظهر كتاب « عشرون رسماً » لعالم الفن القوة التصويرية الحقـة التي بهذا الرجل كما أنه كشف لبسطاء الناس الذين يرون ان الفن شيء لا يدركونه شيئاً من اللون والشكل والسحر يُمتّعهم دون ان يُجبروا على فهمه وادراكه .

وكم من حادث جرى فأثبت جاذبية هاتيك الرسوم مما يستهوي الناس البسطاء . واني لأذكر عصرَ يومٍ فيما كان المعرض قائماً بمحترف جبران في السنـة التي تلت وفاته اذ جاءت المرأة الأجنبيـة النّصَف التي نظّفت المحترف ايام حزم المتروكات لابسة احسن ما لديها من ثياب ودخلت « للتفرج على المعرض ... » على حدّ قولها .

كانت رطانتها الانكليزية مقلقة غريبـة غير أن قلبها كان توّاقاً يملؤه الحنان فاستقبلتُها استقبالي لغيرها من الناس ، فدارت في الغرفة وئيـدة الخُطى واقفة هنا متأمّلة ، وواقفة هناك مستطلعـــة مستمتعة المرّة تلو المرّة ... فلمّا اتمّت دورتها جاءتني تقول « هل لي ان ادور مرة اخرى؟» فأجبتها « حتماً ... دوري قدر ما تحبّين » فقالت « احقّاً ذلك ؟ إذن ادور مرّتين . أليس كذلك ؟ »

ودارت ...

وقد استغرق دورانها ثلاثة ارباع الساعة ثم جاءتني بعد الدورة الثالثة وأخذت يدي تهزّها قائلة « اريد ان اشكرك . اريد ان اقول لك شيئاً ...

غير أنـّي لا أعرف كل ما يقولون ... ولكني اظن ان هذه ليست مجرّد رسوم » .

إنّ هذه ليست مجرّد رسوم ...

لا . وهي ، المرأة ، لم تكن لتعرف الكلمات المناسبة ، فما دَرَت إن كانت الرسوم كلاسيكية او رومانتيقية ، قديمة او حديثة ،.. بيد ان النور الذي في عينيها كان الدليل على انهـا كانت تعرف ... وقد ابان انّ ها هنا شيئاً لا تبلغ اليه ، شيئاً يفوق مداها ولكنه اخذ عليها نفسها فهو شيء يتحدّث اليها ويحرّك اعماقها ... إن هذه الرسوم لم تكن قلماً لامَسَ ورقة او ريشة عانقت لوحة فحسب بل كانت اكثر من رسوم... انها لم تكن « مجرّد رسوم » .

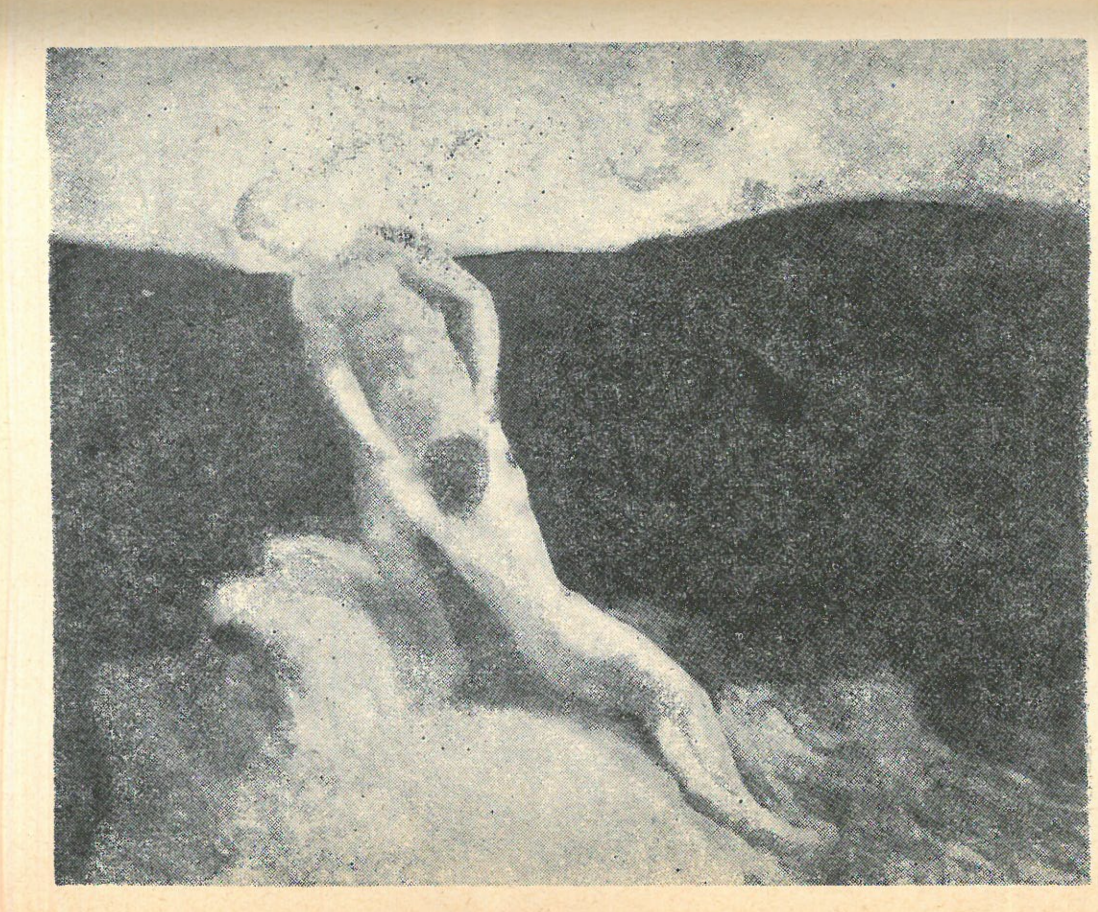
وإنـّي لواثقة أن هذا الشعور الذي عبّرت عنه تلك المرأة الساذجة يُسرّ جبران اكثر مما تسره جميع البحوث العميقة والدراسات الوافية عن الرمزية والصوفية وعن الاتجاهات والحقائق والمطابقات وما لفّ لفّها .

ولقد سبق لجبران أن قال « إن العمل الفني ضبابة تجمع فتنقش صورة » .

وقال ايضاً « انّ الفنّ خطوة من الطبيعة نحو اللانهاية » .

ولقد اتخذ جبران تلك الخطوة بثبات وجمـال . وكم كان ممتناً لاولئك الذين تقبّلوا ثماره التي جناها في سيره ، حكماء كانوا او مجانـين بُلهاء ، فلاسفةً كانوا او رعاة ساذجين ... ولو انه كان ابداً يميـل الى الرعاة والمجانين .





الجُهد العظيم

هل هو صوت الشعب العربي

•

في اوائل سنة ١٩١٩ وهي السنة التي طُبع فيها كتاب « عشرون رسماً » نشر جوزيف جولومب Joseph Golomb مقالاً طويـلا بباب الكتب في الايفننـج بوست النيويوركيـة New York Evening Post وقد استشهد في ذلك المقال بجبران كثيراً . ويلوح لي ان المقـال كان نتيجة مقابلةٍ جدّ ناجحة تمّت بين جولومب وجبران . ومن الثابت ان المراسل الصحفي وجد الشاعر في حالةٍ من التبسّط فرسمه وهو في ابدع حالاته كمحدّث فأعطى القاريء صورة بهيجة عنه .

ويقارن جولومب بين جبران وطاغور Tagore فيقول :

« لقد كتبا بالانـكليزية باتقان رائع كاتقانهما للغتيهما . وعـدا أنهما شاعران فهما فنانان ايضاً ... غير انّ وجه الشبه بينهما ينتهي عند هذا الحد ثم تبدأ التناقضات تـُطلّ برأسها وأهمها في مظهريهما الجسمانيين ، فطاغور بثيابه الفضفاضة وشعره الطويل وذقنه الجميل صوفي متزهد كأولئك الذين يظهرون في تصاوير سير فـردريك ليتون Sir Frederic Leighton اما جبران فرجل غربي كأحسن ما يكون الغربيون إتقاناً للهندام فكأنه من برودواي او ساحة كوبلي Copley Square او السترائد The Strand او شارع الاوبرا .

هل هو صوت الشعب العربي

•

في اوائل سنة ١٩١٩ وهي السنة التي طُبع فيها كتاب « عشرون رسماً » نشر جوزيف جولومب Joseph Golomb مقالاً طويــلا بباب الكتب في الايفننــج بوست النيويوركيــة New York Evening Post وقد استشهد في ذلك المقال بجبران كثيراً . ويلوح لي ان المقــال كان نتيجة مقابلةٍ جدّ ناجحة تمّت بين جولومب وجبران . ومن الثابت ان المراسل الصحفي وجد الشاعر في حالةٍ من التبسّط فرسمه وهو في ابدع حالاته كمحدّث فأعطى القاريء صورة بهيجة عنه .

ويقارن جولومب بين جبران وطاغور Tagore فيقول :

« لقد كتبا بالانـكليزية باتقان رائع كاتقانهما للغتيهما . وعــدا أنهما شاعران فهما فنانان ايضاً ... غير انّ وجه الشبه بينهما ينتهي عند هذا الحد ثم تبدأ التناقضات تـُطلّ برأسها وأهمها في مظهريهما الجسمانيين ، فطاغور بثيابه الفضفاضة وشعره الطويل وذقنه الجميل صوفي متزهد كأولئك الذين يظهرون في تصاوير سير فــردريك ليتون Sir Frederic Leighton اما جبران فرجل غربي كأحسن ما يكون الغربيون إتقاناً للهندام فكأنه من برودواي او ساحة كوبلي Copley Square او السترإند The Strand او شارع الاوبرا .

«أنظرُ الى حاجبيه وشاربيه الاسودين وشعره القليل التجعّد يعلو جبهته الجميلة، وعينيه العسليتين الصافيتين المفكرتين بغير سهوم، ثم أنظر الى ثيابه التي خيطت بأناقة ولباقة، فيلوح لي ان شيئاً من التكييف الحرباوي السهل يحوط به، بل لقد لاح وهو في محترفه في الشارع الغربي العاشر كأنما هو من سكان حي جرينتش، ومع ذلك فلو رأيته في مؤتمر اقتصاديين لظننته اقتصادياً كبيراً ولو ابصرته في قهوة فينيسية لحسبته فينيسياً اصيلاً ولو لاقيته في موطنه لبنان لوجدته اللبناني الصميم. ولا يعني هذا أنه تنقصه الشخصية المستقلة، بل على العكس، ولكنه ذو عقل خارق وإحساس يتخطى الحواجز والفوارق يمكنانه من فهم كل بيئةٍ يُلقى به اليها فهماً تاماً فلا يشعر فيها كالغريب».

وبعد أن يبحث جولومب في انتاج جبران بحثاً مطولاً يقول:

«ورغماً من ان جبران يعتبر نفسه مواطناً عالمياً فهو يشعر انه عربي وليس في ذلك تناقض عنده. وهو يعمل من اجل خلق عالمٍ تسوده أخوّة واحدة عظيمة، هي اخوّة التفاهم والتآلف والتعاطف» ثم يروي جولومب كلمات جبران عن هذه الاخوة فيقول:

«ولكن في عملية الصهر الاخويّ الكبرى هذه يكون من واجب كل شعب أن يتقدّم بطابعه الوطني لا أن يتخلى عنه. وقد قدّم الشعب العربي للعالم كثيراً وسيقدم الكثير أيضاً. وعندما يعرف الغرب ادب العرب سيجده أدباً من أغنى آداب الأرض. والقرآن هو القطعة الرائعة فيه. ولقد كان للعرب فيما قبل الإسلام، في عصر الجاهلية كما يُسمَّى، شعر رائع مثير فيه رجولية وفيه خيال راسخ هائل اصيل مما كان له اثره في العالم الغربي. وخذ على سبيل المثال سفر ايّوب فهو كتاب عربيّ ترجمه العبرانيون الى لغتهم وادّعوه لأنفسهم.

«وقد استلزمت تلك الثروة الهائلة من الشعر استنباط الكثير من

الأوزان المعقّدة لضبطه. وعليك ان تتذكّر أن الشعر عند العرب لم يكن يومئذٍ، وليس هو اليوم، وقفاً على المثقّفين القلائل ولكنه مُلك الجماهير الغفيرة المثمّن.

«ولقد بدأ الشعر بالغناء والارتجال والمذاكرة وسرد اقاصيص عرب الجاهلية، إذ كانت الآداب المكتوبة يومئذ قليلة ا معدومة. وعلى هذا النمط ما زال ينتشر الكثير من آدابنا القومية بين الجماهير لأن الذاكرة عندنا قوية. فالطرائف البدهية وجواهر الكَلِم التي كان يولّدها الارتجال كان يحفظها السامعون ويحملونها الى بلادهم لتتناقلها الأجيال. بيد ان الاختبار اثبت للشعوب ان الذاكرة يجب ان يسندها الشكل فتشكّلت الجُمَل وصارت ذات قياس ثابت. ثم صارت تقصر وتتّزن فاذا بالسجع يتولّد في الأدب العربي وهو الاسلوب الذي استعمله النبي محمد (صلعم) في القرآن. وبعد السجع غزا الوزنُ الجملة فتولدت بحور الشعر وتطوّرت اشكالاً. وقد تبنّى العالم الغربي بعضها. فالقصيدة القصيرة «السونيت» Sonnet مثلاً نقلها الايطاليون عن العرب.

«وفي القرن الذي تلا موت محمد (صلعم) اسس العرب اعظم دولة في التاريخ امتدت من مكان يبعد ستين ميلاً عن باريس الى قلب الصين فنمت معها الآداب والعلوم. وما كان عند غير العرب يومئذٍ جامعات. وقد عرفوا ان الارض مستديرة قبل غاليليو Galileo بزمن. وقامت في قباب مساجدهم المراقب والمراصد ... حتى اذا هزم الاسبان العرب استبدلوا المراصد والمراقب بأجراس.

«وفي القرن الثامن والتاسع والعاشر عندما كانت اوروبا بأجمعها في أحلك عصورها كانت للعرب مدارس تُعنى بترجمة الفلسفة الإغريقية ولقد كان جُلّ أولئك التراجمة سوريين فكانوا الحلقة بين الثقافة الإغريقية وعصر النهضة الأدبية العربية. وفي القرن الخامس عشر حطّم الأتراك الدولة

العربية فانكسفت شمس ثقافتها وظلّت مظلمة الى ما قبل ثمانين او مائة عاماً . ولكن روح الشعب الخصبة ظلت حيّة وقد نفحها الشعر عندما انطلق من عقاله قوة محركة مثيرة .

« أما في الفنون التصورية لدى المسلمين فقد جرى تقدّم جدّ قليل وذلك لأنه « حُرّم عليكم ان تعملوا مثالاً على صورة الله » ولذا لا نجد عندهم التصوير والنحت . غير ان اشكال الطبيعة ظهرت منسجمة أتمّ انسجام في حياكة السجاد وما شابهها من فنون فجرى فيها تقدّم رائع وقل ذلك عن الموسيقى ايضاً فقد اعطى العرب للعالم الغربي الدليل تلو الدليل على طول باعهم الموسيقي والغنائي . فالعرب يستسيغون ويستمتعون بأغاني جنوبي روسيا لأنها ترجع في اصولها إلى الغناء العربي وقد شعر تشايكوفسكي Tchaikovsky وفيردي Verdi بأثر ذلك الغناء وبمفعول هاتيك الموسيقى فتأثرا بها . وعايدة Aida تتألف من الحان عربية مطلينة . وقد قال لي ديبوسي Debussy انه اخذ الحاناً عربية وبنى عليها بعضاً من قطعه والحانه .

« ان في نهضة الثقافة العربية التي بدت خلال القرن الماضي اثراً قوياً للمؤثرات الغربية . ونحن مطّلعون على ابدع ما لديكم ، ما في ذلك شك . ففي سوريا ومصر نعرف دانتي Dante وشكسبير وهوغو Hugo والشعراء الفرنسيين من فيلون Villon الى ماتيرلنك Maeterlink وإذا ما جرى إحصاء عن شكسبير فظهر منه اننا نقرأه بقدر ما تقرأونه او اكثر فلن يكون ذلك مدعاةً لعجبي قط . ان الرجل المتوسط الثقافة في سوريا ولبنان يعرف الانكليزية أو الفرنسية كمعرفته لغته . وأنا اعرف أشخاصاً في جبل لبنان ممن لا يقرأون الآداب الاجنبية فحسب بل يحفظونها ويتغنّون بها . وإياك ان تنسى ان الآداب عندنا سماعية .

« وقد ظل العرب حتى الحرب العظمى تحت نير أفظع المستبدين في

التاريخ . امّا الآن وقد زال نير الأتراك عن كاهل امّتي فان املنا بحق تقرير مصيرنا لَقويّ . غير اننا سنطلب المشورة من دول الحلفاء وستأخذ احداها ، ولعلّها فرنسا ، بيدنا . فان تم ذلك وتم تبادل الثقافات بين الأمم فان لدى امّتنا الكثير الذي تقدمه .

« فلدينا من الشعر الرومانتيقي الذي يمجّد البطولة الكثير مما لا يزال دفيناً . وفي آدابنا « ليال عربية » ما تزال غير مترجمة هي ابدع من « الليالي » التي تعرفون . ولدينا كنز ثمين من الفلسفة الصوفية لم تمسّه بعد يدٌ غربية . فعندما تضاف هذه الثروة الطائلة الى الثقافة العالمية سيعرف العالم عندئذ انها تقدمة شعبنا العظيم ... »

ويتساءل جولومب في ختام مقاله تساؤله النفّاذ فيقول :

« لقد وُلد جبران على بُعد ميل واحدٍ من أرز لبنان المشهور ، وهو يطلع علينا الآن بجنسيته العالمية . فهل هذا الذي يطلع علينا هو جبران خليل جبران الفَرد أم هو صوت الشعب العربي وعبقريته ؟ » .

ومهما يكن الجواب فان الحق الذي لا شبهة فيه هو ان ذلك الشعب الرائع لم يخلق طوال نهضته الحديثة رجلاً احتل مكانة عالمية مرموقة او سيطر على جمهور كبير مثل « هذا الرجل من لبنان » .

ألا َ اني مدينة لجوزيف جولومب لأنه حافظ في ملفات جريدته على هذا الريبورتاج الصحفي البهيج الطافح بالمعلومات القيمة عن اجتماعه بجبران ... « هذا الرجل من لبنان » .



كلمات لا يحدّها الزمن

●

ذهبت عصر يوم احدٍ في خريف ١٩٢٥ إلى محترف جبران لأقضي معه ساعة أو ساعتين . وكان ذهابي بدعوة منه . وهنا لا أجد بدّاً من ان اقول ان جبران لم يكن ، طوال عهد صداقتنا ، يرى ان قبولي لدعوته أمرٌ مفروغ منه فقد كان يحدثني تلفونياً فيقول « هل تحبّين ، إن كنت طليقة ، ان تصرفي وقتاً قليلاً مع رجلٍ متعب ؟ » وكم كنت اجده متعب النفس حقّاً ..

دعاني ذلك اليوم فلبّيب فوجدت باب محترفه مفتوحاً على عادته ، فطرقت ودخلت فرأيته جالساً إلى طاولته يكتب فلم انبس ببنت شفة بل أخذت مقعدي المعتاد وجلست منتظرة .

وبعد قليل حيّاني ثم قال « اني انظم قصيدة عن شاعر اعمى . »

ثم نهض وسار يذرع الغرفة جيئة وذهاباً . فكان يسير بضع دقائق ثم يجلس ليكتب سطراً او سطرين ثم يعود الى سيره ليعود بعد قليل الى كتابته . وكنت خلال ذلك أجلس منتظرة . ثم خطر لي خاطر ... اذ عندما عاد الى سيره نهضت من مقعدي وجلست إلى طاولته وأخذت قلمه بيدي فلما أدار نفسه رآني جالسة مكانه فقلت « انت تنظم وأنا اكتب لك . » فقال « لا . لا . انكِ لن تكتبي لي ... بل عليك ان تكتبي أشعارك » فقلت « ولكني احب ان أكتب كلماتك وأن أخبرَ بساطة سيرك

جيئة وذهاباً وتحدثك بالقصيدة ... فأنت تتحدّث وأنا اسجل وما هذه إلاّ ملهاة لي ولك . »

فقال « اني لا أستطيع ان أعمل مع شخص آخر على هذا النحو . »
فقلت بما يشبه الاصرار « أوهم نفسك انني لست أحداً بل آلة صغيرة . »

فقال وفي صوته ما يكاد يشبه الغضب « انتِ امرأة جدّ عنيدة . »
فأجبت « ليس ذلك بيدي فلقد كنت كثيرة العناد منذ صغري ! »

ثم تنفس بعمقٍ كأنما هو يريد أن يصبّ عليّ جام غضبه ... ثم ضحك على حين غرّة فضحكت وانتهى الأمر فعاد يسير ويملي عليّ الابيات وأنا أكتب ما يملي . واستمرّ العمل على ذلك المنوال منذ ذلك اليوم .

ولقد اكمل جبران قصيدة « الشاعر الأعمى » ببطءٍ كثير اذ كان يقف وقفات طويلة بين السطر والسطر ناظماً بالعربية ، مترجماً الى الانكليزية بدقّةٍ متناهية .

وأخيراً اقترب مني ونظر الى الصفحة التي أمامي وقال « لقد كنت دائماً أقول انني لا أستطيع العمل مع انسان آخر في نظم قصائدي ، ولذا قرّرت ألّا تكون لي كاتبة خاصة ... فلعلّي كنت مخطئاً ... ولكن مهما يكن الأمر فأنت وأنا شاعران يعملان معاً » ثم توقّف عن الحديث وبعد صمتٍ قليلٍ قال « نحن صديقان ... فأنا لا أبغي شيئاً منكِ وأنتِ لا تبغين مني شيئاً . إننا نتقاسم الحياة . »

فتذكّرت « النبي » القائل « لا تجعلوا للصداقة غاية غير أن تعمّق الروح » .

تلك هي صداقة جبران !!

وها هي ذي القصيدة التي نَظمها فكتَبتها في ذلك اليوم ...

الشاعر الأعمى

لقد أعماني النور
والشمس التي اعطتك نهاركَ هي ذاتها
أعطتني ليلي
أعمق من الحُلُم .

أما أنا فعابر سبيل
بينما تجلس انت حيث ولدتكَ الحياة
إلى أن يأتي الموت ليلدك مرّة أُخرى .

أنا ابحث عن الطريق
بنايي وعكّازي
وأسير أنا في الظلمة
حتى عندما ترهب أنت النور .
بينما تجلس انت تلهو بسُبحتك .

وأغنّي ....

إني لا أقدر أن أضلّ سبيلي .
حتى عندما لا تكون هناك شمس
يُبصر الربُّ سبيلي فيأمَن .
وإذا ما تعثّرت قدماي
فستكون أغنيتي مجنّحةً فوق الريح .

لقد أعماني التحديق
في الأعماق والمرتفعات ...
ومَن لا يسلـّم عينيه
لرؤية المرتفعات والأعماق ؟
مَن ذا الذي لا يُطفىء شمعتين خافقتين
مِن أجل أن يلمح الفجر ؟

أنتم تقولون « يا لـَه ... إنه لا يقدر أن يرى النجوم
لا ولا الشقيق في الحقول ! »
وأنا أقول « يا لهم ... انهم لا يقدرون أن يصلوا الى النجوم
لا ولا أن يسمعوا الشقيق
يا لهم ... ليست لهم آذان في آذانهم
يا لهم ... يا لهم ... ليست لهم شفاه
في أناملهم . »

وسرعان ما نـُشرت القصيدة في عدد من أعداد « الشرق الجديد » وهي مجلة ثقافية كان يصدرها يومئذٍ سيّد حسين وهو كاتب مسلم لامع ومحاضر ذو شهرة عالمية وقد نـُشر مع القصيدة رسم دعاه جبران « الشاعر الأعمى وأمّه » .

وقد بدا لي أن الاستمرار في كتابة الكلمات التي تخرج من بين شفتي الشاعر أمر طبيعي كثير السهولة وعلى الأخص في أثناء المحادثة العادية ، ولو أن كل حديث مع جبران خليل جبران كان يفيض بكل ما هو غير عاديّ ! ولذا احتفظت بدفتر قريب المنال وكنت اسطـّر فيـه بين فترة

وأخرى جملة أو جملتين فيراني ، اذ كثيراً ما قال لي « هل تكتبين كل ما أقوله ليكون حُجَّةً عليَّ » .

ثم صمّمت أن أكتب عن هذا الرجل الذي لم يكن قد كـُتب عنه بالانكليزية سوى القليل وقد تمنّيت آنئذٍ ان اعطى الحكمة والدراية يوماً لأتمّم ما عزمت عليه .

وقد حدّثته عن عزمي فسُرّ كالطفل إذ سمع خبراً سارّاً . ومنـذ ذلك الحين بدأ يحدثني عن طفولته وعن امّه وعن اشياء اخرى كان يتمنى ان يتذكـّرها الناس عنه « فيما لو تذكـّروني على الاطلاق » . وكثيراً ما كان يقدّم هاتيك الأحاديث قائلاً « فيما لو توفـّيت الليلة تذكـّري هذا . » أما هاتيك الأحاديث فهي التي تجدها مكتوبة في هذا الكتاب .

ولقد خطر لي آنئذٍ كذلك ان اجمع في كتاب أقواله وكلماته المختارة مما كان يتحدث به في المحترف خلال اجتماعاتنا ومما كنت أجده مخطوطاً على قصاصاتٍ مبعثرةٍ في كل مكان ، فهزأ جبران بالفكرة عندما عرضتها عليه وقال « انها ستكون رملاً وزبداً » وقد كان في قوله هـذا عنوان الكتاب ... « رمل وزبد » وصار جبران يبدي اهتماماً به فكان يُعطيني بخجلٍ قطعة من مساق مسرح او قصاصة كرتون مقتطعة من علبة تبغ أو ظرفاً ممزقاً ، وقد خط عليها شيئاً ويقول « ها هي ذي أنت تجمعين بجنون رملاً وزبداً » ولكنه كان يستمتع بهذا كل الاستمتاع فصار يكتب جُملاً وأقوالاً يُقارَن بعضها بأقوى ما كتب وأجمل ما قال .

قال لي يوماً « أرجو أن تكتبي هذه الجمـلة واذكري أنها ستكون آخر كلمة في الكتاب « يجب أن احرّر بأعمالي كل فكرٍ سجنته في تعبير » .

وكتب الكلمة الأولى :

« إني أبداً أسير على هذه الشواطىء »

لقد أعماني التحديق
في الأعماق والمرتفعات ...
ومَن لا يسلـّم عينيه
لرؤية المرتفعات والأعماق ؟
مَن ذا الذي لا يُطفىء شمعتين خافقتين
مِن أجل أن يلمح الفجر ؟

أنتم تقولون « يا لـَه ... إنه لا يقدر أن يرى النجوم
لا ولا الشقيق في الحقول ! »
وأنا أقول « يا لهم ... انهم لا يقدرون أن يصلوا الى النجوم
لا ولا أن يسمعوا الشقيق
يا لهم ... ليست لهم آذان في آذانهم
يا لهم ... يا لهم ... ليست لهم شفاه
في أناملهم . »

وسرعان ما نـُشرت القصيدة في عدد من أعداد « الشرق الجديد » وهي مجلة ثقافية كان يصدرها يومئذٍ سيـّد حسين وهو كاتب مسلم لامع ومحاضر ذو شهرة عالمية وقد نـُشر مع القصيدة رسم دعاه جبران « الشاعر الأعمى وأمـّه » .

وقد بدا لي أن الاستمرار في كتابة الكلمات التي تخرج من بين شفتي الشاعر أمر طبيعي كثير السهولة وعلى الأخص في أثناء المحادثة العادية ، ولو أن كل حديث مع جبران خليل جبران كان يفيض بكل ما هو غير عاديّ ! ولذا احتفظت بدفتر قريب المنال وكنت اسطـّر فيـه بين فترة

وأخرى جملة أو جملتين فيراني ، اذ كثيراً ما قال لي « هل تكتبين كل ما أقوله ليكون حُجـّةً عليّ » .

ثم صمـّمت أن أكتب عن هذا الرجل الذي لم يكن قد كـُتب عنه بالانكليزية سوى القليل وقد تمنـّيت آنئذٍ ان اعطى الحكمة والدراية يوماً لأتمـّم ما عزمت عليه .

وقد حدّثته عن عزمي فسُرّ كالطفل إذ سمع خبراً سارّاً . ومنـذ ذلك الحين بدأ يحدثني عن طفولته وعن امـّه وعن اشياء اخرى كان يتمنى ان يتذكـّرها الناس عنه « فيما لو تذكـّروني على الاطلاق » . وكثيراً ما كان يقدّم هاتيك الأحاديث قائلاً « فيما لو توفـّيت الليلة تذكـّري هذا . » أما هاتيك الأحاديث فهي التي تجدها مكتوبة في هذا الكتاب .

ولقد خطر لي آنئذٍ كذلك ان اجمع في كتاب أقواله وكلماته المختارة مما كان يتحدث به في المحترف خلال اجتماعاتنا ومما كنت أجده مخطوطاً على قصاصاتٍ مبعثرةٍ في كل مكان ، فهزأ جبران بالفكرة عندما عرضتها عليه وقال « انها ستكون رملاً وزبداً » وقد كان في قوله هـذا عنوان الكتاب ... « رمل وزبد » وصار جبران يبدي اهتماماً به فكان يُعطيني بخجلٍ قطعة من مساق مسرح او قصاصة كرتون مقتطعة من علبة تبـغ أو ظرفاً ممزقاً ، وقد خط عليها شيئاً ويقول « ها هي ذي أنت تجمعين يجنون رملاً وزبداً » ولكنه كان يستمتع بهذا كل الاستمتاع فصار يكتب جُملاً وأقوالاً يُقارَن بعضها بأقوى ما كتب وأجمل ما قال .

قال لي يوماً « أرجو أن تكتبي هذه الجمـلة واذكري أنها ستكون آخر كلمة في الكتاب « يجب أن احرّر بأعمـالي كل فكرٍ سجنتـه في تعبير » .

وكتب الكلمة الأولى :

« إني أبداً أسير على هذه الشواطىء »

« بين الرمل والزبد »
« وسيمحو المدّ آثار قدميّ »
« وستذهب الريحُ بالزبد »
« غير أن البحر والشاطىء سيظلّان للأبد » .

ومرّت الأيام فجمعت عدداً لا يُستهان به من هذه الأقوال وطبعتها على الآلة الكاتبة وأخذتها للمحترف فتناولها جبران وجلس يقلّب الصفحات ومرّت فترة ما نبس احدٌ منا خلالها ببنت شفة . ثم نظر الى فوق وعلت وجهَهُ نظرةُ تعجّب وقال « هل عملتُ كل هذا حقاً ؟ ام انك مددت لي العون فيه ؟ » .

فأجبت « ما لي فيه كلمة واحدة وأنت تعرف ذلك ... كل سطر في هذه الصفحات هو لك . وهي لا تقدر ان تكون لأحدٍ غيرك . »

ثم أُعطي « رمل وزبد » للناشر فنُشر سنة ١٩٢٢ .

ولست أرى أن في اللغة الانكليزية كتاباً مثله . ويتفق الكثيرون معي في هذا الرأي إذ سمعتهم يجاهرون به ... فهو عندنا كتاب ليس ذا ثلاثة حدود فحسب بل له حدّ آخر ... أما الحدود الثلاثة فهي العمق والارتفاع والاتساع وأمـا حدّه الآخر فهو الزمنيـة وأعني بذلك الزمن الذي لا يُحدّ .

ففي الكتاب جُملٌ قصيرة تعبّر عن حكمة الأجيال وأنا أستعمل هذا التعبير – حكمة الأجيال – بمعناه وليس ككلمة عابرة تقال . ويعبّر الكتاب كذلك عن الحق الذي لا يتبرّأ منه مذهب ولا يتنصّل منه معتقد .

وهاك بعضاً من هاتيك الأقوال : –

« إن كان قلبُك بركاناً فكيف ترجو أن تـُزهر الأزهار في يديك ؟ »

★★

« إن الذي يستطيع أن يضع اصبعه على ما يفصل الخير عن الشر هو ذاك الذي يستطيع ان يمسّ هُدبَ ثوب الله . »

★★

« يقولون إن العندليب يمزّق صدره بشوكةٍ عندما يغنـّي أغنيةَ حُبّه . وهكذا نفعل كلنا ... إذ كيف نستطيع ان نغني على نسقٍ آخر ؟ »

★★

« بالرغم من ان موجة الكلمات تغمرنا ابداً فإن أعماقنا أبداً صامتة . »

★★

« إن الإيمان واحة في القلب ولن يمكن الوصول اليها بقافلة التفكير . »

★★

« إن الكرم ليس في إعطائي ما أنا بحاجةٍ إليه اكثر منك ولكن في إعطائي ما أنت بحاجةٍ اليه اكثر مني . »

★★

انه لَبؤسٌ حقاً ان أمدّ يداً فارغةً للناس فلا أتسلّم شيئاً ولكنه اليأس أن امدّ يداً ملأى فلا أجد مَن يأخذ . »

★★

وقد سألني سيد حسين آنئذٍ ان اكتب نقداً للكتاب ففعلت ولست أستطيع أن أقول في الكتاب أحسن وأجمل مما قلت يومئذٍ وهذا بعضه :

« إن الكلمات لا يحدّها الزمن فما عليك إلا أن تتلفظ بها أو تكتبها دون أن تعرف انها لا يحدّها الزمن ».

« ولو كان باستطاعة سطرٍ واحدٍ أن يصف شيئاً ما وصفاً تامّاً لوصف هذا السطر كيف يفهمُ هذا الشاعر اللبناني الغايةَ من الكلام ووصف إدراكَه للقوة التي تكمُن فيه .

« لقد كُتب على غلاف الكتاب « ان المؤلف فيلسوف يجلس إلى نافذته معلّقاً على ما يجري أمامه » وهذا تعبيرٌ جميل مقلوب إذ ان المؤلف قال « اني اسير مع جميع أولئك الذين يسيرون ولن أقف لأراقب الموكب الذي يمرّ بي » .

« وما سُجّل في هذه الجمل القصيرة والأمثال العابرة إن هو إلا سجلُّ انسان وضعَ يده على نبض الحياة فأكل خبزَها وشرب خمرها وليس هو سجلٌّ مَن جلَس وراقب وعلّق !!

« ولقد أعطى جبران خليل جبران ، وهو الذي برع بالعربية ، الجمهور الانكليزي الفطن شيئاً في كتابه هذا يختلف كل الاختلاف عن كل كتاب « اقوال » في اللغة . فلقد أعاد ما فعله في « النبي » فألبس لنا ما رأى من « الأشياء التي بين الحياة والموت » ثياباً مختلفة عن تلك الثياب .

« ويعالج جبران الحكَم القديمة التي تبحث في حقائق الوجود معالجة جدّ بسيطة فكأنها تعبّر عن اعتقاده القائل بأنه « لا يمكن للناس ان يفهموا بعضهم بعضاً إلا إذا أُنقصت اللغة فصارت سبع كلمات »

وكم يحلو للمرء ان يتأمّل مليّاً في هذا القول عندما يُلقي نظرة على الرسوم السبعة التي في الكتاب ... ألا إن ريشة جبران لَصولجانه الثاني ...

« المرء اثنان : واحدٌ يقظان في الظلمة والآخر نائم في النور ...» إن

طبيعة المثّال التي تمثّلت في هذه الحركة السريعة لَتتمثل كذلك في كل صفحة من صفحات هذا الكتاب الصغير فتُعطي قراءتها المرء شعورَ السائر في بهوٍ متّسع عالٍ نُقش الحق المجرّد على جدرانه بنقوش مرمرية .

ان « رمل وزبد » كتاب ينفذ الى الوعي نفاذاً عميقاً لا مفرّ منه فهو و « النبي » من هذا القبيل سيّان . »

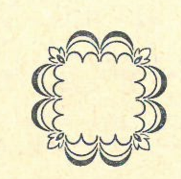
لقد أشرت فيما سبق الى حديث « الكلمات السبع » واني لأذكر جيداً ما حدث في المحترف ذات مساء عندما قيلت « كلمات جبران السبعة » فقد كنا نستريح بعد فترة عملٍ طويلة وإذ بالشاعر يبادرني بالسؤال قائلاً « افرضي انك أجبرت على نسيان الكلمات التي تعرفين فيما عدا سبعة ، فما هي تلك السبعة التي تبقين ؟ » فترددت قليلاً قبل أن اجيب ثم وقع اختياري على هذه الكلمات « الله ، الحياة ، الحب ، الجمال ، الأرض » وتوقفت لأنني لم أستطع أن أجد الكلمتين الأُخريين . وكان ان قلت له « قل لي ما هي كلماتك أنت ؟ »

فقال « لقد نسيتِ اهمّ كلمتين ... هما اللتان لولاهما لظلّت تلك ضعيفةً واهنة » فأدهشني ذلك ... غير أنه استمرّ قائلاً « إن أهمّ كلمتين هما « **انت وأنا** » اذ بدونهما لا حاجة للأخريات . علينا أن نكون ... وعلينا أن نأخذ » ثم تكلّم بهدوء بما يكاد يكون همساً « هذه هي كلماتي السبعة : انت ، انا ، خذ ، الله ، الحب ، الجمال ، الارض . »

وطال بنا المجلس ، وطال صمتنا حتى أني لا أستطيع أن أذكر صمتاً أطول منه ، او يدانيه باختلاجه وإثارته . كنت اقلّب الكلمات في عقلي المرّة تلو المرّة فوجدتها تحوي كل شيء ... الحياة ، والموت الذي هو جزء من الحياة والخلود الذي هو الله ... وبقينا صامتَين حتى إذا ما عاد النُّطق إلى شفاهنا وئيداً اخذنا الكلمات وصِغنا منها شعراً صغيراً تصرّفنا فيه

ما شئنا بضمير المتكلم غير مضيفـَين كلمة إلى الكلمات السبـع . وهـذه هي القصيدة : —

« خذني يا حُبّ
« خذني يا جمال
« ويا أرض خذيني
« أنا آخذك
« يا حُبّ ، يا أرض ، يا جمال . . .
« أنا آخذ
« الله . . . »



استمرار الحياة

●

إني أعرف صبياً له من العمر سبع سنوات يُثيره ادراكه ان حياته تسير ضمن دائرة معلومة « مثل النجوم والكواكب » ويعجب لذلك كل العجب . وكم سمعته يقول إن عليه ان يتّبع الفـَلـَك المعدّ لحياته لكي تصبح حياته ذلك الشيء اللامع الذي قُدّر لها ان تكونه . وكذلك سمعته يقول « ان الأرضَ لا تقدر ان تـَضَلّ عن فلكها . اما انا فأستطيع ولكن عليّ ألاّ أفعل ذلك . »

وقد ساءلت نفسي الف مرة ومرة : « لِمَ ؟ وكيف قُدّرَ في مشيئـة العوالم ان تتفق طريقي مع « هاتيك » الطريق لأمَدٍ ما في هذا الدور من الحياة ؟؟ »

في إحدى الامسيات عندما كنا نهيء كتاب « رمل وزبد » كدّست الوسائد على الأرض وجلست فوقها تاركة مقعدي المعتاد ، فشعرت اذ فعلت ذلك شعوراً غريباً بأن ما فعلت هو ليس مما لم آلف وقلت لجبران « اني أشعر كأنني جلست على هذا النحو بجانبك مراراً عديدة . . . مع اني ما فعلت ذلك قط » .

فانتظر هنيهة كعادته قبل ان يجيب مما كان يحملني على ان اتساءل في

نفسي فيما اذا كان يفكر بجوابه بالعربي ... ثم قال « بلى ... لقد فعلنا هذا منذ الف عام وسنفعله بعد الف سنة أُخرى ... »

وفي أثناء كتابة « يسوع ابن الانسان » كان تشخيصه لبعض الحوادث التي يرويها مُثيراً حتى انني كنت احس بها تجري امامي مما حملني على ان اقول « ما اقربها للواقع !! يلوح لي انني كنت هناك » فاذا بجوابه يدوي في اذنيّ « لقد كنتِ هناك ... وأنا كنت ايضاً » .

وعلى هذا الشكل عبَّر جبران ، المرة تلو المرة ، عن اعتقاده بما اسماه « استمرار الحياة » ويسمّيه غيره التقمُّص ... بيد انه ما استعمل الكلمة قط لأنه كان عميق الاعتقاد بان الحياة التي هي روح الانسان عاشت منذ البدء وستظل تعيش الى الازل ، وان روابط المحبة والاخلاص والصداقة ستجمع كل الذين يولدون بصداقة وإخلاص ومحبة ... كما وان الحقد والبغضاء والعشرة السوء تـُلملم الجماعات ذات الجوهر الواحد وتجمعها من دورٍ الى دور . وكان يرى أن للامبالاة فعل المؤثـّر المفرّق ... إذ تبقى النفوس التي لا تحب ولا تبغض ابداً منزوية في صدفتها ولا تلتقي سوى مرة واحدة على مدى الاجيال ...

تلك كانت معتقداته وذلك كان ايمانه ... ثابت مثل الليل ، وكالنهار لا يتغيّر ...

غير انه ما عبّر عنه بتعابير المذهبيين ولا تفوّه بكلماتهم ولا انتسب لطائفة ولا تقيّد بمذهب .

وكثيراً ما سُئلت « لكن ألم يكن جبران مسيحياً حقـّاً ؟ » فكنت ابداً أُجيب « انه كان اعظم المسيحيين جميعاً غير انه ما كان مسيحياً منتسباً لطائفة معيّنة . وان كان لا بدّ لنا من ايجاد كلمةٍ نصفه بها — وما كان هو بحاجة اليها — فباستطاعتنا ان ندعوه صوفياً مسيحياً لأنه كان صوفياً صحيحاً .

وعندما سأله احدهم مرة « ما هو الصوفي ؟ » ابتسم وأجاب « هو امرؤ لا سر فيه ولا روعة ... إن هو إلاّ واحد ازاح عن نفسه حجاباً آخر ... »

وفيما نحن نتحدث عن يسوع ذات مرة قال « ثلاث مرات رأيت سيّدنا وأخانا وحدثته » .

ومَن نحن حتى نشك في قوله ؟ أوَ لم يقل يسوع لتلاميذه « هذه الأشياء ستفعلونها وأشياء أخرى اعظم منها لأنني اذهب الى أبي . »

وقد حدّثني مرة واحدة خلال السنوات السبع عن ثلاثة اختبارات صوفيّة وكان مُتعباً ينوء بثقل حمله البشري فقال « أرى لِزاماً عليّ في هذه الدورة من حَيَواتي ان اتحدث بهذا لبشريّ ولكنك لن تتحدثي عنه حتى بعد مماتي » .

فجلست بصمت مثل صمت الصخور واستمعت فأدركت ... لأني انا أيضاً أعرف الرؤى الصوفية وافهم فعلَ قِواها ... لقد ادركت ان ما قاله هو الحق الأزليّ ... واني لن أقول غير ذلك !!

وفي ذات يومٍ بينما كنت اتحدث عن جبران لجمهور كبير في احدى مدن الساحل الاميركي الغربي قوطعت ، بأدبٍ ، عند نقطة في حديثي ، بالسؤال التالي « هل جبران مسيحي ؟ » فأجبت السائل كما كنت اجيب أمثاله من السائلين قائلة « ان عنيتَ هل هو عضو في الكنيسة المسيحية فجوابي لا ... وليس هو عضو في أية كنيسة أخرى . وان كنت عنيتَ هل هو يقبل تعاليم ايّ مما يُسمى بالطوائف المسيحية ويقرّها على مبادئها فجوابي ايضاً لا ... ولا هو يقبل تعاليم أي مذهب آخر ... وإن الحفت عليه بالسؤال بشأن اعجوبة الحَبَل بلا دنس يُجبك قائلاً « أليس كل حبل اعجوبة ؟ » ومع ذلك فان جبران يعتبر يسوع اوعى بشريّ زار الأرض ويعدّه اكثر المخاليق اطلاعاً وهو ، في رأيه ، قوة لا تُقاس

وحكمة لا حدّ لها . وانه كان شاعراً عظيماً قويّ الشخصية نادر المثال مُدركاً مواهب البشر ومسؤولياتهم إدراكاً كاملاً . ويؤمن جبران بأن يسوع عاش حياته البشرية عيشةً كاملة فلم يدع كأسَ حبورٍ بشريٍّ دون أن يُفرغها ولم يترك غاية من الألم لم يخبُرها بكلّيته الأزلية دون أن يكون في حياته كلّها خيالٌ مما يشوب أو ظلٌّ لما يُعيب . »

ولم يكن جوابي هذا ليرضي المتمسّكين بالناموس ولكنه كان يرضي جبران !

لقد وُلد جبران من أبوين مارونيين وتلقّى تعاليمه الدينية في المذهب الماروني . وكثيراً ما حدثني قصصاً عذبــة عن الاب يوسف الذي كان يتجول بين القرى متمماً واجباته الدينية ومعزياً الناس بنصائحه . وكم راقب الصبي جبران الأب يوسف عندما كان يزور بشرّي وتبعه في تجواله سائراً بجانبه واضعاً يده الصغيرة بيده الكبيرة القوية سائلاً إياه اسئلة الصبيان ، حتى اذا ما خلا الى نفسه تأمل في الأجوبة التي تلقّى .

وكان مما قاله جبران « كان الأب يوسف قريباً جداً من الله وقد تعلّمت منه معرفة الله والملائكة . وكثيراً ما كنت انظر اليه باستغراب متعجباً. واني لأذكر مرة إذ سألته هل أنت أنت ؟ أم ترى انت الله فلقد كان يبدو لي انه طيّب وكامل . ولذا أحببته بعاطفة ما تزال تهزّني كلما فكرت فيه . وقد احببت فيه قربه من الله وكنت عن طريقه احسّ بمحبة الله. إنه ما حدثني عن الأشياء التي تعلّمتها في الكنيسة الصغيرة بل عمّا في العالم العلوي ، عن أشياء ما كنت استطيع ان أراها أو أسمعها ولكني كنت احس بها في قلبي . وكم تاق قلبي ليذهب الى فوق ويجد هــاتيك الأشياء بدلاً من أن يظل هنا حيث كان يشعر بوحدةٍ غريبة وألم عميق هو ليس من الطفولة بشيء » .

حتى جبران الصبي ما كان ليُذعن .. لأنه لم يولَد في أواخر القرن

التاسع عشر ليُذعن ... بل أُرسل من لدُن الله العليّ مبشراً ليُصلح ادراك البشر لحقيقة الحياة والوجود . لقد أُرسل لمن له أذنان للسمــع وليرشد الأرواح المغامرة فتشق طريقها بين النجوم والآماد فتعرف لمَ خلَقَ الربُّ البشر وتفهم مرامه الذي لا يُحدّ في خَلقهم .

واذ كان جبران يسير بجانب الاب يوسف وجد نفسه خارج الايمان الذي وُلد فيه ولم يجد « ديناً » آخر يعتنقه أو ينتظم فيه .

أما تعبّده العاطفي ليسوع فقد ظهر منذ سنيه الباكرة فقال عنــه « انــه كان أطيب الطيّبين وأحكم الحكماء الذين مشوا على الأرض ... يسوع ، سيّدنا وأخونا ، يسوع ابن الانسان . »

ولنقلها بصراحةٍ مثلما كان جبران صريحاً . لقد كان يسوعه يسوع ابن الانسان وهو ذلك السمو الذي اليه انتهى بعد استمرار حَيَواتٍ طويل، بل هو ذلك السمو الذي فيه تجمّعت ، كحصاد خالدٍ ، جميعُ الحكمة والفضيلة والقوة التي تتيسّر لبشري ليعبّر بها عن الله الآب ...

ولقد عرف جبران انه كان يحيا على الأرض عندما كان يسوع في الأرض المقدسة ، واعتقد ان يسوع زار لبنان حقاً فقال « انا أعرف اني رأيته هناك . »

كان حديث يسوع يشغل أعماق قلبه ويملأ حنايا كيانه ، غير انه لم يكن ليتكلم كثيراً عنه . أما عندما كان يفعل فقد كان يُصبح كمن مسّته اصبع النار الخالدة . وما كان باستطاعتي ان اشك بما يقول أكثر من شكّي بوجودي . وها انذا أتذكر المحترف القائم في اعلى البناية القديمة وقد صار كجبل اخضر في بلاد بعيدة . بلادٍ ما كنت وقتئذٍ قد رأيتها . ومــا كنت لأتساءل في لحظات نادرة مفعمة بالحياة مثل هذه لِمَ أنا مع هذا الشاعر في مثل هذا الوقت ؟؟ كنت أعرف اننــا عشنا معاً وتنقّلنا في هذه المغاني منذ الف بل منذ الفي سنة !!

إن رؤية جبران خلال التمخّض الرائع العديد الذي اعطى كتـــاب « يسوع ابن الانسان » للوجود كانت بمثابة الإدراك ان « هذا الرجل من لبنان » كان من نسيجٍ سماوي ، بل من جبلةٍ فيها من الألوهية أكثر مما في جبلتنا .

كما ان رؤيته متجلـّياً هي قبولٌ لصحة دعوته ورسالته كواحدٍ من مختاري الآلهة المحبوبين !!

صديقنـــا وأخونا

•

كان جبران ينتوي كتابة « يسوع » منذ امدٍ طويل . فقد قال « سيأتي اليوم الذي سنكتب فيه عن صديقنا وأخينا . وقد يكون ذلك خلال خمس سنوات او عشر . »

ثم جاءت اللحظة المرتقبة ... جاءت دون سابق انذار في مساء الثاني عشر من نوفمبر سنة ١٩٢٦ ، تلك اللحظة التي ستحيا في ذاكرتي ما دامت الذاكرة قوّة حيّة ! كان جبران يذرع الغرفـة قلقاً ويتكلم بتردّد عن كتاب « حديقـــة النبي » الذي كان له المقام الأول في فكره فتوقف فجأة وغمرت وجهه نظرةٌ سوداء غريبة . وكأنما استحال وجهه استحالة عجيبة فاكتسى ذلك القناع الذي صرت اعرف من خبرتي أنه يُنبيء بنـُطق سريع مثير .

وعمّت المحترف اهتزازات شعورية متعالية كالنذير الذي يسبق العاصفة، ففتحتُ الدفتر البنـّي الصغير الملقى بجانبي مترقـّبة .

فإذا بجبران يحني رأسه واذا بوجهه ينقبض هَرَماً ، فاكمدّت الومضة المشعّة فيه واستحال جماله نظرةً حادّة شمطاء تثير الاشفاق ... واهتز رأسه اهتزاز رأس مُسنّ مغموم ... ثم اقترب صوت – هو ليس صوت جبران – ولكنه صوت متهدّج هزيل محطـّم ... فسرى ألمه ويأسه في قلبي كالخنجر، وبدأ الصوتُ الحديث قائلاً « كان ذلك منذ خمسين عاماً وفي مثل هذه

الليلة ... إن الذكرى كالعقرب الملتفّ حول قلبي ... انهـا مثل كأس أمرّ من العلقم ... لقد سوّدت جميع ايامي ودنّست فجرها ! ولقد عادني ذلك المساء الف مرة ومرة » ثم سكت الصوت ... ثم سار جبران في الغرفة مردداً الكلمات ثانية فكتبتها ، ومع ذلك ظل يرددها !

فجلست كالمسمرة واستمر الصوت المفجع الغريب بنواحه المؤلم الرهيب ، فغص قلبي ألماً لذلك الانسي الذي لم اكن أعرفه مع أن نزاعه لم يكن غريباً عني !!

ثم عاد جبران الى نفسه ، عاد في لمحةٍ لا تزيد عن اللمحة التي غيّرته منذ قليل فجعلت منـه ذلك الغريب المتألم المفجوع ، واتجه نحو مقعده وجلس صامتاً مُغلق العينين . وبعد قليل نظر إليّ نظرة طبيعية كاملة وقال « هل تعرفين مَن كنت ؟ »

قلت « لا . »

فأجاب بصوتٍ متأمل فيه آماد وأبعاد « كنت يهوذا !! مسكـــين يهوذا ... افرضي انه لم يُنهِ حياته بيده فعاش خمسين او مائة سنة ، فماذا كان يقدّر لتلك الحياة أن تكون ؟ »

ثم وقف منتصباً قوياً وعلت وجهـــه نظرات ملاكٍ معذّب يغمره الألم ... ثم أضاء وجهــه إضاءة تكاد تخطف البصر وصرخ قائلاً « اني أستطيع أن أبدأ « ذلك » الكتاب الليلة . »

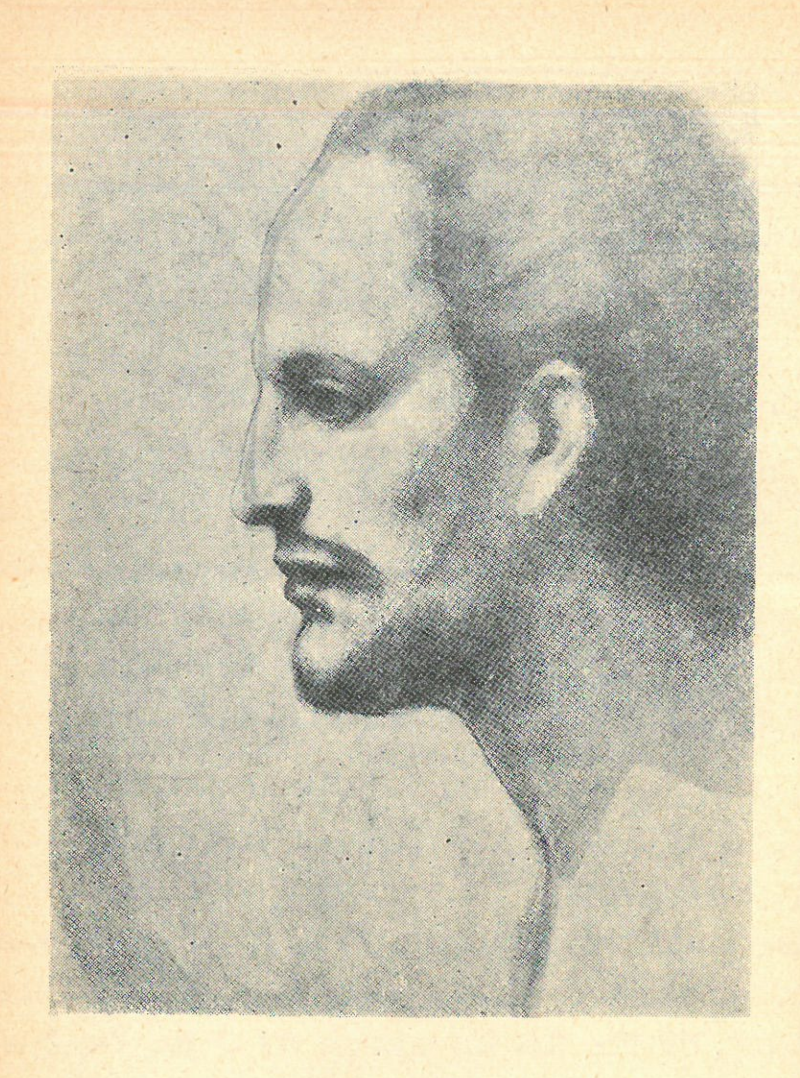
وفي تلك الليلة بدأ جبران كتاب « يسوع ابن الانسان » ذلك الذي كان يشغل فكره وقلبه منذ سنوات . غير أن الفصل الأول الذي املاه فكتبته ليلتئذٍ لم يكن قصة يهوذا بل حديث يعقوب بن زبدي ... كان جبران يسير جيئةً وذهاباً متكلماً بهـدوء ، ليس بصوته المعتاد ولا على طريقته المعهودة ، بل وازناً الكلمات الانكليزية وزناً وهو يتفوّه بهـــا . فألّف الفصل الأول في الكتاب ، غير أن عمله لم يكن تأليفاً ... انـــه

كان إحياءً لما يقول ، فكان يروي القصة كأنما هو يعقوب بن زبدي الذي يروي كلمات سيّده :

« هل تظنون انني جئت لأحكم بيت نَملٍ يوماً واحداً ؟ إن عرشي لأبعد مما تبصرون .. ايبحث مَن تحوط الأرضَ اجنحتـُه عن ملجأ له في عشٍّ منسيٍّ مهجور ؟ كثيرة هي الحشرات التي تزحف حول قدميّ ، غير اني لا أحاربها .. وسيأخذ كاهنكم وامبراطوركم دمي . وسيكون في ذلك رضاهما قبل ان أذهب من هنا . اني لن اغيّر الشريعة والكتاب ... لا ولن ارعى الحماقة . دعوا الجهالة تلد جهالةً حتى تضنيها خليقتها . ان مملكتي ليست من الأرض ... إن مملكتي ستكون حيث يجتمع لذكراي اثنان او ثلاثة بعزمٍ ومحبة معجَبين بجمال الحياة . »

اني اقرأ الفصل بكامله فيلوح لي ، انا التي سمعته يُتلى ، انه ممـــا لا يُصدّق أن يخرج مثل هذا النطق من أعماق قلب انسان فتصبّه شفتاه بقوّة وانسجام ودقـّة تركيب مثل هذه القوة والانسجام والتركيب . ولكن ها هو ذا هو ... وعلى ذلك الشكل قد تمّ ... ولما كتب جبران قصة يهوذا لم يُعطه شخصية الرجل الذي عاش في أزلية السنين المرعبة المخيفة بل أعطاه شخصية الذي رمى بنفسه من فوق الصخر العالي فمات محطماً.

لقد قلت ان ليلة الثاني عشر من نوفمبر كانت ليلة لن تـُنسى ... فقد كانت بدء عمل استمرّ ثمانيـة عشر شهراً ، سجّل في أثنائها قلمي كلمات جبران ورأت عيناي (وما تزالان تريان) وجهه ، ذلك الوجه الذي كان مثل ميدان معركة تتغيّر ملامحه بسرعة البرق وخفـّته ، فلقد كان يلمع في محيّاه إشعاع يكره المرء على ان يعرض عن النظر اليـــه وكانت نفسه الكبيرة تتعرّى فتتغيّر هيئته فلا تعود تراها العيون البشرية . لقد بُعث



يسوع ابن الانسان

احدى لوحات جبران الخالدات

كل واحدٍ من الشخصيات السبعين حيّاً في ذلك المكان فتكلم بشفتي « هذا الرجل من لبنان » . وكم كان الإعياء في نهاية كل حديث كاملاً مخيفاً . وفي مرات قليلة رأيت حوله ، وهو يسير ، نوراً دقيقاً ضئيلاً ولكنه ظاهر بوضوح . وحدث في ذات مرة أن توقف جبران عن السير ليُملي جملة بصوت منخفض بطيء فنظرت اليه مترقبة فاذا بالنور يُتوّجه بشكل ظاهر باهرِ البياض فلم أتمالك نفسي فأشرت للنور رغم انفي قائلة «جبران! النور » فجفل جبران ثم أدار وجهه وعاود سيره . واختفى النور ...

وظلّ حالنا كذلك الى ان انتهى الكتاب وأعددته على الآلة الكاتبة للنشر فاذا بنا وكأننا قد خرجنا من نضالٍ فظيع جبّارٍ مجروحين في القلب ... ومهما يكن الأمر فان الذكرى رائعة !! اما جراح التأليف وندوبها فهي كنزٌ عظيم يفيض من نبع اختبار غنيّ لا مثيل له .

ولست اريد أن يفوتني أن أذكر أن الرسوم التي ظهرت في الكتاب قد رسمها جبران وهو يؤلفه .

وأحبّ أن أخصّ بالحديث رسم رأس يسوع الذي ظهر على الغلاف .

اني أبصرت بداية الحَبَل بابن الانسان . كان ذلك في ذات مساء إذ أخذ جبران لوحة تكفي لرسم رأس طبيعي ووضعها على المنصّةِ مبهوراً كأنما هو يعالج شيئاً حيّاً فلا يكاد يتنفس ... فنظرت اليه وكأن في عيني سؤالاً إذ كان يندر أن يسأل احد جبران شيئاً وهو منصرف الى عمله ، وما كان يخطر في بال احد ان يقول له « ماذا انت عازم ان تفعل ؟ » فرفع أمام عينيّ قرمةَ قلمٍ لا تبلغ البوصتين طولاً وأشار الى اللوحة ... ثم وضع اصبعه على شفتيه مشيراً بالصمت وبدأ يرسم على اللوحة ، وبخفّة لا تُصدّق بل في اقل من لحظة رسم الخط الواضح المحدد الجميل لطلعة ذلك الوجه الجانبيّة . لقد بدأت الصورة تُولد !!

وظلّت اللوحة على المنصة اياماً عديدة فكان الفنان ، بين حين وحين يقف أمامها فيلامسها بقلمه او يمسحها بقطعة ماحية سوداء صغيرة او يمرّ

عليها بابهامه ... ثم يسير متحدثاً بالقصة التي كانت تُبعث حيّة ...

وكان يستمر العمل والسير ثم التوقف والسير ثانية ، ساعات تمتدّ الى أعماق الليل حتى اذا ما نظر الى فوق نحو قُمريَّته قال متعجباً « انظري... ان النافذة بيضاء منوّرة » فأنظر فاذا هي حقاً كذلك لأن الفجر قد بدأ يلوح بينما استمر العمل الليل كله !!

وكان أحياناً يقول لي « أما تزالين هنا ؟ وهل كنتُ أروي لك قصصاً طول هذا الوقت ؟ سامحيني .. فلعلّك تعبة حتى الموت . »

وقد كنت حقاً تعبة ، غير اني كنت ابداً ابتدع جواباً اعطيه اياه بسرعة ، كأن أقول مثلاً « لا ... لست تعبة على الاطلاق ... ولكن انتَ ... » فيجيب « انا ... ميت منذ زمن » وتلوح في وجهه ابتسامة كليلة ولكنها وهّاجة فتتبدّل النظرة المكدودة التي كانت تغمره ... ثم يهبط بثيابه على السرير الواسع ، فيكاد يغفو من قبل أن يستقر رأسه على الوسادة ، فأسحب عليه حراماً كبيراً ناعماً ليقيه البردَ وهو نائم .

ولم يكن جبران ليسمع غَلق الباب الهادىء عندما كنت اخرج مع الفجر من محترفه مترنّحة ... سائرة في وسط السكون النابض في شوارع نيويورك الخاوية الخالية ، الى حيث تنتظرني الراحة والرفاهية في مأواي الصغير في فندق برفورت القديم الحنون ، فأستأثر وحدي بتلك اللحظة المتعة مع الفجر ، ونور السماء فوق مانهاتن والضباب يلف قنطرة واشنطون بردائه ؛ وكأنما كانت المتعة نعمة عبادة ... فلذا ما كنت لأهتم كم تطول بي ساعات العمل مع جبران .

... ثم تمّ الرأس ، رأس يسوع ! وتمت الكتابة ... وقد حدث يومئذٍ حادث مثير متصل بنشر الكتاب ولكنه انتهى بأن جعل «يسوع» الذي رسمه جبران معروفاً لدى المئات بل الآلاف من شباب العالم

وفتياته !

لقد خيّب الرأس ظن الذين يديرون القسم الفنيّ في دار النشر المتولّية نشر الكتاب ، اذ كانت قمة الرأس وقفاه «غير كاملتين» وبكلام آخر لم يكن الرأس ليُرى بأكمله على اللوحة . فأعيد الرسم للمحترف ...

قال جبران وفي صوته رنين غريب لا يكاد يبان « يقولون إننا لم نُعطِ يسوعنا لوحةً تكفيه » .

لقد أُصيب جبران في صميم إحساسه الفني للجمال والتناسب . ولم يكن هناك من سبيل لتغيير الصورة حتى لو أراد هو ذلك ، ولذا بدأ يرسم رأساً ثانياً ، هو الذي ظهر في الكتاب فأعطى جبران « يسوعنا لوحة كبيرة تكفيه » قال هذا وفي صوته تهكّم ، وفي يده الراسمة توتّر ... وقد اشتغل جبران فأكمل الرسم إرضاءً لنقّاد الفن .

اما يسوع الأول فقد ظلّ جبران ابداً يدعوه « يسوعنا » لقد كانت تنقص يسوع الثاني هاتيك اللمسة النارية والخَلق المستعر اللذان وَلَدا الأول ... إنه ليس حيّاً ، بل نسخة تنقصها رشاقة الخلق .

أما انا فكنت حانقة بمرارة وأردت أن احارب رأي النقاد ، غير ان جبران أبى ذلك عندما فاتحته به ، وافترّت شفتاه عن ابتسامة ذات معانٍ واشتعلت عيناه بنارٍ ... ثم قال يسألني « هل تقبلينه ؟ وهل يهمّك إن ضاقت اللوحة به ؟» .

وكان على هذا النحو ان وقع في يديّ ، شاكرة ، أعظمُ كنز في مجموعة جبران الفنية . وبعد ذلك بزمنٍ طويل اخذت الصورة معي عبر البحار وعرضتها على المئات في لندن وفي قرى انكليزية اخرى منها بدفورد على ديفون Bedford on Devon الجميلة ، موطن عائلتي الأصلي . فكان التعليق عليها واحداً في كل مكان « لا بدّ انه كان هكذا . »

ولما وصلت باريس وعرف الناس أن الصورة الشهيرة فيها حاصر

الراغبون في مشاهدتها شقّتي في شارع ميكيل انجلو حصاراً شديداً .

وقد لاحظت خلال سفراتي المتعددة الى المدن الاميركية المختلفة أن للصورة في نفوس مَن شاهدوها الأثر ذاته . وقد حدث مرة ان احضرَ قسٌ كنيسة كبرى في كليفلند ولديه « ليريا الوجه » حتى اذا ما تفرّس أحدهما ، ولما يتجاوز الثامنة من عمره ، في الصورة صامتاً التفت الى ابيه وقال « ابتي ... ابتي ... هكذا كان يسوع يبدو . فلمَ لم يرسمه الآخرون على حقيقته من قبل ؟»

وسمعت فتىً مرحاً يفيض حباً للحياة يقول عندما رأى الصورة « انا لست متديناً ولا اريد ان اكون كذلك ، غير اني اتبع يسوعاً مثل هذا الى أقصى أطراف الأرض .»

ثم أهديتُ صورة « يسوع ابن الانسان » الى البيت العالمي في ريفر سيد درايف International House on River Drive في مدينة نيويورك حيث يمر كل سنة آلاف الشباب المشبوبو الشوق المتعددو الجنسيات فتتيسّر لهم رؤيتها هناك ... بل ان عيوناً كثيرة جاءت من أقاصي الأرض ، تبصر الصورة كل يومٍ فتفهمها وتتمثّل ما ترى في ذلك الوجه فلا تُنسيها الأيام ما رأت وفهمت .

ولقد راجعت كتاب « يسوع ابن الانسان» خلال الايام الماضية فعاودتني تلك الدهشة الأولى التي غمرتني عندما كنت استمع اليه وهو يُتلى ... وها انذا اسمع الكلمات تتردد بصوتٍ عالٍ ... بل ها انذا اسمع صوت الشاعر يقول كعادته بعد كل نُطق قوي رائع « يا إلـهي . اني لم اكن اعلم انني سأقول هذا .»

واني ادرك الآن أن الكتاب لن يكون لي كتاباً فحسب بل هو ابداً جمعٌ من الكائنات الحيّة ... وليس السبب في ذلك جبران خليل جبران ، صديقي الحبيب ، بل حيويّة حنّة ام مريم ، ومتّى ، والعظة على

الجبل ، وحيويّة يوسف الرامي وهو يروي كلمات يسوع وحيويّة سَوسن الناصرية تسرد قصتها عن مريم امه ، وحيويّة مريم المجدلية وزيبوره امّ يهوذا !!

هؤلاء هم الذين يسرحون على صفحات الكتاب ويمرحون وليس الرجل العظيم الذي أحبّهم فخلقهم . لقد ابدع جبران في عمله الابداع كله فأتمّ العمل بقوّةٍ مفردة ، هي قوة شخصٍ أدرك الوضع الاجتماعي والسياسي والديني في فلسطين وسوريا وروما ذلك الزمان إدراكاً يندر مثيله ... بل لقد أتمّ ذلك العمل امرؤ ليست تقاليد بلاد يسوع ولا تاريخها ولا لغتها بالغريبة عنه . فقد كانت الآرامية وهي اللغة التي تكلمها يسوع ، لغة جبران الثانية ... أما جوّ اليهودية ومشاهدها فقد ابدع جبران في تصويرها . ولما كان جبران اول مواطن ليسوع يكتب عنه منذ ان كُتبت الأناجيل فقد يسّر للقارىء أن يتنقّل ، كأنما بسحر ساحر ، في احداث هاتيك البلاد ايامئذٍ فيدرك ما تخفي الكلمات المكتوبة ويشاهد الناصري الشاب حيّاً بشكل لم يتيسّر له من قبل .

ولقد حاول الكثيرون طوال القرون كتابة تلك القصة العظيمة التي مُثّلت حوادثها منذ الفي سنة ، فأعطت العشر حقبٍ الاخيرة للعالم ادباً « يسوعياً » يزيد عن ادب اية عشرِ حقبٍ أُخرى منذ وفاته ... وما يزال الناس يكتبون القصة ويروون حوادثها ...

ولكنهم لا يكتبون مثل هذا الرجل ... فلقد روت قصتَه ألسنة أولئك الذين عرفوه او عرفوا شيئاً عنه ... هم سبعون بشريّ ، اصدقاؤه وأعداؤه على السواء ، من رومان ويهود ويونان ، وفارسيين وبابليين ... وفيهم الكاهن والشاعر والفرّيسي ... ويروي كلٌّ قصته فترنّ الأصوات في آذاننا متجاوبة . ويصحّ أن ندعوا ما فعله جبران توزيعاً جديداً لما في الأناجيل من أقوال وأعمال ، فكأنما هو كتب الأناجيل من جديد

اذ كثيراً ما سمعت الناس يقولون عن الكتاب « إنجيل جبران » .

وقد كتب ناقد في المانشستر جارديان Manchester Guardian عن الكتاب ما يلي :—

« انه لمتعةٌ عظيمة من مُتَع القارىء المُضنى الضالّ في غابة الكتب الكثيرة التي ظهرت عن الأناجيل ، أن يقع فجأة على كتابٍ عظيم الجمال ذي سموّ خاص به ... أما أنا فقد وجدت مثل هذا الكتاب في « يسوع ابن الانسان » : أقواله وأعماله كما سجّلها اولئك الذين عرفوه : لجبران خليل جبران .

«وليس هذا الكتاب سيرة أُخرى ليسوع تشبه ما كتب رينان Renan وفرار Farrar وساندي Sandy وهيدهام Headham وكثيرون غيرهم . بل هو بناء خياليّ اتّخذ عقلُ شاعر كبير مواده من موادّ الأناجيل ولكن دون ان يتقيد بها .

« لقد رأى جبران خليل جبران يسوع . وهو يُعين الناس على رؤيته . ويقدّم كلُّ صوتٍ قسطَه في التعبير ولا تخرج على ذلك اصوات اعدائه ، اذ انها تُظهر القوى التي دفعت بيسوع الى حتفه ... « كان ساحراً لحمة وسداة » بمثل هذا يهمهم كاهن شاب من كفر ناحوم « انه تلاعب بكلمات انبيائنا وعبث بمقدسات آبائنا » .

« غير ان اصدقاءه كانوا اصدق مترجميه وما ذلك بغريب ... اسمع ما يقول رومانوس الشاعر اليوناني عنه « لقد حسبت نفسي شاعراً ذات مرّة ، فلما وقفت أمامه في « بيت عنيا » عرفت ما معنى أن يحمل المرء آلة ذات وتر واحدٍ امام من يتحكم بالآلات كلها » .

« إن هذا كتاب للذين يستطيعون أن يقرأوا بفهم .»

وفي مراجعة اخرى للكتاب ، كتب جون هاينز هولمز John Haynes Holmes ما يلي :—

« لقد قام جبران خليل جبران بمحاولة جسورة فريدة . وإن كان هناك مَن هو أهل للقيام بهذا العمل الخطير فهو جبران ... فكأنما هو معاصر ليسوع جلس في ساعة متأخرة ليكتب إنجيلاً آخر . ولقد تجاسر الشاعر فعارض العهد الجديد معارضة صريحة كما فعل في مَثَل « الراعي » . اني سمعت جبران مرة يقرأ هذا المثل فحسبته يومئذٍ ، ولا أزال أحسبه ، في مستوى الانجيل . »

لقد شعر جبران وهو يكتب الكتاب انه يعاصر اولئك الذين يروون تذكاراتهم عن الجليلي الشاب ... اما آخر مَن يتكلم عن الرجل الشاب ، عن المعلم الشاعر الذي عُلـّق على صليب خارج أسوار اورشليم فوق تل الجُلجلة فهو رجل من لبنان بعد تسعة عشر قرناً فاذا بكلماته تسيل رقة وأدباً :—

« يا معلـّم ! يا سيّد من انشد !

« يا سيّد الكلمات غير الملفوظة !

« سبع مرات وُلدتُ وسبع مرات تـُوفيت

« منذ زيارتك الخاطفة ولقائنا الوجيز.

« وها انذا اعيش ثانية ...

« متذكـّراً يوماً وليلة فوق التلال

« عندما رَفـَعَنا مدُّك الى فوق .

« منذ ذلك الحين ، قطعتُ بلاداً كثيرة وعبرتُ بحاراً عديدة .

« وحيثما كنت أسير راكباً جواداً او ناشراً شراعاً

« كنت اجد اسمك صلاة ... او سبباً للخُلف

« يباركك الناس او يلعنونك ....

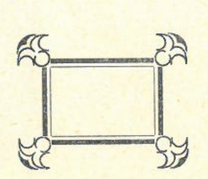
« أما اللعنة فهي النقمة على الخذلان

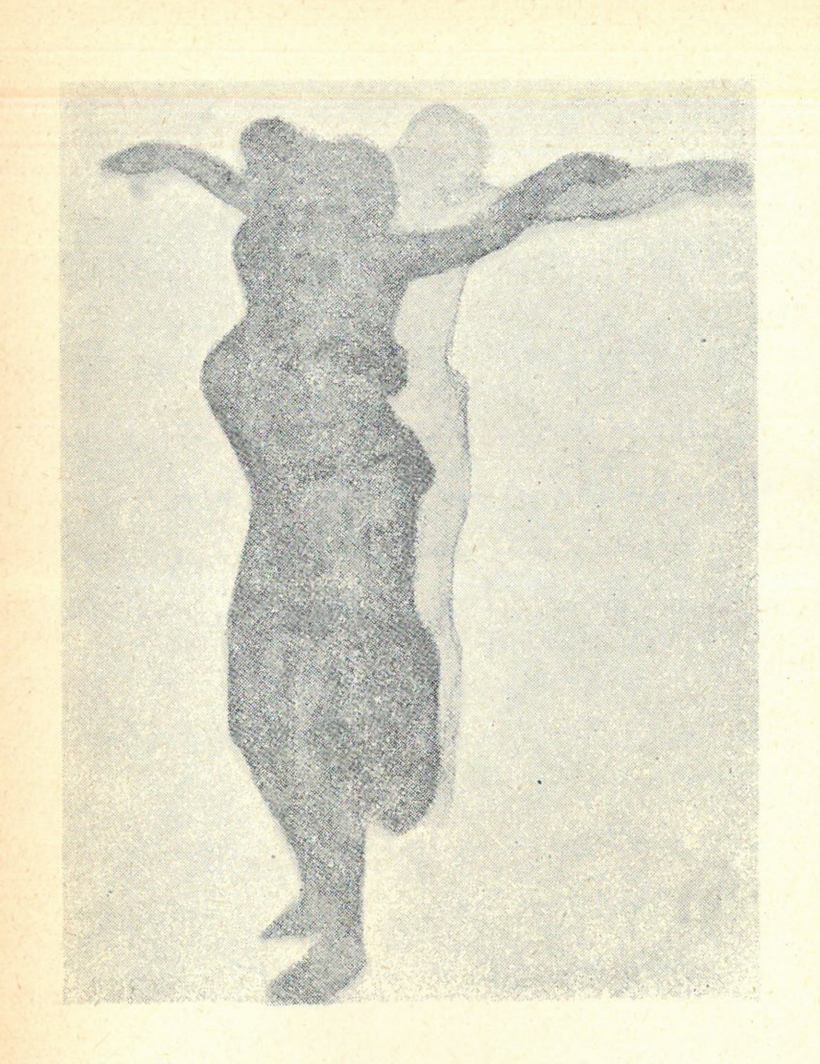
« وأما البركة فترنيمة الصياد

« العائد من التلال

« بزادٍ لإلفه ... »

ولم يكن قوله « متذكراً يوماً وليلةً فوق التلال » شعراً لجبران خليل جبران ... بل كان ذكرى واضحة حيّة كأيّـــة ذكرى لطفولته او لصباه ... لقد كان حقيقة !!





المصلوب

عندما هبط ليل الايون[1] الثاني عشر

●

إن كتاب « آلهة الأرض » هو آخر كتاب نُشر لجبران وهو لا يزال في هذا العالم وقد وُضع بين يديه قبل اطّراحه كلّ ما هو أرضيّ باسبوعين. فأخذ جبران الكتاب الصغير وقلّب صفحاته بتأمّل وقرأ بصوتٍ عال. ثم قرأ بلطف كأنما هو يقرأ لنفسه ... ثم عاد يقرأ بصوتٍ غريب فيه أبعاد ...

« سنعبرُ الى الشفق ...
« عسانا نستيقظ مع فجر عالمٍ آخر
« ولكن الحب سيبقى
« ولن تمحّى آثارُ أنامله .

« ان الصّندل المقدس يشتعل
« والشرر يتطاير مرتفعاً ، وكلُّ شرارة في ذاتها شمس ...

---

(١) لفظ يوناني يستعمل للدلالة على فترة من الزمن غير محدودة . ويكنى به المخلوق الأزلي الأبدي . المترجم

« خيرٌ لنا وأحكم ،
« أن نبحث عن زاوية ظليلة ونضطجع في سنائنا الأرضيّ
« ونقيم الحب ، إنسانيّ النزعات ، ضعيفها ، سيّدَ اليوم الآتي . »

كان جبران يشعر بحنان خاص نحو هذا الكتاب يختلف عما كان يشعر به نحو كُتُبه الأخرى « لأنه كُتب في جحيمي ... وكانت كتابته عملية حَبَل وولادة . » كما قال مرة .

وقد كتب جبران ثلثي الكتاب في نيويورك سنة ١٩١٤ — ١٩١٥ « محاولاً أن أتعلم التعبير عن أفكاري بالانكليزية مباشرة » على حد قوله.

إن قراءة الكتاب تثبت بما لا يقبل الشك ان نجاح هذا اللبناني في التعبير عمّا في نفسه بالانكليزية كان نجاحاً اكيداً مجيداً . واني ارى ان الكتاب من اعظم الأشعار الانكليزية وأروعها .

غير ان جبران كتب ما كتب منه والقاه جانباً مثلما فعل « بالنبي » فأوشك ان ينسى وجوده ... حتى اذا ما أخرجه للنور ، وكان قد مرّ على هجره ما يقرب من عشر سنوات ، التفت اليّ بخجل قائلا : «هاكِ... سنكمله يوماً ما اذا ما ارتأينا انه يستأهل أن يُكمل . » ثم بدأ يقرأ لي منه بصوت عالٍ ، فما كدت استمع اليه حتى تملكتني لجاجة عظيمة لحمله على إكماله فقاوم الى حين قائلا « ألا تعطيني فترة راحة ؟ » ثم ابتسم لأنه كان يعلم ، كما كنت اعلم ، أن الراحة ليست له سوى كلمة تقال . فهو إن لم يشتغل بجنون ليكمل « آلهة الأرض » فسيُشغل نفسه في شيء آخر غيره .

وبدأ جبران يذرع الغرفة ويكمل القصيدة وكأنما هو قد تركها البارحة فاستأنف بكلمات الالـه الثاني :—

« أن نُوجد وننهض لنحترق أمام الشمس المحترقة

« لنحيا ونراقب ليالي الذين يحيون
« كما تراقبنا الجوزاء
« لنجابه الرياح الأربع برأسٍ متوّج مرفوع
« ونشفي امراض الناس بنَفَسنا الذي لا مدّ له .
« إن ناسج الخيم يجلس مظلم النفس عند نوله
« ويدير الخزاف دولابه وهو لا يدري .
« أما نحن العارفين الذين لا ننام
« فقد تحرّرنا من التخمين والاستسلام للقدر
« إننا لا نقف ، ولا نتأنى مفكرين
« اننا فوق كل تساؤلٍ قلقٍ .
« كن قنوعاً ودع الحالمين يذهبون .
« لنصبّ كالأنهار في المحيط
« لا تلوي دَربَنا الصخور
« وعندما نصل الى قلبه وننغمس فيه
« فلن نتنازع ، ولن نعود نفكر بالغد »

والكتاب عمل كبير يصعب وصفه . غير أنه يبدأ هكذا :—

« عندما هبط ليل الإيون الثاني عشر
« وابتلع الصمتُ ، مدّ الليل العالي ، التلالَ
« ظهر على الجبال الثلاثة آلهة ، المولودون في الأرض ، سادة الحياة

« فجرتِ الأنهار حول أقدامهم

« وطغى الضباب على صدورهم

« وارتفعت هاماتهم بتشامخ فوق العالم.

« ثم تكلموا ، وكالرعدِ البعيد

« ماجت اصواتهم ، تغمر السهول . »

ها هم ثلاثة من آلهة الأرض ، واحدٌ تعبٌ من الحكم ، وواحدٌ ما زال طامعاً به وساعياً اليه ، وواحدٌ صغيرٌ توّاق ، اكتشف أن الحُبَّ في الارض وانه يُشتهى اكثر من حكم اي كوكبٍ بكثير ، غير أن الإلهين الأوّلين لا يكترثان لكلمات اخيهما الصغير ، بل ينساقان وراء عواطفهما ولا يصغيان لمنطقٍ غير منطقهما .

إن عظيم وعي هؤلاء الآلهة وكِبَر مناظرتهم وحوارهم هما اللذان يُسبغان على هذا الشعر قيمته القَصصِية . ولقد اوضح الشاعر في هذا الكتاب فهمه الخاص للانسان المثلّث المبدَع رغم انفه ، على صورة الله ومثاله . إن عمله لَعملٌ جسور فيه الكثير من التحدّي . فكل إلـه من آلهة الأرض هو انت وأنا في منتهى درجات شمولنا الواعي ، ومع ذلك فهو الصورة الصادقة لحقيقتنا الغامضة الصامتة .

ويتلخّص ايمان جبران بمستقبل الحياة على الأرض في هاتيك الأسطر التي تلاها على مسمعي بصوتٍ عالٍ عندما اخرج الكتاب من مرقده والتي يقول في نهايتها « ونقيم الحب ، انساني النزعات ضعيفها سيّد اليوم الآتي . »

وكتاب « آلهة الأرض » كتاب صوفي للمتصوّف ، وللشاعر شعر ، وللأديب الساهم الحالم خيالٌ واسع وأحلام . ومع ذلك فقد عرفت اولئك

الذين يفاخرون انهم عمليون ممن لا تزال اقدامهم على الأرض ولا هم يمتّون للصوفية بصلة وسمعتهم يعلنون أن الكتاب غريب عجيب يطفح قوة ويفيض حياةً . وحدث مرة أن قرأتُ لصبيّ لا يتجاوز السابعة من عمره شيئاً من الكتب فاستعادني إياه مثنى وثلاثاً لأن الموسيقى العذبة فتنته والجمال غير الأرضي استهواه ..

فلما انتشر الكتاب لم يبق لدى الشاعر سوى مسودة كاملة لكتابٍ آخر هو كتاب امثال يدعى « التائه » وهو آخر ما أبدع . و « التائه » قليل الصفحات اذا ما قيس بما سبقه مباشرة ، غير أنـه من صميم قلب الشاعر وله جماله الخاص شأن كل ما خرج من قلمه . ولقد قال كلود براجدون Claude Bragdon في هذا الكتاب « إن قوته فاضت من نبع حياةٍ روحية عظيم ولولا ذلك ما كان شاملاً قوياً بهذا المقدار ... غير ان جمال اللغة والفخامة التي سربل هاتيك القوة بها هي خاصة به . »

وفي « التائه » شخصية رئيسية كما في « النبي » . هو انسان لا اسم له يُدعى التائه يعرّفه الشاعر بقوله :

« التقيته على مفترق طريق متـزراً يحمل عصاه ، وعلى وجهه حجاب ألم . حيّيته فحيّاني وقلت له « تعال الى بيتي وكن ضيفي . »

« فجاء ...

« وروى لنا في تلك الليلة قصصاً كثيرة ، وكذلك في اليوم التالي . غير ان ما استجلّه هو وليدُ مرارة أيامه ، وهذه القصص هي من غُبار دَربه وصبره . »

وفي الكتاب خمسون قصة او يزيد من قصص التائه وقد حيكت جميعها من نسيج الفكر الشرقي وتعبيره ، فلم يكُ للغرب فيها أثر . وكأنما استبدّ بالشاعر ، فيما كانت حياته تسير الى نهايتها ، مزاجُ بلاده وجوُّها فشغل فكره وغمر حديثه فأسهب بالحديث عن طفولته وشبابه وأكثر من

ذكر امه والأب يوسف والأب حداد الذي دعاه « الرجل الوحيد الذي علمني شيئاً » .

ونرى الشاعر قد عاد في « التائه » الى سخريته التي قابلتنا في «المجنون» فها هو يأخذ سوطاً نَسجهُ حبالٌ دقيقة ليضرب به . وها هي القصص الناطقة بالإعياء تنزل بوجه سخافات العالم ضرباً لاذعاً شديداً . لا . ليس « التائــه » ملجأ يؤمّه المرء طالباً العون الذي تمدّه الروح الهادئة المطمئنة .. إن هو إلاّ مفزعُ مَن يبغي تبرير حالٍ من القلق المضني والفشل الذريع .

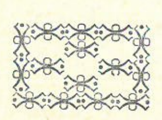
خذوا مَثل « البدر »

« طلع البدر فوق المدينة بهيّاً فبدأت كلابُها تنبح عليه .

« غير أن كلباً واحداً لم ينبح وبصوتٍ حزين خاطب الكلاب قائلاً : —

« لا تنبّهوا السكينة من سُباتها ولا تجلبوا القمر للأرض بنباحكم . »

فتوقّفت الكلاب عن نباحها في سكون رهيب ، ولكن الكلب الذي كان قد خاطبها استمرّ في عوائه للسكينة حتى انقضى الليل . »



مسكينة الامة

•

صدر « التائه » سنة ١٩٣٢ وهي السنة التي تَلَت وفاة جبران . وفي سنة ١٩٣٣ ظهر كتاب « حديقة النبي » الذي اشغل الشاعر حتى اليوم الذي سبق ارتحاله .

وكان جبران قد صمّم وضع كتابين ليكمل حلقة « النبي » يُدعى الاول « حديقة النبي » والآخر « موت النبي » وكثيراً ما تكلم جبران عن « موت النبي » قائلاً « سنكتب هذا وهذا ... » غير انه ، ويالأسف ، لم يكتب منه غير سطرٍ واحد ، هو خلاصة النهاية المفجعة التي كان يرثيها للمصطفى. وهذا هو السطر ... « وسيعود المصطفى الى مدينة اورفليس ... فيرجمونه في ساحة المدينة حتى الموت ، وسيدعو كل حجر يُرمى به اسماً مباركاً».

اما الكتاب فكان سيبحث علاقة الانسان بالله كما يبحث « النبي » علاقة الانسان بالانسان ... اما « حديقة النبي » فيبحث علاقة الانسان بالطبيعة .

كانت « الحديقة » كما قال جبران « على الطريق » فالقطع المختلفة تامة ... غير أن تصميم ترتيبها لم يوضع ، كما كان خيط عقدها مفقوداً . ولقد أخذت على عاتقي مترددة اشدّ التردّد مسؤولية وضع ذلك التصميم وخلق الخيط ، فاستغرقني حملُ نفسي على فعل هذا وقتاً ليس بقليل . ثم اتضح لي كل شيء فأدركت انه امتياز لي ... بل واجبي المحتوم الذي لا

أستطيع التهرب منه ، إن نهاراً او ليلاً ، وقد احسَستُ بمحرّك غريبٍ ، لطيفٍ وملحّ معاً لم ادر من أين جاء ينبّهني في أعماق الليل ويسألني بصوت يكاد يُسمع « متى تباشرين ؟ » .

ولمّا جلست لأضع الكتاب بشكله النهائي ما استصعبت ولا ترددت فقد تكوّن إطار الصور المختلفة التي رسمها جبران بكلماته النيّرة وكأنما هو نفسه يمدّني به ، حتى انتهى الكتاب . لقد تدفقت في فكري أشياء كثيرة كنت قد ظننتني نسيتُها ... هي اشياء قالها الشاعر عن الحديقة ، حديقة امّه التي كان له فيها تسعة رفاق . وقد تذكرت عددهم فجأة ، غير اني ما تذكّرتهم ... ثم جاءت الرؤيا بتسلسل طبيعي تام ، وكأنما هو شِعرٌ لي يتمّم نفسه بنفسه فاذا بالتسعة يظهرون ، ثلاثة من مَلاّحي سفينته وثلاثة من خدَمة الهيكل وثلاثة من رفاق طفولته ... يا لَلرفاق الكاملين !!!

حتى اذا ما اكتمل التصميم وجُمعت القطع بعضها الى بعض بدت الصورة واضحة جليّة ، بل كانت حسنة تبعث الرضى . لقد مثّل التسعة الرفاق ادوارهم في قصة « المصطفى » و « كريمه » فكانوا له نِعمَ التلاميذ ... وقد حَملَت تلمذتهم « النبي » على القول :

« ... وفي صباح يوم جلس تلاميذه حوله وكانت في عينيه أبعاد وتذكارات فسأله التلميذ « حافظ » قائلاً : يا معلم ! حدّثنا عن مدينة اورفليس ، وعن هاتيك البلاد حيث أقمت تلك الاثنتي عشرة سنة » .

« وكان المصطفى صامتاً ، وفي صمته عراك ، وكان ينظر نحو التلال عبر الاثير الشاسع ...

« ثم قال : يا اصدقائي ورفاق طريقي ...

« مسكينة الأمة الملأى بالمعتقدات وهي من الدين خواء .

« مسكينة الأمة التي تلبس ثياباً لا تحوكها وتأكل حبّاً لا تحصده ، وتشرب خمراً لا يفيض من معاصرها .

« مسكينة الأمة التي تدعو المتوعّد بطلاً وتعتبر الفاتح المغتصب جوّاداً .

« مسكينة الأمة التي لا ترفع صوتها إلا في جنازة ولا تفاخر إلاّ فوق الأطلال والخرائب ولا تتمرّد الاّ عندما توضع رقبتها بين السيف والنطع .

« مسكينة الأمة التي سياسيُّها ثعلب وفيلسوفها مشعوذ وفنّها هو فن الترقيع والتقليد .

« مسكينة الأمة التي تستقبل حاكمها الجديد بالتزمير وتشيّعه بالصفير لتستقبل حاكماً آخر بالتزمير مرة أخرى .

« مسكينة الأمة التي اخرست حكماءَها السنون ، والتي ما زال رجالها الأشداء في المهد مقمّطين ...

« مسكينة الأمة المجزّأة وكل جزء منها يعتبر نفسه أمّةً » .

دعا جبران هذه الكلمات القوية « المراحم التسعة » وقد تفوّه بها وفي صوته صرامة قلّما سُمعت فيه ، ومع ذلك ففي الكتاب ميزةُ لُطفٍ بالغٍ وعاطفة لا أرضية ، بل فيه ذلك الذي تكلّم عنه في « النبي » داعياً اياه « ألمُ الرفق المتناهي » .

فهل كان هذا تنبُّؤاً بانفصال الشاعر عن هذه الأرض الخضراء وهو الذي كان احد عشاقها الكبار ؟ لقد قال جبران مرة « كيف نستطيع أن نتخيّل سماء خلفَ ما يمتدّ امامنا ؟ إن هذه الأرض التي لم يُخلَق بعد مثلها هي جوهر حلم الله الأوسع » وقال ايضاً « كل ما يخرج من الأرض السوداء ؛ الجذور والأشجار والأغصان وكل بُرعم وكل حبّة ، وكل ورقة

عشب ... هي اولادي وأحبابي ... »

ونشعر في « الحديقة » بشدة حُبّه لقطرة الندى وللثلج المتساقط وللحجر الملقى في قارعة الطريق الذي قال عنه « انتِ والحجر سيان ، لا فرق بينكما إلا في دقات القلب ... إن قلبك يخفق اسرع من قلبه بقليل ، أليس كذلك يا صديقتي ؟ بلى ... ولكن الحجر ليس هادئاً الى الحــد الذي تظنّين . » وكان به حبٌ عظيم « للأيكات النائمة والكروم » وللجداول التي تبحث عن النهر في الوادي » و « للأشجار الشهيدة والغار الشهيد ...»

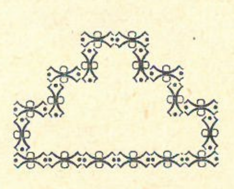
وفي ذات مساء يقول المصطفى لتلاميـــذه التسعة وللمرأة « كريمه » « يجب أن نفترق هذا اليوم » وبدون ابطاء عدا كلمة وداعية قصيرة . خرج المصطفى من حديقة امه واسع الخطى ، خفيف الحركة ، وسرعان ما ابتعد عنهم كأنما هو ورقـة تحملها ريح شديدة عاصفة فرأوا فيما رأوا نوراً باهتاً يسير صُعُداً فتذكـّروا كلمات وداعه حيث يقول :

« سأذهب ... فإن ذهبت وكان هناك حقٌ لم يُنطق به فان ذلك الحق سيسعى اليّ ويجمعني ثانية ولو كانت اجزائي مبعثرة في كل هدأآت الأزل ... مرة اخرى سآتي اليكم لأتكلّم بصوتٍ تولـّد من جديـد في قلب هاتيك الهدأآت الـــتي لا تـُحدّ . لأن الله لن يحجب نفسه عن الانسان ولن تظلّ كلمته مخبوءةً في وهدة قلبه .»

إننا نسمع بين آنٍ وآن حديث الكتابة « بالتنزيل » . أما انا فما كان لبحث الوحي والتنزيل اهمية عندي إذ لي تفسيري الخاص لمنبـع ما يكتب الشعراء وينظمون ... ومع ذلك فقد لاح لي ، ولمّا يزل ، ان جميع الصفحات التي كان لا بدّ لها من ان تكتب في « حديقة النبي »

جاءتني مباشرةً من وحيٍ محدَّدِ المعالم ووعيٍ مُدرك مُطـّلع ، فكانت الشعر الذي قال عنه جبران هو « الكلمات التي لابدّ منها في الموضع الذي لا بدّ منه » .

وفرغت من الكتاب فغمر روحي السلام لعلمي أن جبران بارك صنيعي فساندني فيه حتى النهاية ...





مريم ام يسوع

لغز هو أنـــا

•

لقد تعرّض جبران خلال السنوات الأخيرة من حياته للكثير من الضغط كي يعود الى بلاده ... فقد شعر مواطنوه في لبنان أنه يستطيع اذا ما شاء أن يكون زعيمهم العظيم فرغّبوه في العودة ... فأثّرت رغبتهـم تلك في نفسه تأثيراً عميقاً . غير انه كان يعرف ان الرجوع الى لبنان خطـأ فادح .

وقـد قال مرة « اني اعتقد انني استطيع ان اكون عوناً لبني قومي وأستطيع أن أقودهم ... ولكنهم لن يُقادوا ... لأنهم يبحثون قلقـين مضطربين عن حلّ لمشاكلهم . انا لست الحلّ ... الذي فيه يرغبون ، ما أنا إلا لغز ... فإن ذهبت الى لبنان و « النبي » في يدي وقلت لهم « تعالوا نعش على ضوء هذا » تتبخـّر حماستهم لي في الحال .. انا لست سياسيا ولن اكون . ولذا فاني لا أستطيع تحقيق ما فيه يرغبون » .

وقد تسلـّم ذات يوم رسالة متـّقدة يتـّهمه كاتبها انه يحيا حياة هنيئة مترفة في الغرب ناسياً وطنه ، هاجراً بنيه ، فانفجر غاضباً وأجاب الموظف الكبير الذي وقـّع الرسالة ببرقية قال فيها « اذهبوا الى جهنـّم ... » وقد كانت تلك الغضبة احدى غضباته الرائعـــات النادرات وما عاد يحتمل الاشارة اليها ... ولكن بالرغم من غضبته وبرقيته فقد جاء الى جبران « الحبيب » وفدٌ لبناني قليل العدد قاطعاً المحيط طالباً المعذرة .

وقد كانت غضبات جبران مشهورة ولكنها نادرة . وما كان ليثيرها سوى ظلم فادح او نذالة لا حدّ لها . وحدث مرة ان زار المحترف رجل دون ان يُدعى ليقترح عقدَ صفقة تجارية ... كان الرجل واقفاً امامه يتحدث اليه باقتراحه فاسودّ وجه جبران غضباً ... وما انهى الرجل كلامه حتى تناول جبران دليل الهاتف الملقى على الطاولة بجانبه ... فأجفل الرجل متراجعاً حاسباً انه سيُرمى بالكتاب ، غير أن جبران ما رماه به بل مزّقه بيديه ورمى بقطعه الأرض ثم صرخ في الرجل قائلاً « لقد فعلت هذا كي لا امزقك إرَباً ... اخرج ... اخرج ... »

ولقد كانت قوة يدي جبران غريبة ذاع صيتها واتسع فانتشرت عنها قصص كثيرة تشبه الخرافات . وقد قال جبران مرة « عليّ عندما اهزّ يدَ صديقٍ مسلـّماً ان احترس كي لا أؤذيه » وكان ذلك حقاً اذ كثيراً ما رأيت زائريه الضخام الجثة ينقبضون ألماً وتصفرّ وجوههم اذا ما هزّت يدُه ايديهم .

كان جبران قصير القامة لم يتجاوز طوله خمسة اقدام وثلاثة او اربعة بوصات وكان هذا يغيظه ، بل كان ابداً مربكاً له . غير أن قوة عضلاته ومقدرته على الاحتمال كانتا خارقتين . ومع ذلك فانه ما رغب في ان يفاخر بقوّته ، بل كان يرغب في ان يبدو كغيره . وفي اواخر سنيه ما استطاع ان يتجنّب اطراء الكثيرين وتهليلهم فقال « لولا هذه الأشياء ما اصبحت احب الانزواء عن الآخرين . فهي التي جعلتني مخلوقاً يعيش في الضباب . »

وما كان يأبه لما يرى ويسمع . وليست هناك مذكرات يومية تظهر رغبته في ترك قصة رتيبة لأعماله ولا يوجد سجل بالثناء المستمر الذي كيل له منذ حداثته .

لقد كان عالمه الفكري عالماً مديداً عميقاً غير قابل للتفسير حسب

مقاييسنا . فكان باستطاعته ان يطرق كل موضوع مع كل رجل فيتحدث بفطنةٍ واجادةٍ بارعة ويُظهر معرفة خاصة لم يكن حتى باستطاعة الاخصائيين ان يبذّوها .

غير ان عالم الروح هو العالم الذي عاش فيه جبران حياته الحقّة . ولعل الأثر الغريب الذي كان يرافقه اينما حلّ هو نتيجة وعيه الروحي العميق . وقد وصف احدهم ذلك فقال « كان الأزل يفيض في الهواء عند دخوله . . . فما تنقضي عشر دقائق حتى يلازم كل مَن في المكان كلماته . أما قلبه فكان كالطائر العظيم يوشك المرء أن يسمع خفق أجنحته . وبالرغم من ان شفتيه كانتا تضحكان فان عينيه كانتا تفيضان بالحزن ، حزن العالم كله ... ولا عجب !!

فلقد كانت غرفته العالية الهادئة البسيطة في قلب المدينة العظيمة الصاخبة المحطّ الأخير لجموع السائحين الذين كانوا يأتونه يومياً على مدار سنين عديدة . وقلّ ما عرف العالم ان اقدام المشوقين والمتعَبين والمؤمّلين بحثت عن السبيل الموصل اليه ساعية نحوه الساعة تلو الساعة واليوم بعد اليوم .

وكثيراً ما فاق ضناه واحتياجه ضناهم واحتياجهم ومع ذلك فلم يرد منهم احداً ... بل كان يلمس بيد حكمته وعطفه جراحاتهم فينطق كلمة يتجسّد فيها الحق الأزلي البسيط فتتلاشى آلامهم ... حقاً لقد كان جبران للكثيرين الطبيب الطيّب المداويا ... ولكنه ما احب ان يعرف الناس ذلك عنه فلم يُعلنه .

وكم كانت آلام البشر ومشاكلهم وأثقالهم تنهك قواه فيبدو محطّماً تعباً . وقد قال مرة « ان حزنهم وحبّي لهم يمتصان دمي ... وكم اتمنّى لو استطيع ان آخذ معطفي وعكّازي واذهب الى صومعة ... ولكني لست بالطيّب حتى للتفكير في هذا . »

لقد كان جبران شهيد الايمان ... شهيد ايمانه القائل بعدم منع لقمة او جرعة عن اي انسان . بل لقد كان ، وهو المقهور في دنيا الجسد ، فاتحاً في عالم الروح !! اما جسده فقد استسلم في نضاله مع الحياة ، ذلك النضال غير المتكافيء فقال « إن بي داء العمل » ولقد كان ينخرُ به كذلك داء الكرم وداء نكران الذات .

ما كان جبران يحتمل المرائين ، وكان يعتبر كلّ خطأ يسيراً وكل عملٍ سيء سهل التفسير او هو دليل غباوة فاعِله . وقد قال عن هؤلاء المسيئين او المخطئين « دعوهم ... فلهم عـذرهم » بيد انه كان يثور على الرياء والمرائين وكان لا يطيق سماع اسماء ثلاث نساء معيّنات[1].

غير أن رضاه عن مسلك النساء تجاهه كان فريداً ... إذ أحبتّه نساء كثيرات بحرارةٍ واخلاص هما وليدا الشكران العميق والتعبّد ... لقد احببنه حبّاً مجرّداً لا مطمع فيه .. حبّاً لم يتطلب منه شيئاً ولا كان ينتظر منه شيئاً ... بل عشقته بعض النساء عشقاً ! قال جبران « اني مدين لكل حب احببنيه وعطفٍ ابدينه نحوي ، غير انهن يَرينني احسن مما انا . إنهن يُحببن فيّ الشاعر والرّسام ويتمنين لو يملكن شيئاً منه . اما نفسي ... فانهن لا يرينها ولا يعرفنها ولا يحببنها . »

وفي عصر يومٍ قرأ لنا من « النبي » قطعة عن الزواج فجرّنا ذلك الى الحديث عن هذا الموضوع فسألته احدى الحاضرات مبتسمةً « هل لك ان تقول لنا لماذا لم تتزوج ؟ فأجاب جبران مبتسماً « ألاَ ترين ؟ الأمر جدّ بسيط . فلو كانت لي امرأة وكنت ارسم او انظم لنسيت وجودها اياماً بلا انقطاع . وأنت تعرفين جيداً انه لا توجد امرأة مهما كان مبلغ حبها

(١) تُرى من هُنّ ؟!! لقد أبَتْ المؤلفة الكريمة التشهير بهن مثبتة كرم نفسها !
المترجم

لزوجها تستطيع احتمال زوج من هذا الطراز طويلاً . »

غير أن السائلة الفضولية لم تقنع بالجواب فألحّت بالسؤال قائلة « لكن أما احببت قط ؟ » .

فـما كاد جبران يسمـع السؤال حتى تغيّر وجهه ونهض واقفـاً وتكلّم بصوتٍ يهتز غضباً من وقاحة الضيفة السائلة فقال وهو يكبح نفسه « سأقول لكِ شيئاً لا تعرفينه . إن اكثر المخلوقات شعوراً بالدافع الجنسي في الأرض هم الخلاّقون ... الشعراء والنحـاتون والرسامون والموسيقيون ... والدافع الجنسيّ عندهم هبةٌ جميلة ذات جلال . إنه ابداً حييّ ذو خَفَـر » .

ثم سار يذرع الغرفة جيئة وذهاباً . وبعـد قليل تغيّر وجهه مرة ثانية فكسته نظرةٌ مشفقة من غباوة السائلة وقال « اما انا فلست اعرف شيئاً يخلو من الدافع الجنسي . فهل تعرفين انت شيئاً ؟ لعلّ الحصى الصغيرة في مجاري الانهار وحبّات الرمال التي تذروها الرياح فوق شواطىء البحار هي وحدها التي تخلو من ذلك الدافع الجميل . »

وعندما ترك الضيوف المحترف ظلّ يذرعه محنيّ الرأس ، غير عابيء باللحظات العابرة ، ثم تكلم بالعربية جملة قصيرة ، فما استطعت ان يفوتني الفكر الذي ولّده ذلك الصمت فسألته « ماذا قلت يا جبران ؟ » فنظر إليّ متعجباً من وجودي وقال وفي وجهه وصوته رغبةُ شوقٍ كالطفل «ان الصمت سرٌ من اسرار الحب » .

وفي اجتماع تذكاريّ عُقد بعد موت جبران بقليل قال أحد الكتّاب الامريكيين المرموقين فيما قال « اني لا أعرف شيئاً عن حياته الغرامية » وأنّى له ان يعرف ؟ إن الجلال لا يعرض للناس سرّه ولا يتحدث عن قربان محرابه القدُّوس . لم يكن الزواج ليروق له ... بل كان من مذهبه أن يحيا حياته كاملة بكلّ ما فيها من جمال وألم . ولا يستطيع أحدٌ ممن

لقد كان جبران شهيد الايمان ... شهيد ايمانه القائل بعدم منع لقمة او جرعة عن اي انسان . بل لقد كان ، وهو المقهور في دنيا الجسد ، فاتحاً في عالم الروح !! اما جسده فقد استسلم في نضاله مع الحياة ، ذلك النضال غير المتكافيء فقال « إن بي داء العمل » ولقد كان ينخرُ به كذلك داء الكرم وداء نكران الذات .

ما كان جبران يحتمل المرائين ، وكان يعتبر كلَّ خطأ يسيراً وكل عملٍ سيء سهل التفسير او هو دليل غباوة فاعِله . وقد قال عن هؤلاء المسيئين او المخطئين « دعوهم ... فلهم عذرهم » بيد انه كان يثور على الرياء والمرائين وكان لا يطيق سماع اسماء ثلاث نساء معيّنات[1].

غير أن رضاه عن مسلك النساء تجاهه كان فريداً ... إذ أحبّته نساء كثيرات بحرارةٍ واخلاص هما وليدا الشكران العميق والتعبّد ... لقد احببنه حبّاً مجرّداً لا مطمع فيه .. حبّاً لم يتطلب منه شيئاً ولا كان ينتظر منه شيئاً ... بل عشقته بعض النساء عشقاً ! قال جبران « اني مدين لكل حب احببنيه وعطفٍ ابدينه نحوي ، غير انهن يَرينني احسن مما انا . إنهن يُحببن فيّ الشاعر والرّسام ويتمنين لو يملكن شيئاً منه . اما نفسي ... فانهن لا يرينها ولا يعرفنها ولا يحببنها . »

وفي عصر يومٍ قرأ لنا من « النبي » قطعة عن الزواج فجرّنا ذلك الى الحديث عن هذا الموضوع فسألته احدى الحاضرات مبتسمةً « هل لك ان تقول لنا لماذا لم تتزوج ؟ فأجاب جبران مبتسماً « ألا ترين ؟ الأمر جدّ بسيط . فلو كانت لي امرأة وكنت ارسم او انظم لنسيت وجودها اياماً بلا انقطاع . وأنت تعرفين جيداً انه لا توجد امرأة مهما كان مبلغ حبها

(١) تُرى من هُنّ ؟!! لقد أبَتْ المؤلفة الكريمة التشهير بهن مثبتة كرم نفسها !
المترجم

لزوجها تستطيع احتمال زوج من هذا الطراز طويلاً . »

غير أن السائلة الفضولية لم تقنع بالجواب فألحّت بالسؤال قائلة « لكن أما احببت قط ؟ » .

فما كاد جبران يسمع السؤال حتى تغيّر وجهه ونهض واقفاً وتكلّم بصوتٍ يهتز غضباً من وقاحة الضيفة السائلة فقال وهو يكبح نفسه « سأقول لكِ شيئاً لا تعرفينه . إن اكثر المخلوقات شعوراً بالدافع الجنسي في الأرض هم الخلاّقون ... الشعراء والنحاتون والرسامون والموسيقيون ... والدافع الجنسيّ عندهم هبةٌ جميلة ذات جلال . إنه ابداً حيّ ذو خَفَر » .

ثم سار يذرع الغرفة جيئة وذهاباً . وبعد قليل تغيّر وجهه مرة ثانية فكسته نظرةٌ مشفقة من غباوة السائلة وقال « اما انا فلست اعرف شيئاً يخلو من الدافع الجنسي . فهل تعرفين انت شيئاً ؟ لعلّ الحصى الصغيرة في مجاري الانهار وحبّات الرمال التي تذروها الرياح فوق شواطىء البحار هي وحدها التي تخلو من ذلك الدافع الجميل . »

وعندما ترك الضيوف المحترف ظلّ يذرعه محنيّ الرأس ، غير عابىء باللحظات العابرة ، ثم تكلم بالعربية جملة قصيرة ، فما استطعت ان يفوتني الفكر الذي ولّده ذلك الصمت فسألته « ماذا قلت يا جبران ؟ » فنظر إليّ متعجباً من وجودي وقال وفي وجهه وصوته رغبةُ شوقٍ كالطفل «ان الصمت سرٌ من اسرار الحب » .

وفي اجتماع تذكاريّ عُقد بعد موت جبران بقليل قال أحد الكتّاب الامريكيين المرموقين فيما قال « اني لا أعرف شيئاً عن حياته الغرامية » وأنّى له ان يعرف ؟ إن الجلال لا يعرض للناس سرّه ولا يتحدث عن قربان محرابه القدّوس . لم يكن الزواج ليروق له ... بل كان من مذهبه أن يحيا حياته كاملة بكلّ ما فيها من جمال وألم . ولا يستطيع أحدٌ ممّن

عرفوا غنى كيانه وأحاط بكل ما فيه من شمول ان يشك في انه اوفى مذهبه حقّه . اذ ما شرب اعزب قط كأس الحنظل والعسل حتى الثمالة مثله . غير انه ، وهو المحبّ الكبير ، ما تحدّث قط بشيء عن هاتيك الكأس بعـدما أفرغها وما أخال احداً اختار ان يشاطره كأس الحبّ إلاّ كتوماً مثله .

كان جبران مُسرفاً في الرقّة ، بل كانت تفيض في عروقه كل عاطفة من عواطف بلاده وعاداتها الطيّبة فأعطى بكرم فيّاض من معين مودّته وإخلاصه . ومن النساء ماهرات كثيرات يُسئن استعمال « هـذا النقد الملوكي » الذي كان جبران يتعامل به معهن . ولست اشك في أن هناك مَن يقرأن هذه الصفحات فتدرك قلوبهن الادراك كله ما تعجز الكلمات في التعبير عنه .

فاذا ما ظهرت امرأة وادّعت أن رجلاً عظيماً كان لها وحدها فمن الحكمة أن نحذرها خصوصاً اذا ما ادّعت ذلك بعد وفاته ... ولكن إن كان هناك مَن لا يقولون « يا رب ... يا رب ! » ولكنهم يحافظون على وصاياه ويؤدّون أعماله صابرين صامتـــين ... أفليس هؤلاء حقّاً هم الأيدي التي امتدت لخدمة ذلك الربّ والقلوب التي أدركت كنهَ خفايا كيانه العميم ؟

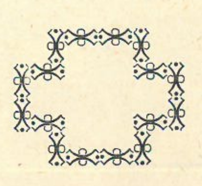
اما انا فلست اشك في ان النداء الأبدي الطالب عزاء المرأة قد انبعث من اعماق وحدة جبران العظيمة خلال السنين القلقة المضطربة من حياته .. فاستُجيب النداء ... وكانت استجابته من حسنات الله ونِعَمه !!

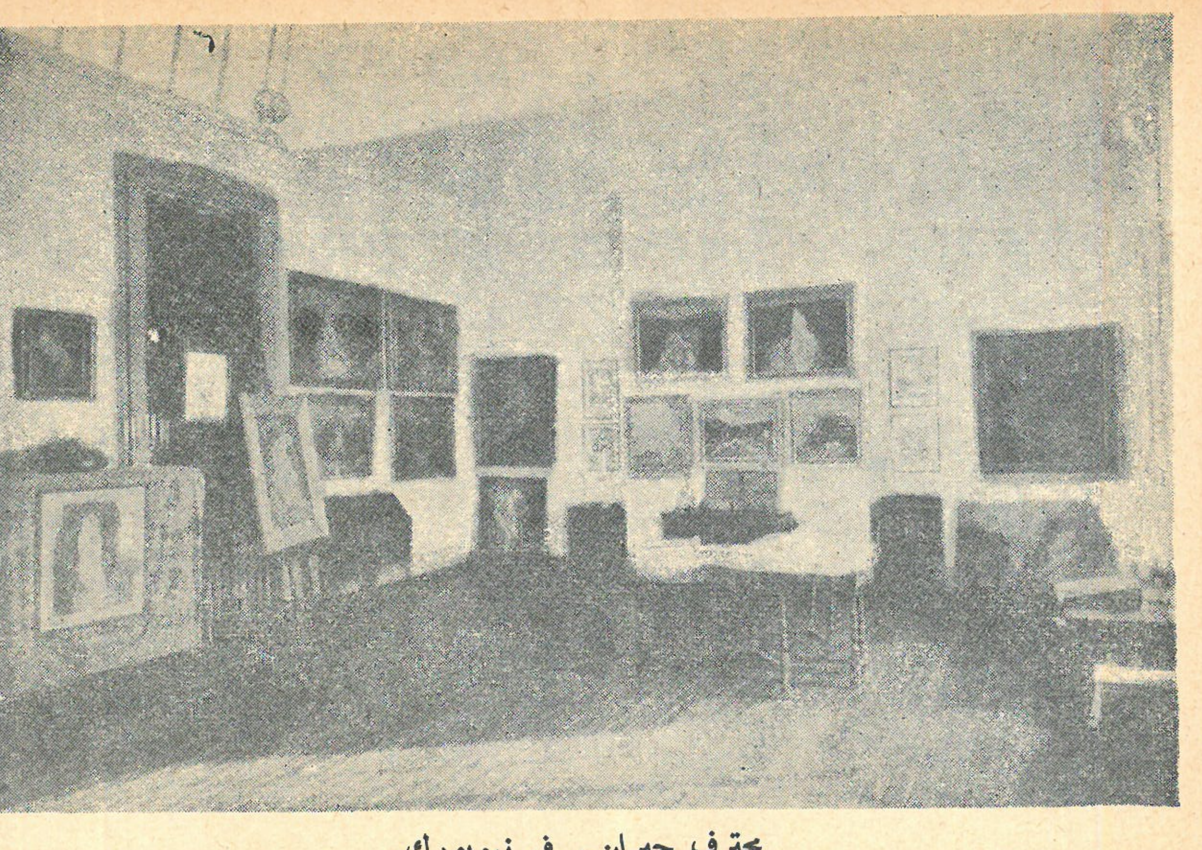
ولكن علينا ان نتذكر كيف يصبح الرجل العظيم بعد وفاته فريسةً لأولئك اللواتي مدّ لهن يداً كريمة من ايادي وداده ومحبّته فتهمس منهنّ مَن تهمس بوجود علاقات متينة بينهما ... علاقات لا اساس لها إلاّ في رغباتها وأحلامها ... انه يصفهن فيقول « لقد حلمن حُلماً ليس إلاّ » .

ولقد تكلم جبران عمّا دعاه « الكيمياء الروحية » و « المناجاة في الفضاء » فعنى بذلك الاتحاد الروحي الذي هو والاتحاد الجسدي صِنوان. وقال مرة « عندما يتآلف اثنان ، رجل وامرأة ، فيكون في مقدورهما أن يتمتعا معاً بأعمق لحظةٍ روحية تقدّمها الحياة للبشر فانهما يخلقان بتمتعهما هذا « ذاتاً » كأنما هي جنين حيّ ، حَبلاه وولداه ... » «ذاتا» ... هي قوة غير منظورة ، ولكنها تبقى وتخلق بدورها « ذواتا » أُخرى... إنهما يكونان قد انشدا اغنية لا تموت ، ونظما شِعراً لا يفنى ... وعلى هذا ففي كَون الله شيء لا يموت ولا يفنى لأننا ، أنتِ وأنا ، إلفان .»

وكثيراً ما كان يتوقف عن سيره بعد ساعات من الخلق والتعبير عن الحقائق الجميلة القويّة فيقول كمن يهمس همساً « في الجوّ همسةُ حياةٍ جديدة» عارفاً ان امرأةً تشاطره الألم البديع الذي يمزّق قلبه مشاركة كاملة ...

إن « الكيمياء الروحية » او « اللقاء في الفضاء » ... لَعلاقةٌ ممكنة التحقيق ولكنها علاقة لا تُقاس ولا تُوصف ...





محترف جبران في نيويورك

شديد يطفح قوة وحياة

●

كان جبران يهتم عظيم الاهتمام بالمدينة التي يقيم بها ويبتهج بحياتها ابتهاجاً جمًّا. وقد رأى، كما رأى القليلون، اوجه الشبه بين مدنيّتنا والمدنيّات القديمة كلها.

وكم أسِف للسرعة الخاطفة في مكننة كل فرع من فروع الانتاج وهجر الصناعات اليدوية القديمة وقد كان بين أصدقائه فنّانان صُناعان متقدمان في السن وكثيراً ما كان يحدّثها عن القطَع الغالية التي صيغت ولا تزال تُصاغ في الشرق الأدنى وأوروبا. وقد كانوا متّفقي الرأي على ان شيئاً ذا قيمة خطيرة يوشك أن يضيع لالتصاق الانسان المستمر بالماكنـــات ولتوحيد الانتاج الذي عمّ بلادنا كالوباء. وقد قال مرة « إن كلمة من كلماتنا المحبّبة تكاد تُنسى، وتلك الكلمة هي « صنعٌ يدويّ » .

وكان جبران شديد الولَع بحفر الخشب، وقد ترك تماثيل خشبية قليلة كاملة الصنعة وافية التعبير مثل رسومه .

وما كان ليمسّ هذه التماثيل إلا عندما يكون متعب الجسَد مضنى القلب، منهوك الروح، فيعمل بها « لأريح نفسي من نفسي ومن الناس » على حدّ قوله .

وكم كان ينهلع استياءً من الافراط الجنون الذي انتاب فنّ بنائنـــا الحديث، ومن ارتفاع العمارات، ويأسف متحسّراً على فقـــدان الجمال

والتناسب فيما يُبنى بباهظ الثمن . وكم كان يرثي لهدم المباني الفتانة لا لسبب سوى قِدَمِها .

وقد قال عنّا « انتم كالأولاد المشاكسين . تصنعون ألعابكم لتتلهّوا بها الى حين ثم تحطمونها رغم فتنتها . هل تعلمون كيف صار الشرق واوروبا يفيضان بالعظمة والجمال اللذَين لا يُستعاض عنهما ؟ انهما اقاما ما اقاما بكلا قلبيهما واليدين ثم ابقيا ما اقاما . »

ومع ذلك فقد كان جبران عظيم الايمان بأن بلادنا ستصل الى الكمال في النهاية . وكان ، كذلك ، عظيم الايمان بنبالتها فقال « انتم اليوم كالأطفال ، ثملون بنشوة ما أحرزتم من بِدَع . إنّ بكم داء الأسرع والأكبر ... لقد ضللتم السبيل الذي سار عليه رجالكم العظام الطيّبون... ولكن هناك ملاك يحرس هذه الولايات المتحدة ، هو ملاك عنيد جبّار يعمل ليجعلكم تطرّحون كلمتين هما الشطارة والدعاية . إن لهاتين الكلمتين نتانةً في منخر الآلهة والملائكة . وتذكّري قولي : إن ملاككم الحارس لن يقصّر في مهمته وسيرجع هذه البلاد للطريق القويم ، طريق جفرسون Jefferson وفرانكلين Franklin ، طريق اميرسون Emerson وويتمان Whitman وطريق ابراهام لنكولن Abraham Lincoln ، اولئك الرجال المباركون . »

كان جبران يؤمن بالوطن الذي صار ابناً من ابنائه وقد قال ذات يوم عنه « إن العالم لَحديقة سماوية ازهارها الشعوب والحضارات . يزدهر بعضها اذ تتناثر اوراق البعض الآخر ... فهاهنا واحدة قد ذوت ولم يبقَ منها سوى جذع اجوف يذكّرنا بزهرة عظيمة حمراء القلب . اما اميركا فلعلّها الآن الزر الملحّ في غلالته على هذه العوسجة الوردية . بل لعلها الزرّ المتحفز للتفتق ... هو زرٌ قليل الأريج ، فما زال بضّاً قليل العطر ، اخضر غضّاً ... غير انه زر شديد يطفح قوّة وحياة . »

ما أصدق ما قال جبران !! لأن « هذا الزرّ ... الشديد الطافح قوة وحياة » الذي كان يومئذٍ « يتحفّز للتفتق » قد اثبت انه كذلك .

وقال جبران مرّة « إني احب ان ارى مدينة حديثة شوارعها من غير انوار ... فلو اضاء القمر الفضّي والنجوم القسم الاسفل من منهاتن... ولم تكُ فيه انوار اخرى لبدا جميلا رهيباً مثل اهرام مصر . ما أعظم الهوّة القائمة بين نور الأرض والنور الآتي من الأعالي ! »

كان جبران للجيل الجديد الذي وُلد في الغرب من ابوين لبنانيين او سوريين نشأ على تربة الوطن « الأم » احدَ مختاري الرب !! كانوا يذهبون اليه حائرين فيستجيب نداءهم بلطفٍ سماويّ ويحل مشاكلهم بفهم سريع فأخلصوا له شاكرين ...

وكان جبران يؤمن بقوة العادات العربية وبأثرها الفعّال في حياة الشباب اللبنانيين والسوريين وتفكيرهم .

وقد كتب رسالة للشباب الامريكيين المتحدرين من اصل لبناني وسوري يحسُن بالامريكيين جميعاً ان يُنعموا النظر فيها . وهذه هي الرسالة : —

« اني اؤمن بكم وأومن بمصيركم

« اني اؤمن انكم تساهمون في هذه الحضارة الجديدة بقسطكم

« اني اؤمن انكم ورثتم من اجدادكم حُلماً قديماً واغنيةً ونبوّة تستطيعون وضعها بافتخار في حضن امريكا تقدمة شُكرٍ .

« اني اؤمن انكم تستطيعون ان تقولوا لابراهام لنكولن المبارك : (يسوع الناصريّ مسّ شفتيك عندما تكلمت وأرشد يدك عندما كتبت وإننا سنحافظ على كل ما قلت وعلى كل ما فعلت .)

« اني اؤمن انكم تستطيعون ان تقولوا لأميرسون وويتمان وجيمس (في عروقنا يجري دم الشعراء والحكماء القدماء ... وإننا نرغب في ان نأتي اليكم ونأخذ ، ولكننا لن نأتي بأيدٍ فارغة) .

« اني اؤمن انكم مثل آبائكم الذين جاؤوا الى هـذه الأرض ليعملوا ثروات قد وُلدتم هنا لتغلّوا انتم ايضاً ثرواتٍ بالذكاء والعمل .

« اني اؤمن انكم مفطورون على أن تكونوا مواطنين طيّبين .

« وما معنى ان يكون المرء مواطناً طيّباً ؟

« هو في الاعتراف بحق الغير قبل فرض حقّكم عليه ولكن مـع الادراك التام الأبديّ لحقّكم .

« هو في ان تكونوا احراراً ، قولاً وعملاً ، ولكن مع العلم كذلك أن حريتكم رهن حرية الآخرين .

« هو في خَلق النافع والجميل بأيديكم والاعجاب بما خلق الآخرون بمحبَّة وايمان .

« هو في أن تغلّوا بالعمل والعمل وحده ، وان تصرفوا اقل ممّا تُغلّون لكي لا يكون ابناؤكم عالةً على الدولة لإعاشتهم عندمـــا تصبحون انتم ولا وجود لكم .

« هو في ان تقفوا امام قباب نيويورك وواشنجطون وشيكاغو وسان فرنسيسكو قائلين في قلوبكم « نحن سليلو قومٍ بنَوا دمشق وجُبَيل وصور وصيدا وانطاكية . ونحن الآن هنا لنبني معكم وبعزمٍ نبني . »

« هو في ان تكونوا فخورين انكم امريكيون ولكن في ان تكونوا كذلك فخورين ان آباءكم وامهاتكم جاؤوا من ارض القى الرب عليها يديه الكريمتين وفيها اقام رُسُلَه .

« ايها الشبـاب الامريكيون المتحدرون من أصلٍ لبناني وسوري اني اؤمن بكم »

وكان مما لا بد منه ان يحس جبران الشاب بالظلم الذي يجتاح بلاده تحت نير الاتراك فتألم قلبه بمرارة مما رأى وثار بعنف على ما رأى . وقد اتضحت ثورته وبان ألمه بعد عودته من بيروت مبـــاشرة على صفحات « الأرواح المتمردة » الذي كتبت عنه .

وما كان اكمل فرحه وأجمله عندما يقـــارن حرية الجيل الجديد من السوريين واللبنانيـين في الوطن وحرية الجيل الجديد في هذه البلاد التي جاءها الآلاف ساعين مجدّين . ولقد كان يؤمن بذكاء هؤلاء واولئك ويرجو منهم الخير والصلاح .

ويتحلى الكثيرون من هؤلاء السوريين واللبنانيين الشباب بجمالِ طلعةٍ رائع ولهم عيون عميقة سوداء ناعمة احرى بها ان تُرى لا ان توصف.. وهم يتكلمون الانكليزية « بامتياز » ، بل منهم من يتكلمونها بما يكاد يشبه الشعر ... وهم قوم موهوبون . قال جبران مرة « ايها الامريكيون ...يظن بعضكم ان منتهى الغاية من مجيئنا الى بلادكم هو لكي نبيع برتقالاً وموزاً او نحاساً وسجّاداً »

لا . فـها هم الآلاف من مواطني جبران يثبتون وجودهم في جلّ المهن والعلوم والفنون في طول البلاد وعرضها ... فمنهم المحاضرون المرموقون في الجامعات ومنهم علماء الطبيعة ذوو المكانة الرفيعة ، ومنهم الموسيقيون والمؤلفون اللامعون ، ومنهم الشعراء والمحررون والخطباء ومنهم الماليون والمحامون ورجال السياسة ... ومنهم ضباط الجيش والبحرية والطيران بل منهم رجال في جميع الرتب في خط دفاعنا الوطني وكلهم « امريكيون شباب متحدّرون من اصل لبناني وسوري » وهم « اشداء يطفحون قوةً وحياة . »

وهؤلاء الشباب واولئك يعرفون جبران خليل جبران ... يعرفونـه انـى كانوا ... حتى في الفنادق والمطاعم اللبنانية والسورية ، تلك المطاعم

المبهجة حيث تُحضّر الأطباق الشهية اللذيذة بفن ، وتُقدّم بوجاهة واناقة ولباقة ... فما دخلت واحداً من هاتيك المطاعم دون ان اسمع ذكره ودون ان يعرف احدٌ ما شيئاً ما عني فيقول « ألستِ صديقة جبران ؟» ثم يتلو ذلك الاهتمام الباذخ الأكيد الشديد بي . وكم تذكّرت وأنا اتناول الطعام في هاتيك الاماكن كيف كان يقول لي جبران جازماً مبتسماً « انتِ لبنانية . »

وما ارضى شهيّتي أكلٌ اكلته في اي بلدٍ آخر مثلما ارضاها الطعام اللبناني والسوري . اما جبران فقد كان بسيط الذوق في اكله ... وكانت قائمة غذائه الكامل تتألف من « الخبز الاسود والزيتون الناضج والجبن اللبناني والنبيذ الأبيض » وهذه الأصناف مشبعةٌ رغدة حقّاً .

وقد اعتاد أن يحوك في أثناء تمتّعه بهذه الأكلة البسيطة قصة قصيرة جميلة رائعة « لا لتُكتب » كما كان يقول بل « لنتقاسمها » وكم اتمنى لو اني احتفظت بهاتيك القصص كلها في ذاكرتي !!

وقد حدثني ذات مرة قصة عن غابة بلورية فقال « سنذهب فيها تائهين » ... ثم ترك العنان لخياله الفني اللامع فتحدّث عن الأغصان المنوّرة والعوسج المثقل بالالماس واللآليء المتجمدة المتألقة ، ووصف الاقواس الضخمة التي تقيمها الاشجار فوق الرؤوس وتكلم عن الممرات الطويلة المفروشة بسجاد الثلج الساحر المجدّل تجديلا . ولما ذكر الكوخ البلّوري ذا النوافذ المكسوّة بالصور ذات السُجُف قال : « وقد لا نستطيع ان نرى ما به » ثم حدثني عن كاتدرائية تقوم هناك فقال « ولكن عليك ان تري تلك ببصيرتك ... فأنا لا أقدر وصفها لك ، لأن جمالها ليس من هذا العالم . »

وروى لي قصة أُخرى عن كهفٍ في الصخور قرب طرف الغابة الكثيفة فتحدّث عن المضجع القائم فيه المصنوع من أغصان البلسم والشربين،

وعن النار الصغيرة المشتعلة والحطب المكدّس تكديساً ... وكم كان يحلو له ان يضل في تلك الغابة فيقول « ها هو الثلج يتساقط ... فتعالي هيّا بنا نجلس فوق الأغصان ، قرب النار مستدفئين ، وننظر الى الغابة بينما الثلج يتساقط ... »

وذكر في اقصوصته هذه عصفوري ثلجٍ يظلان يقيمان في البلاد الشمالية طوال الشتاء فلا ينزحان مع الاطيار النازحة جنوباً فيصف لي غناءهما « والثلج يتساقط » ، اذ انهما ما كانا ليتغنّيان إلا « والثلج يتساقط » حتى اذا ما اكتفيا غناءً وقفا ملتصقين على غصن شجرة عند طرف الغابة قرب الكهف ... ليغنّيا اغنيتهما من جديد « والثلج يتساقط. »

واني لأذكر كيف كان يردّد الشاعر « والثلج يتساقط » المرة تلو المرة كأنما هو يغني قرار اغنية عذبة .

وقد كان اثر ذلك مضلّلا للحواس تضليلاً كاملاً قوياً . حتى اذا ما انتهت الوجبة البسيطة والقصة القصيرة التي كانت تُروى بهدوء نظر المرء حوله حائراً فلم يجد كهفاً ولا ثلجاً ولم يسمع الأطيار تغني .

هنا كانت تبدو الكيمياء الروحية ، وهنا كان يظهر اللقاء في الفضاء ... وهنا كانت تولّد « الذات » الحيّة ويُخلق الكائن الجديد !!

ولقد أدركت لِمَ كان الشاعر يقول « لا لتُكتب بل لنتقاسمها » .

ثم اين (المفكرة) من الغابة البلورية والكهف ؟ بل انّى للمرء ان يسجل غناء عصفوري الثلج ؟؟!



مرّة اخرى لقد انقضت

●

انا ما كنت أقصد ، كما قلت في البدء ، أن اكتب سيرة جبران خليل جبران ، بل وددت ان احييه للآخرين كما هو حيٌّ لديّ ... اردت ان اكتب عنه بجلاء ووضوح كأنه ما يزال على الأرض ، ولذا فقد سجّلت القصة كما عشناها خلال سنوات صداقتنا ، ولم اسجلها حسب تسلسل حوادث حياته .

بيد أن هناك أشياء ما برحت تنتظر ان تقال عن ماضي « هذا الرجل من لبنان » : فلقد وُلد جبران في اليوم السادس من كانون الثاني سنة ١٨٨٣ من ابوين لبنانيين عاشا في « بشرّي » وهي قرية جبلية صغيرة قريبة من ارز الرب ، ضاربة في القدَم اربعة آلاف سنة !! وقد كان جدّه لأمه اسطفان رحمه كاهناً مارونياً عالماً اشتهر بقلّة كلامه وجمال صوته . اما امّه فكانت « كامله » وهي صغرى بنات الكاهن ، الحبيبة الى قلبه والتي دعاها « قلبي الذي يسير أمامي » . اما جدّه لأبيه فقد قيل انه كان يملك املاكاً شاسعة في لبنان الشمالي . ونطرب إذ نعلم أن هذا الجدّ كان يعرف نفسه ويدرك مقدرته وقوته ، وكان ذا موهبة خطيرة خطرة للالحاد الذي لا يبلغ حد الكفر ، يحذق استغلالها . وما تزال تروى عنه قصة تتلخص في ان مطراناً معيناً ارسل اليه رسالة جرحت كبرياءه بشكل مثير فانفجر ثائراً امام الرسول قائلاً « بلّغ مُرسلك ان سوريا هي اكبر ولاية في سلطنة آل عثمان وان لبنان هو تاج سوريا ، وان بشرّي هي انفس جوهرة في ذلك التاج وان اسم جبران هو اكثر اسماء العائلات وجاهة فيها واني انا

هو رأس تلك العائلة الملعونة ...»

وقد حدثني جبران تلك القصة باستحسان عظيم . وكذلك حدثني قصص جدته « رحمه » التي اشتهر نفوذها وكبر فصارت تـُعرف « بالطـــابور » وكانت مستشارة زوجها الكاهن وأولادها . وقد وَلـَدت « كامله » مولودها الأخير ، وهي في سن السادسة والخمسين ، ثم تقدمت بها السن حتى عاشت للسنة العاشرة بعد المائة .

غير انها لم تكن لتعترف باكثر من مائة وست سنوات...فيا للظـُرف النسائي السفسطائي !!

وقد قطعت بعد ان تجاوزت الثمانين ، سلسلة جبال لبنان على ظهر جواد واحتفظت حتى اواخر ايامها بجميع قواها وحواسها وفطنتها وحبّهـــا للسيطرة ... وعندما كانت شيخة كبيرة قالت لجبران « اني أوصيت بجميع مصاغي الفضّي لحفيدي الآخر حتى لا يبغضك . »

وفي ذات مرة عندما عاد جبران من مدرسة الحكمة الى بشرّي يحمل الجوائز المدرسية للعلامات الممتازة التي نالها في دروسه جلست «الطابور» مع جدتـــه لأبيه تتحدثان عن مواهب الشاب وظرف شخصيته وحسن اخلاقه فقالت الاخيرة بلطف كعادتها « نحن بالحق فخورون بمواهبه النادرة وعبقريته » فصرخت بها « الطابور » قائلة « وما شأنك بهذا ؟ انه حفيدي.»

وعندما اجتمعت افخاذ العائلة على شرف بلوغها المائـــة سنة تلاقت اجيال كثيرة من ذريتها حتى أن صبيّاً ارسلته « الطابور » ليدعو اليهـــا واحدة من الحاضرات قال للمدعوّة « يا جدتي ... جدّتك تدعوكِ »

كانت « كامله » ارملة وامّاً لصبيٍّ يدعى بطرس ، عندما سمعها خليل جبران تغني في بستان ابيها فلم يعرف للراحة معنىً حتى التقاها فأسَرَه جمالـُها . غير انه ما استراح وما اراح حتى تزوّج منها وكان يكبرهـــا بعدة سنين .

وقد دُعي ابنها الأول باسم جده لأبيه جبران ... غير أن الشاعر كان يفضّل توقيع كتاباته الانكليزية باسم خليل جبران . ويعني اسم « خليل» الصديق الوفيّ الحبيب ، كما ان اسم كامله مشتقٌ من « الكمال » ويعني اسم جبران « المداوي او معزّي النفوس » . إن للاسم العربيّ ابداً معنىً خاصاً !!

كانت كامله جبران تعرف عدة لغات فكان لذلك أثره في ثروة ابنها اللغوية . وقد ورثت عن ابيها الكاهن المحبوب صوتاً غنائياً عجيباً . فكانت اغانيها العربية الحلوة المرسلة مع رنات العود المترنح بين يديها أولى مباهج جبران . وكثيراً ما حدثني جبران كيف كانت امه تغنـّي له اذا ما خيّم الليل وتظل تغني « الى ان تتدلى النجوم . »

والنجوم في سماء لبنان تلوح للمرء مدلاّة حقـّاً ، تلوح وكأنها تتأرجح من اعماق الزرقة . وعندما يزور المرء بشرّي يقولون له « اذ ما اضطجعت فوق سطح البيت لتنام يمكنك ان تمد يدك وتلتقط نجمة وتضعها تحت وسادتك » .

وقد غنـّت كامله جبران لولدها الصغير الاغاني القديمة كما غنت له من عندها مما لم يكن مكتوباً ، وروت له اقاصيص هارون الرشيد وحكايات العرب القديمة العجيبة ... فلقد عرفت كامله من البدء ايّ وَلـَدٍ وُلِد لها. وقد وصفته فيما بعد بقولها « إن ولدي خارج على كل مألوف » فما كان احدٌ يعرف ما يكتم ، وما استطاع احدٌ فهمه فكان حيناً يتفطّر حناناً لزهرة ذاوية وحيناً يثور كالشبل .. وكثيراً ما قال لي « ما كنت صبيّاً طيّباً لأني كنت قلقاً . كنت اشعر اني غريب ضائع لا أستطيع ان اجد طريقي . ولكن أُمّي عرفت ذلك دون ان احدّثها به اذا ما كنت بحاجة ان احدّثها به .»

بلى ... ما كانت امه بحاجة ان يحدثها به ... فلقد راقبته في ايامه الاولى عندما جلس الساعات يتأمل في كتاب ليوناردو ... وكانت قـد جلست بجواره لتقمع ثورته اذا ما ثار ، وهي التي تغلـّبت على اعتراضات

المعترضين عندما طلب مُلحّاً ان يتعلّم في لبنان . ولقد فعلت ذلك ضد رغبة قلبها ، غير أنها كانت واثقة من حكمة ولدها مؤمنة بقوة إرادته .

وقد تكلم خلال الاسابيع الأخيرة من حياته باستمرار عن حداثته وعن امّه وعن شقيقته مريانا آخر من تبقّى له من العائلة ... فقال عن مريانا « إن وُجدت في الارض قدّيسة فهي مريانا جبران ابنة أمّي . »

اني اعتقد ان جبران كان يعلم تمام العلم انه على وشك الذهاب من هذه الحياة الدنيا ... مع أنه لم يتكلّم عن ذلك قط ... وحدث في ذات مساء قبل ذلك العاشر من نيسان بأسابيع قليلة ان رأيته مُثقلاً بكآبة لا تُحتمل فسألته « ما بك ؟ ماذا جرى ليحزنك الى هذا الحدّ ؟ » فصمتَ فترة خلتها طالت كثيراً ثم قال « لديّ شيء اريد ان تعرفيه ، ومع ذلك فاني لا اريد ان اقوله لك ... فهل لكِ ان تحزريه ؟ » لقد سألني على هذا النحو المعتاد ، اذ كثيراً ما كان الواحد منّا يعرف ما يجول بفكر الآخر من قبل ان يتكلم .

اما في هذه المرة فما خطر لي ما كان يجول في خاطره ... وعندما تركت المحترف قال لي « اذا خطر لك في بال ذلك الذي اريد منك ان تعرفيه ... فهل تخبريني به ؟ » فوعدته ان افعل ، وذهبت اعذّب نفسي محاولة التفكير فيما عساه يكون ولكن دون جدوى ... وقد خطر لي ، بعد ان كان قد ذهب بزمنٍ طويلٍ ، ان قلبه البشريّ المتوحّد كان يبحث عمّن يشاركه في تحمّل الأجل المقترب ... ولكنه ما شاء ان يحزنني بالنُذُر إن لم اكن قادرة ان ادركها من غير إيعاز منه . واني لأشعر الآن ان ما قد تم كان الافضل اذ لو انني عرفت ان الموت كان له بالمرصاد لكان من العسير على قلبينا ان يظلاّ يغنّيان كما ظلاّ خلال هاتيك الايام الاخيرة .

ولقد كانت تلك الايام الاخيرة ايام عملٍ محمومٍ أكمل فيها جبران

رسوماً عديدة لتُنشر في « التائه » وكان ايامئذٍ يستعمل مزيجاً جديداً من الألوان . هي ألوان مختلفة من سائل بنّي مصنوع ممّا يفرزه الاخطبوط يمزجها بألوان بيضاء فتعطي مركّباً جميلاً مدهشاً . وقد رسم بهذا المزيج « اللذة والألم » و « الراقصة » و « جسد المرأة » ، تلك التي دعاها « شبيهة الأزل » وقد تمّت هذه كلّها بجهدٍ قبل ان بدأ فجر الجمعة الحزينة .

وكان من عادة الشاعر ان يقضي الجمعة الحزينة وحيداً معتزلاً ، حتى اذا ما اقترب الفجر وانقضت ساعة ذكرى الصلب الممضّة دعاني بالتلفون قائلا « مرّةً اخرى قد انقضت . » وقد فعل جبران ذلك ايضاً في تلك الجمعة الحزينة الأخيرة .

حتى اذا جاء احد الفصح عاد الى عمله ثانية قائلاً « إنّ بي داء العمل » وقد افناه ذلك الداء اذ طافت شعلة عاطفته التي لا تتعب بجُذى جسده فالتهمته . لقد كانت تلك العاطفة ناراً ذات لَهب هائل مثل لهب التنّور المتّقد ... وكثيراً ما صرخ في لحظات خلقه المبدع قائلاً « اني احترق » غير عالم قط انه قد صرخ .

وفي احد الفصح المذكور الذي سبق رحيله عن هذه الارض الطيبة الخضراء بخمسة ايام قال بهدوء وسلطان « اني اعرف مصيري » ولست اشك مطلقاً في انه كان يعرف مصيره وانه كان يعرفه منذ زمن طويل .

ولقد استاء الكثيرون بمرارة من ذهابه المبكّر عبر المجهول قائلين « انه لم يُكمل عَملَه بعد » ولكنه كان قد قال « اني اعرف انني لن اترك هذه الأرض الغريبة الجمال حتى يرى الملائكة ان عملي قد تمّ واني اشعر أن « الأنا » فيّ لن تفنى ... انها لن تغرق في البحر العظيم الذي يُدعى الله . »

ولا يخطرنّ في ظنّ احد ان الرجل الذي استطاع فهم الحاجات

البشرية فأمدّها بعونه الإمداد كله لم يُعط المقدرة لإدراك مسحه . فلقد عرف جـبران ما كان يجب عليه ان يفعل وأدرك ان عليه ان يكابد صابراً متحملاً وقد فعل ما فعل وكابـد ما كابد بجرأةٍ ورقـّة مجنباً احبّاءه والمقرّبين اليه كل ما استطاع تجنيبهم إياه من المعرفة المؤلمة المذهلة ولقد تفوّه بكلام ملؤه الحق المحيّر الذي يمحو كل ادعاءٍ دخيل لحقه في ايامه الأخيرة ، بل ان جبران قضى على هواجس الحاضر وشكوكه وبلبلته بكلمته القائلة « لنا الأزلية » .

وكان اذا ما اراد ان يقول لي شيئاً لكي اتذكره عنه يبدأ كلامه بقوله « اذا ما قُدّر ومتّ الليلة » وقد كانت امنيته في ذات مساء هذه «تذكـّري أن احبّ حُلـُم من احلامي هو ان يأتي اليوم الذي تعلـّق فيه مجموعة من رسومي في رواق معهدٍ في مدينة عظيمة حيث يراها الناس ... ولعلهم عندئذٍ يحبّونها » .

اما ايمانه بما وراء الباب الذي ندعوه الموت فقد عبّر عنه « هذا الرجل من لبنان » ببساطة وعمق في « حديقة النبي » اذ قال : —

« سأحيا عبر الموت وسأغنـّي في آذانكم
« حتى بعدما ترجعني موجة البحر الواسع
« الى اعماق البحر المديدة
« سأجلس في مركبكم ولو بدون جسد
« وسأذهب معكم الى حقولكم ، روحاً غير منظور .
« سآتي اليكم وأجلس قرب مواقدكم ، ضيفاً لا يُرى .
« إن الموت لا يغيّر سوى الأقنعة التي تستر وجوهنا
« فالحطـّاب سيظلّ حطـّاباً

« والحرّاث حرّاثاً ...
« والذي اعطى اغنيته للريح سيغنـّيها للأفلاك السيّارة »

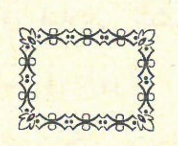
وما كان يفارق خيال جبران ايمانه ببقاء الروح قرب الأرض بعـد الموت واستمرارها فيما هي فيه ، وقد عبّر عن ايمانه هذا بقوله « اني اتوق للأزل لألاقي فيه أشعاري التي لم تكتب ورسومي التي لم تُصوّر . »

ولقد اعطى جبران خليل جبران من نفسه للناس غير مُكلّ ولا مقلٍّ يحفزه حبٌّ عميق لا يموت بل سيظلّ ابداً « مدعاة فخره وثوابه » حتى اذا ما بلغ قمّة سنيه سار الى الامام بعظمة قائلاً بحكمة كاملة «الآن سأنهض نازعاً عني الزمان والمكان »

وهاك ما قال في الأغنية الأخيرة في « آلهة الأرض » : —

« ان قلبي الالـه في ضلوعي البشرية
« يصرخ لقلبي الإلـه في الهواء
« إن الناسوت الذي نهكني يُنادي اللاهوت ...
« والجمال الذي اليه صَبوَت من البدء ينادي الله .
« لقد أصغيت فأدركت النداء
« وها أننذا أُذعن .
« إن الجمال هو السبيل المؤدي الى النفس التي قتلت نفسها .
« اضرب اوتارك
« فسأهم بالسير في السبيل
« الممتدّ أبداً نحو فجرٍ آخر . »

كان ذلك في العاشر من نيسان في الساعة الحادية عشرة مساء يوم الجمعة الاول بعد الفصح سنة ١٩٣١ اذ انتقل جبران خليل جبران الى السماء . وكان قد قال لي « ابقي معي ... لا تتركيني ... فكلّ شيء على ما يرام.» ولم يكن انتقاله بعد ساعات من الصمت الرائع ، غير نَـفَـسٍ واحد عميق طويل تنشّقه ... وكأنما طيراً غير منظور قد انطلق الى نشوة الحريَّة والشرود .



أنا مستعد للذهاب

●

« يا أبناء أُمّي ! تعالوا لوداعي .

« هاتوا الأولاد ذوي الأنامل الزنبقية والوردية

« ودعوا الكبار يأتون ليباركوا جبيني بأيديهم الذاوية ...

« ونادوا بنات السهل والحقل

« عساهن يَرَين خيالات المجهول تمر من تحت حاجبيّ

« ويسمعن في لهاثي الأخير صدى الأبدية .

« فها هو ذا انا قد وصلت الى القمّة.

« وما عدتُ اسمع نداء البشر .

« ولست بسامعٍ غير نشيد هذا الأزل الواسع[١] »

إن آلاف البشر في نيويورك وبوسطن يشهدون أن « الأنا » في جبران لن « تفنى من الارض » . ولقد أُضجع جبران « النائم » بأبهـــةٍ في بوسطن نهارَين والليل الذي بينهما ، ووقف من حوله شبابُ قريته حرس شرف لازموه طوال ساعات اضطجاعه . وكان سيلٌ متدفـّقٌ من البشر

---

(١) من قصيدة لم تنشر لجبران خليل جبران .

الحزانى يمرّون صامتين امام جسد « حبيبي » الهادىء . ولقد كان الصغار والكبار يهمسون الكلمة ، كلمة « حبيبي » وهم ينتحبون وكان الكثيرون من هؤلاء النادبين النائحين ابناء بلاده فلاح لي ، وانا اجلس في زاوية ظليلة قرب نعشه ، ان ما كان يجري لم يكن يجري في بوسطن في ذلك اليوم ، بل في مكان قصيٍّ وفي زمانٍ غير ذلك الزمان ... اذ انه كان من اليسير على المرء ان يَرى بين الجموع واحداً مثل بطرس الرسول وآخر مثل يوحنا التلميذ الحبيب ، او مَن هو كالناسك المسنّ الملتحي او كتائهٍ من تائهي البادية ... فلقد حافظ هؤلاء الناس على شخصياتهم البلدية محافظة تامّة . ورأيت الكثيرين منهم يخرّون ساجدين باكين مُعولين بينما وقف الشباب حرس الشرف صامتين بلا حراك تنهلّ على وجناتهم الدموع .

ولم يكن في قلبي ، خلال هاتيك الأيام ، سوى حزنٍ شخصيّ قليل وسوى شعور يسيرٍ بأنني ثكلى !! فيا لَلظاهرة الغريبة التي ستظلّ ابداً غريبة !!

وإن أنسَ لن أنسى ما كان اعجب ذلك كله ، لا ولا فقدان الغمّ عند هؤلاء الناس ، ولن أنسى كذلك جمال وجوههم الفاجع ولا الكلمات التي كانوا يقولونها لي عن ذلك الرجل الحبيب المضطجع امامهم بهدوء .

وكأني بنفسي تقول لنفسي « انه يخصهم فهو منهم ولهم ... اما انتِ فقد أُعطيت نعمة صداقته امداً قصيراً فلذا قفي بعيداً واتركيه لمحبّتهم ورقتهم الكسيرتي القلب » .

وقد اقيمت الصلاة في كنيسة سيدة الأرز ، تلك الكنيسة الصغيرة ، وكان الذي اقامها هو المحترم المونسنيور اسطفان الدويهي وهو صديق الشاعر المخلص المقرّب . وقد أقام الصلاة بالسريانية يساعده قندلفت شاب يحمل بيده صندل بخّور يهزّه بين آنٍ وآنٍ وصبية لبنانية كانت ترنّم

لحناً شرقياً كثيراً ما سمعه جبران !

اما الكنيسة فكانت مزدحمة حتى الأبواب والأسى واضحٌ يملأ المكان وقد وقف خارج الكنيسة مئات الذين ما استطاعوا الدخول . فلما انتهى القداس رأينا ، نحن الذين مررنا من بين الجموع المنتظرة « مشهداً قلّما يُرى في مدينة غربية ... فقد خرّ مئات من البشر ساجدين على الأرصفة وفي الشوارع ، وسُمع صوت نحيبٍ منخفض مكبوح بجهدٍ ، هو صوتٌ يوشك أن يكون غير أرضيّ النغم ...

ثم نهض الناس وساروا وراء الجثمان فتوقفت حركة السير في الطريق الذي سار فيه جثمان « هذا الرجل من لبنان » الى مقرّ راحته الموقت في مدينة بوسطن العظيمة ، عشرين دقيقة ...

حتى اذا ما انقضت على ذلك اليوم اسابيع بدأت عودة جبران خليل جبران الصامتة الى موطنه ... فنُقلت جثته من بوسطن الى رصيف ميناء بروفيدنس . وقد تمّ نقلها بعد فجر مقنّع بالضباب الذي كان جبران يحبّه ... وفيما كان المطر يتساقط رذاذاً سار رتلٌ من السيارات في الصباح الباكر يُقلّ الكثيرين الذاهبين لوداع الشاعر الرسام وشقيقته مريانا التي كانت ترافق « حبيبها » الى بيروت وبشرّي .

وما استطعتُ وأنا التي اعرف مبلغ حب جبران للشتاء والثلج و« كل ما ينزل من السماء » إلاّ ان اتذكر كيف كان يقول لي ، كلما احاطت الريح والعواصف بنافذته العالية « كم اشكر الله على هذه الريح والعواصف لأنها تحرّر شيئاً فيّ » .

وكم كان سقوط المطر ملائماً عندما لاح لي أن كل ما كان في جبران

قد انطلق متحرراً !

وقد احتشد على رصيف ميناء بروفيدنس جمهور كبير جاءوا ليقدّموا ولاءهم ويعلنوا محبّتهم ويظهروا اساهم . فتُليت كلمات هادئة تفيض عزّةً وحزناً فوق النعش الذي لُفّ بعلمَي الولايات المتحدة ولبنان .

ثم تُليت قطعة من « النبي » حيث يقول المصطفى :

« يا أبناء امّي ، ايها الراكبون البحار

« كثيراً ما اقلعتم في أحلامي ، والآن تأتون في يقظتي التي هي حُلمي العميق .

« ها أنذا متأهب للذهاب وشراعات شوقي مهيّأة تنتظر الريح . »

ثم تلا المونسنيور دويهي البركة وكلمة الوداع النهائية وأُنزل النعش الى الباخرة يلفّه العلمان اللذان أحبهما جبران بينما كانت القطع الموسيقية تعزف « انشودة السائح » لتانهاوسر Tannhauser و « موت آسا » لبيير جينت Peer Gynt و « اليك يا ربي اقرب »

وأقلعت السفينة ... وانتهى الفصل الأرضي لحياة رجل عظيم عاش في هذه البلاد ، بلاد الفولاذ والحجر فترك صمتاً في القلوب التي احبّته وفراغاً في الأماكن التي عرفته ولن يتيسّر لها أن تعرفه مرة أُخرى وترك كذلك ذكرى حيّة لكلماته حيث يقول : —

« الوداع يا أهالي اورفليس

« لقد انتهى هذا اليوم

« وما أُعطي لنا سنُبقيه معنا

« فإن لم يكفِ فسنأتي عندئذٍ ثانية معاً ، ومعاً نمدّ ايدينا للمُعطي

« لا تنسوا أنني سآتي اليكم ثانية ...

قليلاً وسيجمع شوقي غباراً وزبداً لجسدٍ آخر .

قليلاً ... بعد لحظةِ راحةٍ فوق الريح ، وستولدني امرأة اخرى . »

وما رَسَت الباخرة في ميناء سان جورج في بيروت حتى قدّم لبنان، موطن جبران ، برهاناً جديداً على ولائه وفخره ، وما عُرف في تاريخ لبنان الشيخ ولاءٌ أوفى من ذلك الولاء ... وفخرٌ اعظم من ذلك الفخر. وشهدت الصحافة العربية انه لم يكرَّم بمثل هذا التكريم رجل ، حيّاً كان أو ميتاً ، فقد جاءت حشود الحزانى الى العاصمة من كل مكان : من لبنان وسوريا وفلسطين ، ومن عبر الاردن ... وقد اعلنت الاجراس للناس خبر وفاة «هذا الرجل من لبنان» ذلك الذي بلغ اوج احلامهم المتّقدة... حتى اذا جاء يوم وصول جثمانه تولّد حزنهم الأعظم عليه . فتوافدت الجموع مكرّمةً من دمشق القديمة ومن حمص وحماه ، ومن انطاكية وصور وصيدا وطرابلس ومن البلاد المقدسة .

وهذا هو الوصف الرسمي للاحتفال كما نشرته « العالم السوري » :

« لقد استُقبل الجثمان باحتفالٍ رسمي فخم فحضر الى رصيف الميناء ممثلو الحكومة بلباسهم الرسمي ، وكبار رجال الدين بألبستهم الدينية وجمهور غفير من الناس العاديين الذين كانوا اقرب الناس الى قلب الشاعر الراحل وأعزّهم عليه .

« ومن هناك حُمل الجثمان الى كاتدرائية القديس جورج المارونية حيث استقبله مطران بيروت الماروني صاحب الغبطة اغناطيوس مبارك ، مع

حاشيته منشدين المراثي السريانية .

« وقد استرعى الرجال والنساء الذين هبطوا من بشرّي انظار الناس بألبستهم القروية الجميلة وبتعابير الحزن العميق تعلو وجوههم الفخورة .»

« ورافق رئيس لبنان ووزراؤه وأعضاء المفوضية الافرنسية العليا وكبار رجال البحرية الافرنسية ، هذا الرجل الصامت مطّرحين خلافاتهم الاجتماعية والسياسية والدينية .

« فترك المسيحيون كنائسهم والمسلمون جوامعهم واليهود كُنُسَهم ليقفوا الى جانب نعشه ... وجاء مئات الصغار الذين تعلّموا عنه فعرفوه وأحبّوه !!

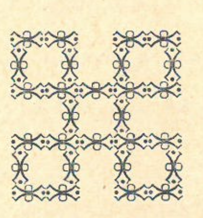
« ولقد كانت الرحلة من بيروت الى طرابلس ثم الى الجبل مثيرة للعواطف لأن الناس جاءوا يلاقونه على الطريق من كل مدينة وقرية وضَيعة، فلعب الشباب بالسيف امام المركبة السائرة وئيداً تحمل النعش . وقد جرت العادة بذلك منذ القدم لتكريم المحارب الميت العائد الى بلده .

وقد غنى الشعراء نادبين ، وهزجت النساء نائحات وقرعن صدورهن بتوقيع يماثل التغني النادب والهزيج النواح .

« ولما اقترب الموكب من جُبيل ، بيبلس القديمة ، حيث اقيم معبد عشتاروت ، آلهة الجمال الفينيقية ، تقدّمت منه الصبايا المسربلات بالبياض النافلات شعورهن ونثرن الورد في طريقه وغنّين الأناشيد مزغردات مرحّبات يستقبلن الغائب وقد عاد ، وكأنما « عريس الاحلام » حيّ لا ميت ، ثم اقترن منه ورششنه بالطيب ونثرن عليه الورود .»

وبهذا الاسلوب الذي قد يبدو للغربيّ وثنياً ، عبّر اخلص الناس وأكثرهم حبّاً عن حزنهم ، كما فعل أسلافهم طيلة قرون !!

والآن تضطجع جثة جبران صديقنا وأخينا في بشرّي قرب ارز الرب ... فلقد كان جبران شاعر الارز اكثر من غيره ... وهناك سيبني البشريّون ، مَن ظلّ منهم في القرية والكثيرون الذين انتشروا في الأرض ، قبراً يضم رفاته . وسيرتفع هناك كذلك نصب من الرخام النقيّ هو نصب تخيّله ووضع تصميمه المثّال اللبناني الأوحد ، يوسف حويّك ، الذي كان صديق جبران المقرّب ، عندما كانا يتلقيان العلم في مدرسة الحكمة . وستخلّد التماثيل في النصب المرمريّ بعضاً من أحلام جبران الكتابية والتصويرية ... بل لقد بدأ بعض هاتيك الأحلام يظهر للوجود بين يديّ المثّال .



لك السلام

•

لم يبقَ غير خيوط قليلة ليكمل نسيجُ هذه القصّة ... فقد نُشر كتاب بعد وفاة جبران بثلاث سنين يُدعى « اشعار منثورة » وإني أرى انه كتاب يسترعي اهتمام الذين يحبّون ان يتعمقوا في تركة الشاعر الأدبية. والكتاب ترجمة اشعار كُتبت بالعربية خلال سنيه الأولى ، وأُخذت من هذا او ذاك من كتبه العربية ، وإننا لمدينون لجهد شاب مخلص لا يكل هو مواطنٌ لجبران ، قدّر الأصل قدره وفهمه فأحسن فَهمه فأنتج تقديره وفهمه القصائد المنثورة الاثنتي عشرة . اما الشاب فهو اندراوس غريّب ، ولقد اعطتنا محبّته الكتاب الوحيد الذي تُرجم على هذا النحو . كان اندراوس غريّب كثير التردد على محترف الشاعر وقد نال إذناً من جبران للقيام بهذا العمل الشاق وترجمة سحر الأصل العربي الى الانكليزية . ولقد تم هذا العمل الشاق بإجادة . .

وقد لاحظ الناس ان الكتاب « لا يشبه » جبران تماماً . فهو يختلف عن جبران الذي عرفوه ، غير انهم مخطئون في ملاحظاتهم ، إذ أن الكتاب جبرانيّ صميم لأن نفسه الشابة تتحدث في الكتاب كلـه وهو لم يتكلم بألسنة الناس كما فعل في كتبه الاخرى

اسمعه يقول :—

« طهّرتُ شفتيّ بالنـار المقدّسة لأتكلم عن الحب » ويقول « كان

ذلك بالأمس فقط عندما وقفت باب الهيكل » ويقول « رأيت ثلاثة اشخاص يجلسون على صخرٍ » ويقول « وعظتني نفسي يا أخي وعلمتني » ويقول أيضاً :—

« يوم ولدتني امّي

« منذ خمسة وعشرين عاماً

« وضعتني السكينة في يدي الحياة الواسعتين

« افيض بالجهاد والعراك »

وفي القصيدة ذاتها عن مولده يقول :—

« اني احببت الناس ... بلى احببتهم كثيراً .

« والناس في شرعي ثلاثة :

« واحدٌ يلعن الحياة ، وواحدٌ يباركها ، وواحدٌ يتأمل فيها ، احببت الأول لتعاسته ، والثاني لسماحته ، والثالث لحكمته . » وفي نهاية القصيدة نجد دعاءً للسلام هو غاية الابداع في موسيقاه وجماله :

« لكِ السلام أيتها السنون التي تعلن ما خبأته السنون

« لكِ السلام أيتها القرون التي تعيد ما خرّبته القرون ...

« لكَ السلام أيها الزمن الذي تسير معنا حتى اليوم الكامل .»

ويقيناً أن هذا ليس « النبي » ولا « يسوع ابن الانسان » لا ولا اي من « ألسنته » العديدة الأخرى ، ولكنه جبران بلحمته وسداه . ولقد سمعته يقرأ هذه الكلمات ذاتها ، مترجماً إياها بسهولة ويُسر من العربية وأستطيع ان اقول ان جوهر الشاعر في كتبه الانكليزية كلها لا يزيد ذرّة واحدة عن جوهره في هذه الكلمات . فلو كانت الترجمة ترجمة جبران،

لما افتقدنا لمسة اليد التي افتقدناها ... لقد قلت ، صدقاً ، ان ما من أحدٍ يستطيع ان يترجم عربية جبران الى انكليزيته كما كان باستطاعته هو ان يفعل ولكنه ابى أن يترجم ، ولذا فلن نتمكّن من اكتشاف الكنوز التي ما زالت الى اليوم دفينة إلاّ عن طريق جُهدٍ وفيٍّ يبذله مَن يُتقن اللغتين .

ولمّا أُعطيت امتياز كتابة المقدّمة لكتاب « اشعار منثورة » قلت فيما قلت :—

« لعلّنا نحسّ هنا شيئاً يسيراً من توقّد النار الكثيفة التي تشعلها الاشعار الأصلية ... ولعلّ هنا القليل من النور الدفّاق المنبعث من إدراك الشاعر الرائع لجمال الحياة وعدلها الفاجع ويقينه الأعظم اننا « لنا الأزل » ولعلّ صدىً خافتاً من خفقان قلب الشاعر يتجاوب في منظومات هذا الكتاب . فإن كان ذلك كذلك فهذه غاية ما يتمناه اندراوس غريّب وأتمنّاه . »

وتهزّني لدى قراءتي الكتاب الصغير من جديد قوّة ما يُعلن وجمال ما يُلمّح اليه . فهو كتاب يُهلّل له جبران بتواضعٍ كما كان يُهلّل لأي من كتبه الصغيرة قائلاً « حسناً ... إنّا نستطيع ان نقول هذا كتاب جيّد » .

ولقد سبق لي ان قلت ان المرائي هو فاعل الشرّ الوحيد الذي استثناه جبران من إدراكه وتسامحه . وقد شملت رأفته الأشرار كائنةً ما تكون خطيئتهم . وفي قصيدة منثورة كتبها قبل ان يبلغ العشرين وكان قد بدأ محاولاته في اللغة الانكليزية ، عبّر الشاعر ، بما يشبه سذاجة الطفل ، عن قبوله هذا وذاك ممن « لفتوا لفتة معيبة » على حدّ قوله . وفي ذات مساء قرأ القصيدة لي من ورقة صفراء ممزقة الأطراف حتى اذا اكمل القراءة قال « بلى ... سنُعمل السوط بها يوماً فتصلح » غير أنه ما أعمل بها

السوط ولا هذّبها ولا حذف كلمة من هنا وأضاف اخرى هناك كما كان يفعل بما كتب ايام « الشباب الغض » والقصيدة التي سأعرضها على القارىء الآن هي قصيدة من عهد « الشباب الغض » وفي رأيي انها « لا بأس بها » اذ اننا نلمس فيها الحنو السماوي والرقة المتناهية اللذين يكشفان عن روح هذا الرجل ، تلك الروح التي كانت به منذ صباه وظلّت حتى النهاية :—

يسوع يقرع باب السماء

« أبتاه ! يا ابتي ، افتح بابك
إني أُحضر معي رفاقاً طيّبين
افتح الباب لندخل
نحن أبناءُ قلبك ، كلٌّ واحدٍ والجميع
افتح ، يا أبتي ، افتح بابك .
أبتاه ! يا أبتي ، إني اقرع بابك
اني أُحضر لصًّا صُلب معي في هذا اليوم
وبالرغم من هذا
فهو امرؤ لطيف وسيكون ضيفك .
لقد سرق رغيفاً لجوع أبنائه
ولكني اعرف ان النور الذي في عينيه سيُفرحك .

أبتاه ! يا أبتي ، افتح بابك
اني أُحضر امرأةً وَهبت نفسها للحبّ

وهم بالحجارة رجموها
ولكني ، عارفاً قلبك الأعمق ، صَدَدتهم .
إن البنفسج لم يذبل في عينيها
ونَيسانك لم يزل على شفتيها
ويداها ما تزالان تحملان حصاد أيّامك
وستدخل الآن معي الى بيتك .

أبتاه ! يا أبتي ، افتح بابك
اني أُحضر لك قاتلاً .
رجلٌ على وجهه الشّفَق
اصطاد لصغاره
ولكن بغير حكمةٍ اصطاد
إن دفء الشمس كان على ذراعيه
وصبيبَ ارضك كان في عروقه
وقد اشتهى لحماً لذويه
حيث حُرّم اللحم .
غير أن قوسه وسهمه كانا مُهيّئين
وارتكب جريمة قتل
ولذا هو الآن معي

أبتاه ! يا أبتي ، افتح بابك

إني أُحضر معي سكّيراً .

رجلٌ عطش لعالمٍ غير هذا العالم ،

كان من نصيبه ان يجلس الى مائدتك ومعه كأس

والوَحدة من على يمينه

وعلى يساره الوَحشة .

فرأى هناك نجومك تنعكس في الخمر

فعبّ بنَهَمٍ علّه يصل الى سمائك .

علّه يصل الى ذاته الكبرى

ولكنه ضلّ السبيل فهوى

لقد انهضتُه يا أبتاه من خارج الحانة

وها قد جاء معي ضاحكاً نصف الطريق .

هو يبكي الآن بالرغم من انه برفقتي

لأنّ الحُسنى تؤلمه

ولِذا فإني أُحضره لبابك .

أبتاه ! يا أبتي ، افتح بابك

إني أُحضر معي مقامراً .

رجل تمنّى ان يحوّل ملعقته الفضيّة شمساً ذهبية

وكواحدةٍ من عناكبك

كان يُحيك النسيج وينتظر

الذبابةَ التي كانت ، هي الأخرى ، للذباب الصغير تصطاد

ولكنه خسر مثل كل المقامرين

وعندما وجدته هائماً في شوارع المدينة

نظرت في عينيه

فعرفت ان فضته لم تصر ذهبا

وأن خيط احلامه انقطع

فدعوته لرفقتي .

قلت له « انظر الى وجوه إخوتك

ووجهي

تعالَ معنا ... نحن ذاهبون الى الأرض الخصبة وراء تلال الحياة

تعالَ معنا »

فأتى ...

أبتاه ! يا أبتي ، ها إنك قد فتحت الباب

فانظر الى رفاقي .

لقد بحثت عنهم في الأقاصي والأداني

غير أنهم كانوا خائفين ولم يقبلوا المجيء معي

حتى اظهرتُ لهم وعدك ورحمتك

الآن وقد فتحتَ بابك

واستقبلتَ ورحّبت برفاقي

ليس على الأرض خُطاة

مقصيّين عنك وعن لِقاك .

ليس هناك جحيمٌ ولا مطهر

أنت وحدك والسماء موجودان

وعلى الأرض الانسان

ابنُ قلبك ذي القدَم .

هذا هو جبران !

ويظهر تعدّد نواحي جبران خليل جبران جليّاً في جميع اعماله . فهناك قِطع متعددة من التعبير مكتوبة على قصاصات من الورق هي أشبه ما تكون بالانوار العليا المتلألئة على وشي حياته ... فقد تحدّث مرّة عن مخيّم للشباب أقيم في لبنان ايام دراسته في مدرسة الحكمة فقال « عندما كنت انام تحت النجوم كان واحدٌ من رفاقي يقول لي « اين انت ؟ » فان كنت كثير النعاس اجبته « عالٍ جدّاً » وان لم اكن كثير النعاس اجبته « ليس كثيراً » وكان البعض يسألني احياناً « اين وصلت الآن ايها المجنون ؟ » فلا اجيب ... »

ومرة أخرى حدثني عن الصحراء فقال « ان جمال الصحراء جمال غريب فلو سرنا فيها معاً وسمعتِ ناياً في الليل لالتفتِ اليّ تسألين « جبران ... هل انت الذي تنفخ في الناي ؟ » فأجيبك لا ... ذلك نفخ ناي يبعد خمسة عشر ميلا أو يزيد ... فليل الصحراء كثير الهدوء كثير السكينة ونجومه جد قريبة ... »

وقد قال لي اشياء اخرى كثيرة غنيّة في قيمها المعنوية غنيّة في جمالها

التعبيري مثل هذه التي ستلي : —

« لقد حدثتك كيف كنا ، وأنا صبي صغير ، نذهب مساء ليلة الميلاد الى الكنيسة فيذهب كل مَن في القرية ، ماشين في الثلج الصامت العميق حاملين في الليل البهيم فوانيسهم المُضاءة ، وذكرت لك كيف كانت الأجراس تُقرع عندما ينتصف الليل فتصعد مع اصوات الناس ، كباراً وصغاراً ، مرنّمة « اغنية » من الجليل ... فكان يلوح لي كأنما سقف الكنيسة الصغيرة قد انفتح للسماء ... وتقوم اليوم في تلك الكنيسة منصّة للقراءة حفرها نقولا ابن عمي ، والد فليوني « جبران الصغير » ... كم احب ان ارى تلك المنصة مرة ثانية واستمع لكلماتها الصامتة . »

« كنت اليوم أفكّر بجدّة يسوع وبزهوها به ... ألاّ ترينها حاملة إياه بفرح ومحبّة ، صاعدة به مساءً الى سطح البيت لتُريه النجوم ... ثم الا ترينها رافعةً له ، وقد شبّ ، اصبعها معنّفة اياه بلُطف وابتسامة المحبّة على شفتيها لأنه لم يَعُد طفلاً كالأطفال بل كانت طُرقه حكيمةً ... وما كان يصغي لرأي النساء ولا يستمع الى مشورتهن . »

« لو شئتِ وشئتُ ألاّ نتكلم غير الصدق الخالص المجرّد مدة خمس دقائق يتخلّى اصدقاؤنا عنّا . ولو تكلمنا مدة عشر دقائق لنَفَونا من البلاد ولو تكلمنا مدة ربع ساعة ... لعلّقنا ! »

« إني أؤمن أن في العالم جماعات من البشر تجمعهم رابطة القُربى وإن اختلفوا جنساً . انهم يحيون في نطاقِ وعيٍ واحد ... وهذه ، لعمري ، هي القرابة الحقّة . »

عندما وُلدت قلت : سأعود الى حيث اتيت ... ولما كنت ابن ثلاث سنوات زارت بشرّي عاصفة فمزّقت ثيابي وصرخت : انا ذاهب مع العاصفة . وقلت في الثانيــة عشرة : سأبقى هنا قليلاً لأن لديّ ما أقوله . وفي العشرين نسيت ما كنت سأقول . وبدأت ، في الثالثة والثلاثين ، اتذكـر ... »

« لو لم تكن في الفلَـك إلاّ نجمة واحدة ، ولو لم تكن في الأرض سوى زهرة ابديّة التنوير ، او شجرة تعلو في السهل ، ولو ما تساقط الثلج سوى مرة واحدة كل مائة عام ، لعرفنا ، عندئذٍ ، كرم الذي لايُحدّ »

« إبدعي الجمال ، ودعي كل شيء آخر يذهب الى جهنم . »

وقد عبّر جبران كتابةً عن آراء شتى في الفن والشعر مرة بعد مرة فكتب :

« انا اعتقد أن فن اليوم مدين بأبدع عناصره للعرب الذين حافظوا على الروح التي كُتب بها كتاب الموتى والأفيستا وسفر ايوب وعزّزوها ، تلك الروح التي أوحت حَفر الثور الكلداني المجنّح ذي الرأس البشري... وأعني بفن اليوم ذلك الجوع الديني الذي لم يبلغ القرن بعد ، والذي هو الحلقة الذهبية بين رجل اليوم ورجل الغد الأعظم . إن عَين الفنـان الاغريقي كانت انفذ من عين الفنان الكلداني والمصري ، ويده احذق من يدهما ، غير انه كانت تنقصه العين الثالثة التي كانت لهما . لقد استعارت اليونان آلهتها من بلاد الكلدان وفينيقيا ومصر واستعارت معها كل قيمة عدا البصيرة ، بل عدا الوعي الذي هو أعمق من العمق وأعلى من العلو . لقد اشترت اليونان من بيبلوس ونينوى الكأس والابريق ولكنها مـا

ابتاعت الخمر ... وقد كان بمقدورها ان تبدع الكأس والإبريق اوعيةً من ذهب ، بسيطة الشكل جميلة ، غير انها ما استطاعت ان تملأها بغير الواقعية المائعة .

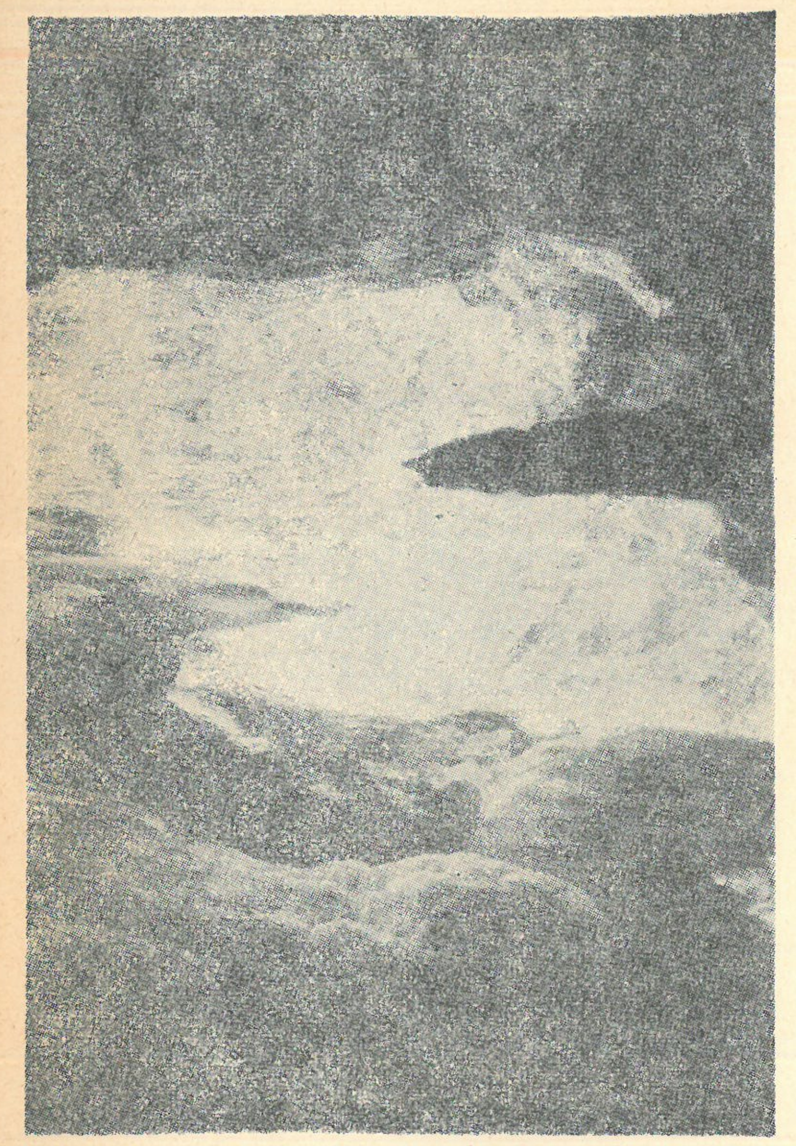
« إن المخلوق القوي الوحيد في الميثولوجيا الإغريقية هو بروميثيوس Prometheus ، حامل النار ... حامل الشعلة ... ولكن يجب ألاّ ننسى ان حامل الشعلة الأصيل كلداني ... وليس إغريقياً ! فلقد عرفته شعوب آسيا الغربية مدة الفي سنة قبل حَملة تروجان Trojan .

وفي العالم قلائل يحبّون الفن الاغريقي كما احبّه ، غير اني احبّه لما فيه لا لما ليس فيه ... اني احبُ فيه السحر والجدّة والجمال والبهاء الجسدي ، غير اني لا أستطيع ان اجد في هـذه المزايا كلّها الالـه الحيّ ... بل ارى فيها خيال خياله ليس إلاّ »

وهذا ما كتبه عن الأدب :

« لعلّ أعظم الآداب هي الآداب العربية — او بالأحرى السامية — والاغريقية والانكليزية . ان النبوغ هو في عدم قبول الأشياء على علاّتها. كان كيتس Keats وشلي Shelly احتجاجاً صارخاً على مـا حولهما ... ولقد احبّا البيئـة الانكليزية غير انهما اعطياها وضعاً كلاسيكيـاً في عالم خيالي . وهكذا فعل سبنسر Spencer . ولكن الاغريق والرومانيين غير غرباء عن العالم الاغريقي والروماني ... والفرنسيين كذلك غير غرباء عن عالمهم ... انهم يقبلون ما يرون صاغرين ... امـا دانتي Dante فلم يقبل...انه كان اعظم احتجاج . »

وهذا عن شِلي ايضاً :



مغارة قاديشا

من معجزات الطبيعة في لبنان الجميل

« كان شِلي عالَماً بنفسه ، إن روحه روح إلهٍ ثائر تعبٍ حزين كثير الحنين ... قضى ايّامه متغنياً بعوالم اخرى ... هو اقل انكليزية من الشعراء الانكليز وأكثرهم شرقية ... »

وهذا من رسالة كتبها في بوسطن قبل البدء الفجائي لكتابة « يسوع » ببضعة اسابيع :

« في الليلة الماضية رأيت وجهه مرّة ثانية فكان اوضح مما كان من قبل . انه لم يكن ملتفتاً نحوي بل كان ساهم النظر في الليل الواسع فرأيت جانب طلعته ... كان وجهه هادئاً حازماً وظننت انه لا بدّ يبتسم ... غير انه ما ابتسم ... كان الشباب الذي لا يمسّه الكبَر الشباب الأزلي ... لم يكن الله . لا ... بل ابن الانسان المتعرض لكل ما يتعرض له الانسان ، العارف جميع ما عرفه او سيعرفه . لقد كان وجهه وجهَ مَن لا يُغلب ، كان وجهَ محبٍّ وشقيق وصديق . امّا شَعره فكان منثوراً للوراء ، بعيداً عن وجهه ، يشبه جناحَين نيّرين صغيرين يعلوان جانبي رأسه . وكان عنقه أسمر قويًّا وعيناه كالجمر الاسود ... اني اشعر الآن يا صديقي انني استطيع لأول مرة تصوير ذلك الوجه ، وسيكون مثل رأس التمثال في مقدّمة سفينة عظيمة .

« لقد مشى رجلاً يجابه ريحاً قويّة ولكنه كان اقوى من الريح ... كان يدثر بالرداء الصوفي الخشن ، وكانت قدماه حافيتين معفـرّتين بعَفر الطرُق الملتوية . وقد رأيت يديه الكبيرتين القويتين ومعصميه الضخمين كأغصان شجرة ... وكان رأسه عالياً . ورأيت في محيّاه مراماً مديداً وحنيناً صامتاً » ..

لنـــا الأزلية

●

إن تزُر وادي قاديشا ، وادي النهر المقدس ، تترك عالم اليوم وما فيه ، وتغرق روحاً وجسداً في محيط قديم لا يحدّه الزمن . إن للأخاديد والشقوق التي قدّها النهر في الصخر روايةً تحبس على المرء انفاسه وتخرس كلماته .

ولكي نصل الى كورة الأساطير تلك سارت بنا السيـارة في الطريق الساحلي الممتد بين بيروت وطرابلس . ذلك الطريق الكامل التعبيد ، مارة بمزارع الموز والدخان وقصب السكر ، الممتدة اميالاً ، وبكروم العنب والتين والزيتون والمشمش والتوت والبرتقال . إن قطعة الأرض الواسعـة الخصبة الممتدة بين البحر والجبل قد أُحسن استغلالها فكل قـدَم فيها قد افاد منه اللبنانيون البهيّو الطلعة المحبّو الاقتصاد الكثيرو الكد والاجتهاد.

ولقد مررنا بقطعان الخراف المربربة المعلوفة ورعاتها الذين يشبهون رعاة الماضي السحيق ... ثم انعطفنا بعـــد ان مررنا بجبيل ، ببيبلوس القديمة ، وسرنا في الطريق الجبلي المؤدي الى ارز الرب ، والى بشرّي الجاثمة في ظلال عمالقة الغابة المَهوبين .

اما قرار الوادي الذي منه بدأنا التصعيد الى ما يقارب التسعة آلاف قـدم فأخضر خصب بهيّ ... وفيـه يلتقي النهر بجداول كثيرة تنحدر متدفقة من الينابيع والثلوج التي تكسو الجبال . امّا المرتفعات التي كنا نـُصعّد فيها فكان اخضرارها يقلّ كلما ازددنا تصعيداً ، حتى اذا وصلنا

الى القمم بدت صخرية عارية ، عدا ارزاتٍ صغيرات منتشرات ... ألا َ إن جمال تلك الجبال الرائع جمال لا يُنسى ولا يوصف !

إن اعالي القمم رمادية ذات اسرار ، ينظر اليها المرء فيخالها كاظمة ما بها من غيظ ثم تعود فتمسي رقيقة ظريفة زاهية بالنور الوردي والبنفسجي والذهبي تغمرها امواجه عند الفجر او عند المغيب . إن جمال تلك القمم جمال بريّ الشكيمة عظيم الجبروت يحمل العقل على التأمّل والتفكير بكلمات جبران « لنا الأزلية » .

فهنا يلوح الزمن وما للحوادث من اثر قد اعتكفا في آمادٍ مبهمة ... ويلوح لي أن القرون ، لا الأميال ، هي التي تفصل بين بيروت الغاصة بالناس الصاخبة بالصوت واللون والحياة ، وهذه الجبال الراسخة الهادئة ونسّاكها السابغين في وحدتهم متعبّدين ، سجناء تأملاتهم ، ورعاتها الذين لا يُبدون حراكاً بجانب خرافهم .

هنا نرى بعض سحر « هذا الرجل من لبنان » ... فهذا هو بيته وهذه هي الأشياء التي غذّت روحه وهو لهذا الجمال الطفل والحبيب !! هنا نفقد كل شعور بخطر الحرب الوشيك رغم مرورنا بمعسكرات الجند الذين استُنفروا على عجل (فنحن اليوم في اكتوبر ١٩٣٩) وهنا ننسى ان بيروت ودمشق تطفئان الانوار وان شوارعهما تزدحم بالجند الفرنسيين الاقليميين اولئك السنغال الضخام الجثث الذين احضروا لاحباط اية محاولة عدوانية على الجمهوريتين الصغيرتين اللتين لا جيش لديهما ولا اسطول .

ها نحن نسير الى بشرّي قُدُماً مردّدين في انفسنا « جبران خليل جبران ...»

ونروح مصعّدين ، وكلما صعدنا خفّ الهواء من حولنا فما انزعجنا بل كنا فرحين متهللين ...

وننظر الى الطريق من تحتنا فاذا به كالافعوان الملتوي البرّاق ...

واذ نمرّ بقرية يذكر لنا الرفاق الذين يحجّون معنا اسمها ... امّا هؤلاء الرفاق فلبنانيون فاضلون ، لطاف ، مرموقون ... فمن ناظر المتحف الوطني في بيروت الى صحفي هو في طليعة الصحفيين في لبنان ، الى عضو في اللجنة الفرنسية ، الى معلم علوم شاب في الجامعة الاميركية ... انهم اصدقاؤنا من اجل جبران !

اما نحن الذين قطعنا ستة آلاف ميل حتى جئنا موطن جبران هذا فكم ارضانا تعلّقهم به وكم سرّنا إجلالهم لذكراه !!

ثم مررنا بقريةٍ إثر اخرى فاذا الدور كالعاج القديم ، ذات اسطحة حمراء كالصدأ ... وعُدنا فرأينا راعياً وقطيعه الصغير يرتعي العشب في بقعة مخضرّة على السفوح ... وينظر الينا سكان القرى نظرات هادئة . إن عيونهم جميلة حنونة وابتساماتهم عريضة ... امّا ثيابهم فليست كثيابنا اذ انها تنتسب الى حضارة قديمة بسيطة ومع ذلك فإننا نحبّها .

ويلتفت الينا اصدقاؤنا قائلين « انهم يعرفون مَن انتِ ، فلقد سمعوا ان صديقة جبران الاميركية ستزور اليوم صومعته ولذا ترينهم ينتظرون فابتسمي لهم ولوّحي بيدك » فأبتسم وألوّح بيدي ثم تشقّ عليّ رؤية وجوههم لأن تفكيري بحبّهم العظيم لشاعرهم ، شاعر الارز ، يجلب الى عينيّ دموعاً مفاجئة ..

هذه هي الطريق التي سافر فيها مرات كثيرة ، وهذه هي القرى التي عرفها جيّداً ، وهؤلاء هم الناس الذين سمعوه متحدثا ورأوه متنقلا في صباه .

وقابلتنا على طول الطريق كروم العنب ذات القطاف الغني اللذيذ الذي كان يُجمع يومئذٍ ... وقد امتدت هاتيك الكروم الجميلة الشكل البديعة التنسيق اميالاً وأميالاً .

ها هو ذا نحن قد اجتزنا كل تذكير بما يجري خلفنا ...

ها هو ذا نحن في عالم قريب من السماء ... او هكذا يخيّل الينا ، ومع ذلك فنحن مـا زلنا ننظر الى فوق مصعّدين نحو الثلج الجاثم على قمم لبنان ، القائم ابداً هناك ، صامتاً صافياً سريّاً مثل الله !!

ثم ...... وصلنا الى بشرّي .

لقد أضجعوا جبران في قبو صغير في كنيسة دير مار سركيس ... وما اكثر الحجّات الى هذا المكان ! وكثيرون هم الذين يقفون صامتين او يركعون خاشعين أمام النعش القائم على القبر المنحوت ! هـا هنا تضاء الشموع ... وها هنا تُتلى الصلوات ! هي شموع ينيرها كثيرون وصلوات يتلوها عديدون ينتمون لمذاهب جمّة ... لأن جبران كان الأخ الروحي لكل البشر ، والبشر يعرفون ذلك فلا يحول بينهم وبينه ايمان او معتقد او لون ...

إن الدير قديم جداً ، ولا يعرف احدٌ من تاريخه شيئاً ، وهو وعر المسالك منحوت في جانب الجبل ، بل إن حيطان بعض غرفه تتكوّن من صخر الجبل ذاته ... ولقد أحبّ جبران هذا المكان وتردد اليـه صغيراً ... وكم رغب في أن يعود ليعيش فيه لأن الأرز الذي أحبّه يحيط به . وكذلك كان يرغب جبران في أن يُضجع في «الأرض الطيبة السمراء» واني أعتقد أن روحه الطليقة ترفرف فوق ذلك الصقيع راجية أن ترى رفاته البشري مُنزلاً الى عُزلة التربة الهادئة المترقّبة ...

وفي بناء صغير متواضع في بشرّي نجد عدداً هاماً من رسوم جبران وتصاويره يقرب من السبعمائة والخمسين رسماً ، كما نجد الاثاث الحبيب الذي استعمله الشاعر سنوات في محترفه بنيويورك . فها هو الكرسي الذي جلس عليه . وها هي الطاولة التي كان يترك عليها الدفاتر البنيّة الصغيرة والتي

عليها كتب كلمات « النبي » خمس مرات .

وها هي ذي الرسوم الزيتية الكبيرة تُعلّق على الجدران التي تشكو القصَر ... فها هو رسم « الام العظمى » و « التضحية » و « آلهة الأرض » و « شجرة الحياة » ومئات اخرى غيرها لا تقل عنها جمالاً ، ملقاة على الطاولات الطويلة بلفـّات تناقلها الشاعر مرات عديدة عندما كان في قيد الحيـاة .

وكم يرجو الكثيرون ان تُنقل هذه الكنوز الثمينة من هذا المكان الصغير المتواضع فترسل الى بيروت وتوضع في متحف تذكاري لائق يُخصص لآثار جبران ... وعلى ذكر هذا فقد علمت أن لبنانياً مرموقاً قد عرض على المدينة قطعة أرض جميلة ليُشاد فيها المتحف الذي يرتأي اللبنانيون أن يُعدّ لاستقبال مخلّفات جبران .

ولما بدأنا الهبوط من الجبل ، متأخرين ، أُعجبنا بجلال الليل اللبناني وجماله ... إذ ما كاد ضوء النهار يضمحلّ حتى غدت مرتفعات لبنان رائعة مدهشة تأخذ بمجامع النفس ... فها هي ذي ارجوانية هنا جَمَشتية هناك ، ياقوتية هنالك وزرقاء مثل مياه المتوسط بين هـذا وذاك وذلك ... حتى اذا اقترب المساء شيئاً فشيئاً انقلبت السماء وردية ثم لازوردية ثم فضيّـة ، ولمعت الجبال بسوادٍ فتّان مثل سواد العاج او البرونز المصقول جاثمـة تحت رَبَوات النجوم التي ظهرت فجأة . لقد كان ذلك الليل كالذي يراه الانسان في الحلم وقلّما يرى مثله في الواقع ...

ثم هبطنا منحدرين في الطريق الجبلي الى طرابلس فمررنا بشوارعهـا المظلمة ... وكانت الانوار الزرقاء الفاقعة تلوح باهتـة من ابواب المخازن ونوافذ البيوت والفنادق المغطاة بالستائر ...وكانت موسيقى غريبة مُعولة تنتشر في الجو ، هي ألحان اغنيةٍ عربية تُنشَد بمصاحبة العود . لقـد

سمعناها في المدينة كلها اذ كنا عائدين سائرين بحذَر متئِّدين . كانت الاغنية ذات وصلتين : وصلة حزينة ووصلة عنيفة . وكأنما كل مَن في المدينة كان يتغنّى بها ساعتئذٍ ، إذ لم يكن لدى الناس ما يشغلهم وهم يتسامرون في الحدائق المظلمة وعلى الشرفات المعتّمة .

فلما قطعنا الطريق الممتد على طول الشاطىء ودخلنا بيروت لم استطع إلاّ أن أتذكـّر ما قاله جبران عن المدينة الحديثة دون انوار ... فها هي ذي المدينة التي كانت تتألق فيما مضى بالأنوار يضيئها القمر والنجوم كما كان يشتهي جبران ويتمنّى ، اذ لم تكن الأضوية الزرقاء المنتشرة في الشوارع لتبدو اكثر من حباحبٍ في الليل ... اما جبران فما تمنّى ان يتم ذلك بسبب الحرب التي من اجلها غدت بلاده الصغيرة الجميلة معسكراً مسلـّحاً. ولقد تحدث جبران ببُعد نظر عن هول الحرب التي كانت تـُنذر بالشر.

إن بيروت اليوم هي غير بيروت ايام صباه...فلقد اضيفت الى فوضى الألوان وفوضى الألبسة فيها فوضى ازياء لا تـُعدّ ولا تُحصى ... اذ كان الانسان يصطدم بالجنود في كل مكان فهم في الشوارع والحانات والحافلات وفي دهاليز الفنادق والمطاعم والمقاصف ... وقد احتل الضباط فندق سان جورج العصري الفخم والمتروبول واحتلوا نـُزل سان تشارلس الانيق البهيج (حيث كنت قد أويت آمنة مطمئنة مؤملة ان ابقى فيه طيلة لـُبثي) وهذا نـُزُل تديره راهبات المانيات بإتقان ...

وكذلك وضع الجيش حداً لأعمال الدولة المدنية فأصبح رئيس الجمهورية رئيساً رمزيًّا يعاونه موظفون قلائل ... إن الحرب التي عمّت العـالم ألقت لبنان في شباكها ... ولم يكن لبنان يومئذٍ سوى بلد صغير تحت الانتداب الفرنسي .

وتسأل « اين هذا من سنوات الصداقة السبع التي اكتب عنها؟» فأقول:

كان اسم الشاعر وساماً معلقاً على صدري انـّى توجّهت ... بل كان تعويذتي ايّان يمّمت .

ولقد بدا سحر ذلك الاسم من البدء ، منذ أن هبطت طائرتنا ...فقد بدأ الموظفون فحص الجوازات فعرفوا انني كاتبة . فسألوني وألحفوا بالتسآل.

قالوا وفي صوتهم رنـّة اتهام « ماذا ستكتبين ؟ »

فأجبت « اني اود ان اكتب كتاباً عن شاعر ورسام لبناني .»

فسألوا مرتابين « ما اسمه ؟ »

قلت « جبران ... »

قالوا « جبران خليل جبران ؟ »

قلت « نعم ... »

فكان في ذلك ما كفى . لقد كان اسم جبران تعويذتي فما أعاقوني قط . انهم يعرفونه انـّى كانوا ... ولست ادري كيف ذاع الخبر فعرفت بيروت أن صديقة جبران الاميركية قـد هبطتها فأصبحت المدينة كلهـا صديقتي من أجله .

ولقد جاء الكثيرون الى فندقي يتحدثون عنه ويسألونني عن حياته في امريكا . وجاء فيمن جاء رجال ممتازون كانوا زملاءه في الدراسة منهم الكولونيل الياس مدوّر قائد الدرك اللبناني الذي كان موقفه من قضية الحلفاء مدعاةً لتكريمه .

ثم اقترب يوم الابحار ... وكان جميع الامريكيين في لبنان يُحثّون على العودة الى امريكا .. ولكن ما تزال هناك زيارة لا بد من القيام بها .

فلقد شيد في المكان الذي كانت تقوم فيه مدرسة الحكمة معهدٌ حديث جميل هو منتهى الروعة الهندسية وغاية الابداع البنائي .

ذهبت اليه يوم الاحد الاخير وحفيدي كريستوفور الذي كان قد رافقني

كظلّي في السفر الطويل المضني وهو لم يتجاوز الرابعة من عمره . وقد رافقنا داود ازرق معلم العلوم الشاب المدرّس في الجامعة الامريكية ... وهو الذي كان قد رافقنا فيما مضى من ايام في رحلاتنا العديدة الى بشرّي ودمشق وغيرهما ، وكم نحن مدينون للطفه اللامتناهي واهتمامه الكيّس الذي لا يُحدّ . فلولاه ما رأينا أكثر ما في هاتيك البلاد الجميلة وأحسنه. فهو الذي نظّم ايامنا بعد ما عرف أن العودة الى امريكا امرٌ لا بدّ منه. ولقد كان ، كذلك ، ترجماننا ودليلنا . بل هو الذي كان ، حتى آخر لحظة، صديقنا الوفيّ الودود ...

ذهبنا ثلاثتنا الى كلية الحكمة فرأينا كيف يتم تهذيب الشباب اللبناني حسب ابدع التقاليد العربية فيُثقّفون بثقافتهم الغنية ... وفيما نحن نسير في الرواق الكبير يرافقنا الاب يوحنا مارون ، وهو كاهن اسمر العينين ، طويل القامة هزيلها ، رأينا باباً صغيراً ، حقيراً ، واطئاً ، قذراً ، كان يلوح في غير موضعه بين كل ما هو جديد من عصريّ البناء ورشيق الهندسة . وقف الاب يوحنا واضعاً يده على حلقة الباب فاذا بداود يقول موجهاً الكلام الينا « هذه هي الغرفة التي تعلّم فيها جبران في صباه ... انهم يسمونها « قلب الكلية » ذلك لأن الكلية الجديدة شيدت حولها ، وهم ما سمحوا لشيء فيها ان يمسّ بتغيير . »

حتى اذا ما دخلنا الغرفة وجدناها قديمة حقّاً ... فها هي ذي مقاعد الدراسة قديمة ثلّمتها سكاكين الطلاب ... وها هو ذا المقعد القديم الذي كان يجلس عليه الاب « حداد » « الرجل الوحيد الذي علّم جبران شيئاً » وها هو ذا لوح الكتابة القديم ايضاً ما تغيّر به شيء قط ... حتى اذا ناول الاب يوحنا طبشوراً لحفيدي الصغير ، الذي يعرف صديقه جبران « في الضباب » ويحبّه ، كتب الصبي على اللوح علامات من عنده . وما تكلّم احدٌ شيئا !!

وجاء في المساء الذي سبق إبحارنا فريق من هؤلاء الأفاضل الى فندقنا مودّعين ... ولم يكن مجيئهم من اجلي بل لذكرى « هذا الرجل من لبنان» ولئن كتبت هذا فإنما اكتبه ليعلم القارىء منه أن مواطني جبران كانوا يؤدّون له التكريم بكل وسيلة يستطيعونها . ولو أنه عاش جُل حياته في اميركا ومات فيها تاركاً لنا ولهم كنوزاً لا تُقاس ولا يمكن التحدث عنها بافصاح ...

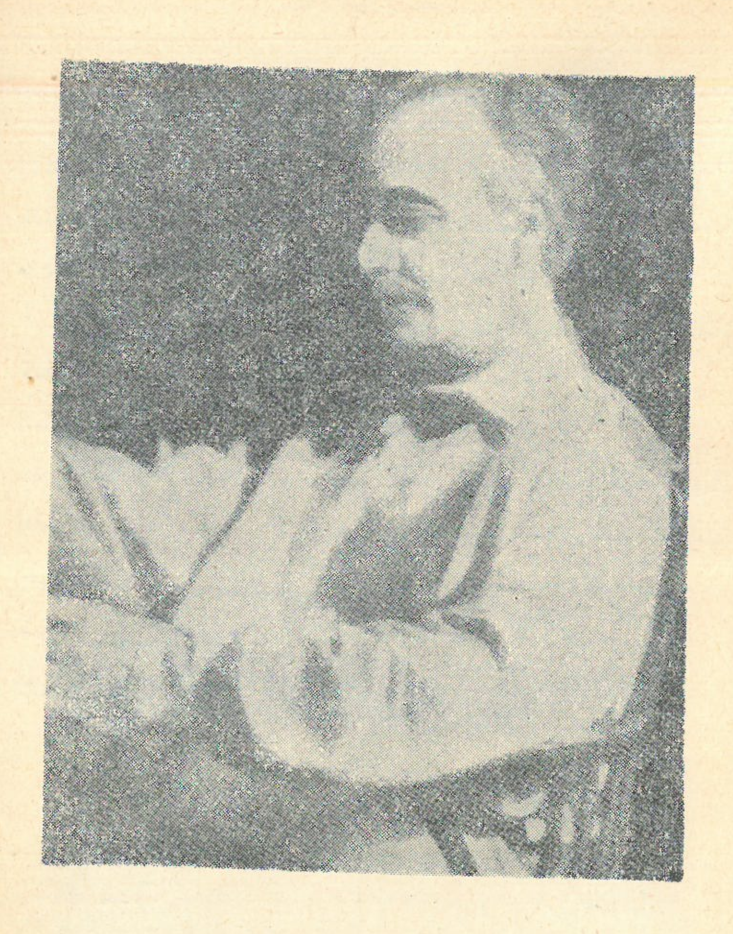
وجاء فيمن جاء داود ازرق والكولونيل مدوّر ويوسف حويّك المثال وادمون وهبه من اللجنة الفرنسية العليا وفؤاد افرام البستاني ، وهو صحافي وحجّة في الآداب العربية ، وجاء الأمير موريس شهاب ناظر المتحف الوطني ... وقد كان من دواعي اغتباطي العظيم ان جاء الرئيس بيارد دودج وعقيلته ، هذان الصديقان اللذان خفّف وجودهما حراجة الموقف الذي وجدت نفسي فيه ، فوهَبانا متعة التنقل ساعات عديدة هادئة في حديقتهما الجميلة .

وقد تحدثنا عن جبران ، وعن عودتي الى لبنان بعد الحرب ، وعمّا يمكن ان يُعمل لجعل تركة الشاعر اكثر نفعاً لكل مَن يودّ الانتفاع بها...

ثم جاء دور التمنّيات الطيبة بالعودة السعيدة ...

وانتهى الفصل !

خرجت من غرفتي في اواخر تلك الليلة وحيدة ووقفت على شرفة الفندق الصغير الانيق ذي الاسم الكبير « جران اوتيل دي اوريان بسّول» قرب الماء ، في خليج سان جورج الجميل ، وهو يقع على زاوية شارعي شاتوبريان وفرانسيز ... ردّدت الاسمين الفرنسيين في نفسي فشعرت بتردد غريب لترك بيروت ... بل لترك لبنان ... فلقد جئت وبي رغبة في صرف عدة سنوات هنا لكي ادرس اللغة العربية فأتمكن من الترجمة منها...



آخر رسم لجبران قبل انتقاله

ولقد أمّلت كذلك ان اهذّب الصبي حفيدي في لبنان ... وكم كنت أودّ أن اسمعه يتكلم العربية في طفولته ويتغنّى بأغانيها ويحيا في الجوّ الذي كان جبران جزءاً منه !

ولقد لاحت لي «بشرّي» منتهى الجمال الفطري والاستقامة الطبيعية... آه لو نتمكّن من أن نحيا بعض السنة في بشرّي والبعض الآخر في بيروت

ولكن ها هي الحرب قد جاءت ...

نظرت عبر الخليج الى الجبال الملقاة تحت النجوم المعلّقة التي تملأ السماء فلاحت لي كأنها الجمال الأزليّ المجسّم .

ثم لاحت لي اميركا فجأة ... ولاح لي مسكني !! ففكّرت بكلّ ما تركت وتذكرت جميع الاحبّاء الأعزاء ، احبّائي ... فخفق قلبي فرحاً وحبوراً وسرّني ان اعرف اننا في غد عائدون !!

لقد اختار جبران خليل جبران امريكا فاتخذ له مسكناً فعاش بها ايامه ولياليه ، وأكمل فيها اعماله ومآتيه . ولقد استقبلته امريكا باحترام اكيد كريم ... وهي لن تنسى جبران !!

ولعلّ قوة كلماته وما لأعماله من تأثير تجد في امريكا ما لا تجده في لبنان ، تجد المجرى الواسع العميق فتصبح نهر إنعاشٍ للعالم القاحل الخَــرِب.

وقد نُقشت على جرس كبير زنته ستة اطنان تمّ صقله في كرويدن بانكلترا ويعلّق الآن مع اجراس اخرى في قبة كنيسة شوف التذكارية Shove Memorial Chapel في كليـة كولورادو ، لاعلان التوقيت كلمات جبران القائلة :

«ليس الأمس سوى ذكرى اليوم
وما الغد الا حُلم اليوم»

جبران

فهرست

صفحة

٧ الاهداء
٩ مقدمة المترجم
٢٩ مقدمة المؤلفة
٣٥ كنت بركاناً صغيراً
٤٥ خطر ثوروي ومسمم للشباب
٥٥ اننا عقلنا أرضنا
٦٨ سحر العربية
٧٧ لماذا انا هنا
٨٩ الحق هنا
١٠٣ ضبابة تُنقش صوره
١١٣ هل هو صوت الشعب العربي

صفحة

١١٩ كلمات لا يحدّها الزمن
١٢٩ استمرار الحياة
١٣٥ صديقنا وأخونا
١٥١ عندماهبط ليل الايون الثاني عشر
١٥٧ مسكينة الأمة
١٦٥ لغز هو أنا
١٧٥ شديد يطفح قوة وحياة
١٨٣ مرة اخرى لقد انقضت
١٩١ انا مستعد للذهاب
١٩٩ لك السلام
٢١٣ لنا الأزلية

فهرست الرسوم

٥ جبران خليل جبران
٢٥ بربارة يونغ
٤٣ جبران في مدرسة الحكمة (بيروت)
٦٥ جبران في الخامسة والعشرين
٨٧ جبران في باريس
١٠١ جبران يرسم
١١١ الجهد العظيم
١٣٩ يسوع ابن الانسان
١٤٩ المصلوب
١٦٣ مريم ام يسوع
١٧٣ محترف جبران في نيويورك
٢١١ مغارة قاديشا
٢٢٣ آخر صورة لجبران

٤٥/٤٠٠٠/٣/١٩٦٤